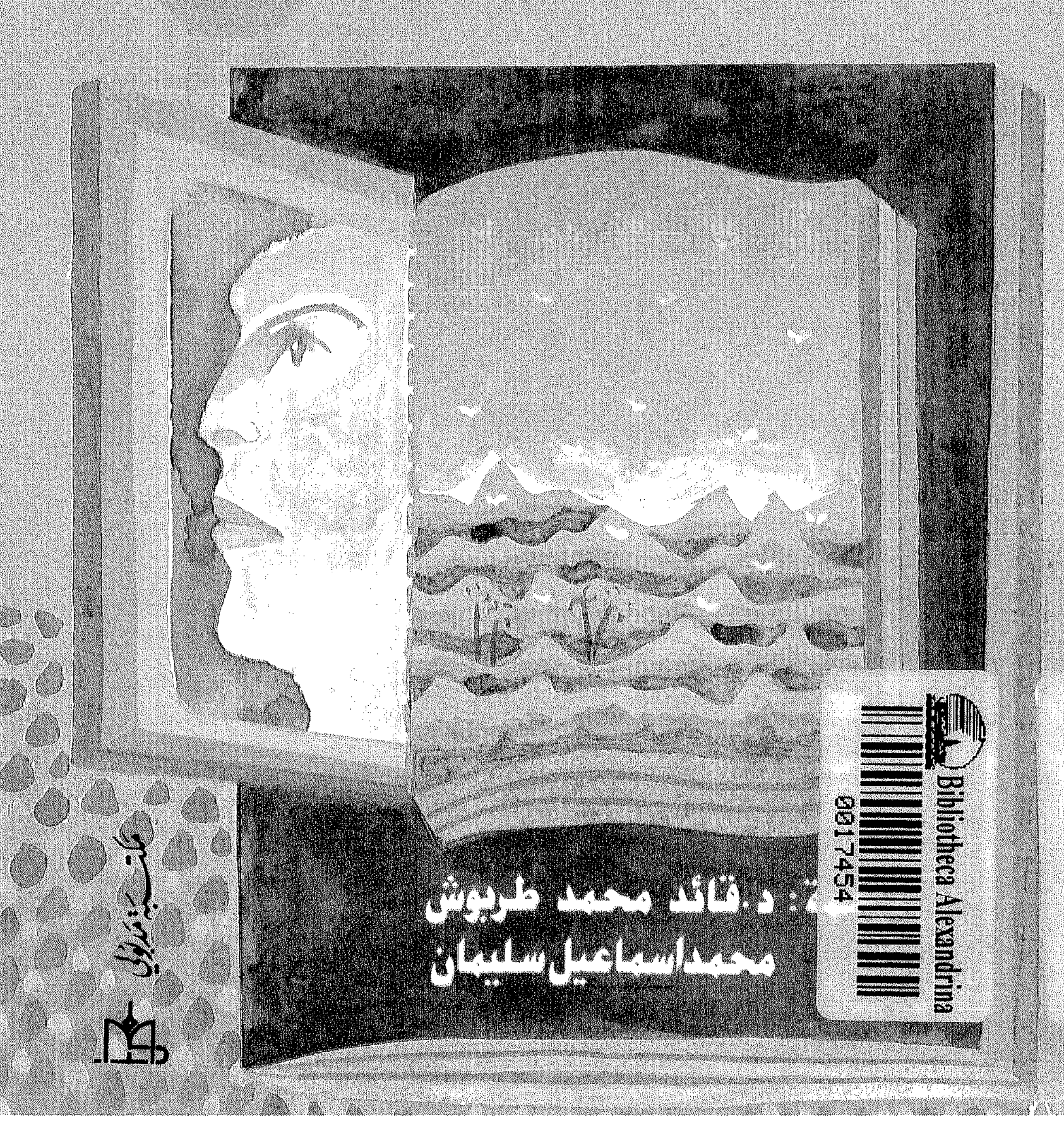
مذكرات دبلوماسي في اليمن

ج. انكارين





جـ . انكارين

مذكرات دبلوماسي في اليمن

ترجمة : د. قائد محمد طربوش
محمد اسماعيل سليمان

مكتبة مدبولي

الطبعة الأولى ١٩٩٣

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

الإهـــداء

إلى المهندس منصور على بن عبد الله الذى غاب قبل الأوان . .

قائد



تصـــدير

هــذا المؤلف الذى نقدمه للقــراء الكـرام يصدر فى الاتحــاد الســوفيتى الســابق عن اليمـن . كتبه جـ . استاخوف باسم مستعار « انكارين » .

وكان استاخوف رئيس الجانب السوفيتى فى المحادثات اليمنية السوفيتية بصنعاء ، التى تكللت بتوقيع اتفاقية صنعاء بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر عام ١٩٢٨ ، وكانت أول اتفاقية بين دولة عربية وبين الاتحاد السوفيتى تم بموجبها التبادل الدبلوماسى بينهما (١) .

لهذا الكتاب أهمية تكمن فى أن مؤلفه كان شاهد عيان للأحداث الساخنة التى حدثت فى صنعاء فى صيف وخريف ذلك العام .. المتمثل بالتهديد الانجليزى للجزء المستقل عن اليمن من أجل أن يتخلى عن بعض المناطق المحاذية لمستعمرته عدن وسلطنه ، لحج آنذاك من جهة ، واحتدام الصراع بين الدول الأوربية على شبه جزيرة العرب عموماً ، واليمن على وجه الخصوص من جهة ثانية .

يشير المؤلف إلى محاولة الحكومة والجزء المستقل من اليمن استعادت الأراضى المحتلة آنذاك وبداية المشاكل اليمنية ـ السعودية حول عسير وانتفاضة الزرانيق وتداخل العلاقات اليمنية الإيطالية والانجليزية اليمنية . لقد وصف هذا الديلزيكى انطباعاته عن اليمن وحكى عن لقاءاته بالمسؤلين اليمنيين ومشاهداته لأحوال الناس وتوقعاته للأوضاع انذاك منها تلك التى ثبت صحتها ومنها التى لم تثبت . ورغم أن المؤلف قد أشاد بالامام يحيى لكنه قد تطرق إلى العزلة التى فرضها على الجزء المستقل من اليمن وتمركز السلطات كلها بيد الامام نفسه .

لقد كتب المؤلف كتابه هذا وأصدره فى وقت كان فيه كثير من اليمنيين والعرب والأجانب يعقدون الآمال على أن يقوم الامام يحيى بالاصلاح فى المجالات المختلفة. غير أن الامام يحيى قد خيب آمال الجميع فى ذلك لقد كتب هذه المؤلف فى وقت لم تكن فيه قد تكونت حركة المعارضة

---

(١) والاتفاقية التى وقعت بين اليمن والاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر ١٩٢٨ .. اعترف الاتحاد السوفيتى بموجبها باستقلال اليمن .. والتزم الطرفان الساميان بتبادل البضائع التجارية . وعلى أساس هذه الاتفاقية فتحت ممثلتان تجاريتان للإتحاد السوفيتى فى صنعاء والحديدة

وكانت هذه الاتفاقية أول إتفاقية تعقدها حكومة الاتحاد السوفيتى مع دولة عربية ، وان كان قد سبق ان كان للاتحاد السوفيتى قنصلية فى جدة منذ عام ١٩٢٤ غير أن تلك القنصلية قد قامت على أساس تبادل المذكرات ذات الاعتراف المتبادل بين حكومتى الاتحاد السوفيتى ونجد والحجاز دون التوقيع على إقامة علاقات دبلوماسية بينهما

الصفحة

المحتويات

الباب الأول : ـ هرج ما قبل الرحيل ـ أوديسا ـ اسطنبول فى المنظار . ٩

الباب الثانى : ـ على أمواج بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ـ رجال التفتيش ـ بورسعيد . ١٩

الباب الثالث : ـ الاختناق فى البحر الأحمر ـ الشعب ـ الحيتان ـ البوابة إلى مكة ـ الضاربة بالحج ـ وهابيو نجد فى النضال ضد الامبريالية . ٢٩

الباب الرابع : ـ من « نيته » إلى « توبولسك » أول سنوات اليمن ـ على رصيف الحديدة ـ ها هى اليمن . ٣٩

الباب الخامس : بجع على حاجز الأمواج ـ الزخرفة العربيبة والجمارك ـ سيف الإسلام والبلاشفة الوافدون ـ الجاسوس المفضوح ـ رحلة سعيدة « توبولسك » . ٤٩

الباب السادس : ـ فى الأزقة الخانقة بالحديدة ـ السوق ـ الهنود ـ السفن القديمة ـ الصناعة ـ رأس المال الأجنبى . ٥٩

الباب السابع : ليلة ضائعة فى تهامة ـ على سيارة إلى باجل ـ القنران الطائرة ـ الرهينة ـ جيكوب . ٦٩

الباب الثامن : ـ نحو الاقطاعية ـ بقايا الأحباش ـ قوقاز فى « العربية » ـ البغال والخيول . ٨٣

الباب التاسع : ـ جبال شبه جزيرة العرب ـ البن ـ المدرجات ـ الحصون ـ المشائخ الاقطاعيون ـ مناخة ـ القات ـ الجواسيس . ٩٥

الباب العاشر : ـ من مضيق إلى مضيق ـ محقق التركي الشاكي و « شخص » فى الحديدة ـ الجراد والاعلام الحمراء ـ المنجم ـ نتائج الرحلة . ١٠٩

الباب الحادى عشر . ـ « الامام مستاء » ـ في عهد الأتراك أم الآن ؟ ـ الطبقات ١٢١

المعارضة اليمنية لنظام حكم الامام يحيى من جهة . كما أن الكاتب قد وضع تحت تأثير المفهوم القائل بأن إستقلال شعوب الشرق أحد مقومات انهيار النظام الرأسمالي العالمي من جهة ثانية . الأمر الذي جعله يشيد بالإمام يحيى أحياناً بصفته قائد الاستقلال .

وعلاوة على ما تقدم فإن الكتاب موجه إلى القارىء السوفييتي في تلك الفترة من الزمن بما يوافق الوجه السائد في الكتابة انذاك . وكان شأن هذا الكتاب شأن الكتب التي يؤلفها كتابها لقرائهم في بلدانهم بالدرجة الأولى وهي الأغلبية الساحقة من المؤلفات التي يكتبها الرحالة والدبلوماسيون والمستشرقون عن البلدان الأجنبية .

ومن هذا المنطلق كتب هذا الكتاب للقارىء السوفييتي في بداية الثلاثينات حتى هذا القرن بما يوافق توجه الكاتب السياسي والاتجاه الأيدلوجي لكاتبه ، الأمر الذي جعله يسترسل في الحديث بروح رومانسية وأحلام مفرطة أحياناً . زد على ذلك أن المؤلف عاش لفترة قصيرة في اليمن وسط ضيق من المسؤلين الحكوميين كما أستسق معلوماته من مشاهدته في رحلته من الحديدة إلى صنعاء والعكس ، وحتى مترجميه الذين رافقوه في مهمته الدبلوماسية ، لذا فإنه قد كان يجانبه الصواب في تقييمه لبعض الاحداث لم نشأ أن نعلق عليها ليسر معرفتها من قبل القارىء الفطن ، وكان جهل الكثير من الرحالة والدبلوماسيين الأجانب بما فيهم مؤلف هذا الكتاب بجوهر الدين الإسلامي الحنيف قد جعله يخلط بين بعض الممارسات التي لا تنتمي إلى الدين في اليمن وبين الدين الإسلامي نفسه . لقد كان هذا الخلط تقليد دأب عليه قصيرو النظر آنذاك . أثبتت الحياة خطر هذه الأفكار وسطحيتها .

بيد أن بعض النواقص الموجودة في الكتاب لا تقلل من أهمية واستفادة الباحثين المتخصصين بالتاريخ اليمني المعاصر منه وتحليل ما أورده من أراء وأنطباعات عن الأحداث وشخصيات ذلك الزمن .

لقد ترجمنا هذا الكتاب بعد أكثر من نصف قرن من صدوره باللغة الروسية . وفي وقت كانت اليمن مجزأة إلى جمهوريتين . واليوم وبعد أن تحققت الوحدة اليمنية أغلى أحلام الشعب اليمني فإننا نأمل أن يكون هذا الكتاب إضافة جديدة إلى الكتب المترجمة عن اليمن خاصة وشبه جزيرة العرب عامة .

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى أننا ترجمنا هذا الكتاب بتصرف وحذفنا منه فقرتين من صفحتي ٢٠ ، ٢١ وعدلنا بعض الجمل دون أن يكون ذلك على حساب جوهر معانيها في صفحات أخرى ، لأنها في نظرنا لا تليق بالنشر باللغة العربية .

والله ولي التوفيق .. قائد محمد طربوش .. ٢٩ / ٤ / ١٩٩٢ ..

الصفحة

الاجتماعية فى اليمن ـ وادى صنعاء والخيمة البيضاء بصنعاء ـ النسور فى القاذورات .

الباب الثانى عشر · الانطباعات الأولى عن صنعاء ـ شقشقة الآبار ـ « ابن الامام » ـ القاضى راغب ـ الدعاية الإيطالية ـ بانتظار الغارات الانكليزية ـ الاستقبال الرسمى للإمام . ١٣٧

الباب الثالث عشر : ـ جهاز الدولة اليمنى ـ القضاة ، المشائخ ، الديوان ـ الأجهزة الإدارية والإرشادية : ـ الامام ـ الوزير الأول ـ سيوف الاسلام ـ الزرانيق المتمردة ـ محنفيو اليمن . ١٥٣

الباب الرابع عشر · ـ فى أيام الغارات الانجليزية ـ العملاء ـ اضرب وأهرب ـ ثلاث صيغ . ١٦٥

الباب الخامس عشر : ـ محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسى ـ الإمام يستغيث ـ النذور والرشاوات ـ انهيار الحسابات الانجليزية والصفعة الأمريكية . ١٧٥

الباب السادس عشر : الأيام الأخيرة بصنعاء ـ أحجار على الطحلب ونساء حجرية ـ اليهود ـ رحلة خطرة . ١٨٧

الباب السابع عشر : سمفونية العاصمة « الأبدية » ـ وتأثر العوالم الأخرى ـ طريق العودة ـ وحي صحيفة الحائط ـ رائحة الوطن « فى اسطنبول ـ الفنار الأوديسى . ١٩٩

الباب الأول

* إلى اليمن
* هرج ما قبل الرحيل
* اوديسا
* اسطنبول من المنظار



إلى اليمن

العاصفة تهب ، كلنا مأخوذين بسورتها ، تقذف بنا ، الى اينما شاء البصر . تعودنا على هذا ، وعجيب حين يخرج المرء من هذه الموجة محافظا على تماسكه النفسى بغير ادراك ، ان يقع فى بيئة غريبة ، وبعيدا من حيث طبيعة المسافة ، وان يجلس فى آلة الزمن ، فى قطار ، باخرة ، زورق شراعى ، او يركب بغلا ، سيارة او طائرة ، ويبتعد آلاف الكيلومترات الى الامام ، ويرجع مئات القرون الى الخلف ، وينظر الى كل ما عاشه وتعود عليه وكأنه ينظر من خلال منظار زجاجى فى الميدان .

لقد حدث كل شىء من غير توقع وبسرعة ، وكانت أمسية ما فى النادى . اجتماع ، وأحاديث فى العنبر . ويقال لك فجأة : " أنت ذاهب الى اليمن " ، ويكون الايضاح قصيرا ، وكل ما تعرفه ان ذلك سيتم قريبا ، يومان للاستعداد ، ويومان لجلبة ما قبل الرحيل ... وتبتعد كل الأمور الخاصة وغير الخاصة ، حيث لا ينبغى التفكير فيها .

كان محدثى الاول ، الذى اخبرته عن مجرى الامور مرتابا . " اليمن ، اى معنى يمتلك ذلك " قال مدمدما . انا اعرف – انه ليس وحده مرتابا فقط ، وانما هناك آخرون كثيرون . " اليمن – قبائل متوحشة ... ربما مستعمرة لأحد ما ، يقول آخرون . المرتابون كثيرون أعرف أنهم كثيرون ، أعرف أنه ليس فى قضية اليمن فقط ، بل وحتى في القضايا الإسلامية والحاسمة فى حياة وطننا وخط حزبنا ، وحين رحلت الى اليمن لم يكن مفهوم اليمين الانتهازى واضحا كما هو الآن ، لكن هذه الانتهازية قد بدأت تعبر عن نفسها فى قضية وحيدة حتى فى قضية الرحلة الى اليمن .

– اليمن ... أى معنى يمتلك ذلك ... اخرج الى الشارع . لبست موسكو قبل عيد اول مايو حلة بهيجة من الأضواء الكهربائية . وبدأت أشعر كيف تبتعد قليلا قليلا ، وفى البعد ترتسم أشكال مجهولة وغامضة عن بلدان جديدة .

تلف الحشود بالاعلام واللافتات ، والصفوف المنتظمة فى الأزقة ، تدورفى مكانها لكى تجد نفسها بعد بضع ساعات هن التجول فى نقطة الانطلاق كي تندمج فى صفوف جديدة وتقترب مع الجانب الآخر .

اتحدث مع رفيق يعرف التيبت . ماذا هناك ؟

ـ بلد جبلى ، وحشة وقسوة . بقايا نظام الأقومة ، والرهبان هم الطبقة السائدة ، ومالكو الأراضى ، والتجار والمحاربون فى نفس الوقت ، والانجليز عدوهم الخارجى الآن .

أخمن ، يعنى ، مرحلة ما فى غياهب العصور الوسطى . بلد تجمد فى المرحلة الاقطاعية ، محروم من أي امكانية للتطور بحكم سوء أوضاعها الداخلية والضغط الخارجى .

وهناك فى اليمن ! يبدو كأنه يشبه ذلك ! الملك هو الامام البابا الإسلامى بالمقياس المحلى ـ اضطهد الترك اليمن سابقاً (واضطهد الصينيون التيبت) والآن الضغط الانجليزى ـ والحقيقة إنه لا يوجد فى البلدان المسلمة لا رهبان ولا كنائس ، إنما النضال ضد الامبريالية ممثلة ببريطانيا هنا (فى التبيت) وهناك فى اليمن ـ نضال أيضاً . كما سنرى .

لماذا يبدو وجها موسلينى وتشمبرلان عابسين ، وقد ملأت فزاعتهما الضخمة ؟ . ولماذا يبعث على الغثيان سماع الأحاديث التى تبث من الراديو ومن سيارات النقل الدعائية المارة ؟ .

هل لأن الكلمات ليست كافية ، ولما لا يصنع صباغ اللوحات ، التى يمكن أن تعكس عظمة عصرنا ولو بقدر ضئيل ، عظمة تلك الظاهرة التى يعبر عنها بكلمة واحدة : « الثورة » .

الا أنه ، حين تكون موجودا هنا فى داخلها وتشكل جزءاً لا يتجزأ منها لن تشعر ولن تفهم هذه العظمة بكل كمالها ، وعندما تكون طائراً فى منطاد غالباً ما تشعر بالغثيان ، أو ترى غبار الحجرة ، تنسى أثناء الطيران احياناً أننا نحن والمنطاد فى الفضاء الواسع النقى ونطير فى الفضاء المزوق بثبات . ومن المفيد أحيانا أن تبتعد مؤقتا ، وتنظر لما حولك من بعيد لكى تشعر بالقوة كلها وتحيط بشمولية ، وجبروت وعظمة وطنك وحكمك .

... نمر فى الساحة الحمراء ... يبث مكبر الصوت التحية من المنصة .

اتحدث مع الرفيق المسؤول عن سفرى ، مستوضحاً بعض الإجراءات العملية التى يجب إجرائها قبل السفر ، أين أذهب ، ومع من أتحدث ، وما هى القضايا الأكثر أهمية التى يجب استيضاحها وفجأة ومن غير توقع يضيف محدثى بسخرية

ـ على كل جميع هذه الأشياء التافهة ، الشىء الرئيسى ، أن تزاحم وتزاحم وتزاحم (كان يقصد إجراء آلاف الشكليات البيروقراطية الصغيرة المتعلقة بالسفر) ـ هذا أصعب شىء لأنه بدون ذلك سيكون الرحيل مستحيلا ، مهما كانت أهمية هذه الرحلة .

وقد زاحمت . وخلال يومين أو ثلاثة أيام مررت على كل ما يخطر على البال من أقسام وفروع الأقسام ومكاتب وإدارات ... الخ ... الخ . وفى اليوم لأخير فقط وعلى عجل ، وبغير

انتظام تبادلت الأراء مع البعض حول بعض الأشياء ـ هذا ليس مهما ، وهل يستحق الآن أن يتذكر المرء صغائر العيوب النواقص هذه بعد مرور بعض السنوات ، سأقول فقط ، انى لم أتمكن من بحث كثير من القضايا الهامة ، كان كل ذلك محجوب بركام من المشاغل الأكثر أهمية ، التأشيرة ، التذكرة ، الجواز ، التقارير ، الأوراق ـ وبحر بكامله من القضايا التى يغرق بها ، والشىء المهم الذى كان لابد من البدء به .

لكن « الأمور الجيدة ، تكون نهايتها جيدة » كما يقول المثل ، وإن لم يكن صائباً كلياً ، ولا يخل به بعض التعديل وإعادة النظر .

هرج ما قبل الرحيل

يوم الرحيل : يكون نصيب الأسد من الأعمال فى هذا اليوم ، دائماً ، ننهى آخر الأعمال حتى قبل الركوب ، تمر على آخر مؤسسة فنصل إلى المحطة قبل خمس دقائق من تحرك القطار .

أوديسا الأم ... تستقبل بالمفاجآت دائماً ، وما أن وصل قطارنا إليها ، حتى أشعرنا بأن باخرتنا لم يبدأ بشحنها بعد وإنها ستتحرك بعد بضعة أيام فقط ، ولهذا نستطيع الراحة والتمتع بمناظر أوديسا .

لكن لا رغبة فى التمتع ، تجول الأفكار بعيدا ، تبدو أوديسا محطة مؤقتة ليس إلا ، اضطررنا ببدء التوقف فيها من غير توقع ، وهنا كانت بداية تعرفنا على شبه جزيرة العرب ، على كل حال . وكان أول من قابلنا بهرج من سكان أوديسا هم أبناؤها قالو لا شىء فى ذهابنا إلى شبه جزيرة العرب > لأن أوديسا مليئة بالعرب ، زد على ذلك ، يجب التفكير بوجود مضاربين ومهرب واحد مقابل كل أوديسي ، وعندما مررنا على وكيل المجلس الشعبى للشئون الخارجية ، اتضح إنه قد غادر إلى المدينة المنورة « لا أقل ولا أكثر .

هكذا كان الرد على سؤلنا المستغرب ، متى وعلى أية باخرة سافر إلى « المدينة المنورة » (*) ، نعلم إنه غادر قبل نصف ساعة على الترامواى ، لأن المقصود « بالمدينة المنورة » (*) معهد الطب لا أكثر حيث يعمل فيه هذا الوكيل بجهد كبير ، ولكى تكتمل معلوماتنا عن شبه جزيرة العرب ، تعرفنا على قلعة ضخمة ذات طابع عربى فى ضواحى المدينة أيضاً ، لقد حبست المئات من النساء اللواتى إختطفن بالقوة فى هذه القلعة ثم تم بيعهن إلى تركيا

(*) لقد تلاعب المؤلف بالفاظ هنا حيث يقصد « بالمدينة المنورة » اختصار الكلمات المكونة لمعهد الطب .

السلطانية فى الظلام ، لقد كن مادة دخل من الدرجة الثانية للتصدير الرأسمالي . ومن القلعة تتراءى الاعلانات الصارخة ببشيتريست المدرجة فى مقاطع اعلانات المسرحيات الكلاسيكية المعروضة ، يظهر أحد الصحافيين ذى الخصائص الأمريكية الحقة ، أثناء مناورات الجيش الأحمر وقد تسلل إلى مقر القيادة العامة باحتيال غير مبال بالصعاب ، فارسل البرقيات إلى جريدته متفوقاً على زملاء مهنته فى العاصمة ، لا تخطرنى الآن كل معالم ومشاهد أوديسا ، كما لا أضمن اطلاقاً صحة ما ذكرته أعلاه ، وربما كان ذلك فى جزء كبير منه ثمرة ابداع الخيال الأوديسى .

وأخيراً ، تصبح الباخرة معدة للشحن ، ويوم التحرك محدد ، لكنه يتضح فجأة عشية ذلك اليوم أن (هذه حادثة عديمة الوجود فى واقعنا) ، يفترض أن تتحرك الباخرة بدون تأخر وحتى قبل الموعد المحدد بيوم وليلة ، ثم تبدأ جلبة وحشية ، مهاترات وقذف شتائم ، وصراخ ، وبرقيات التهديد الخ ... الخ . حتى وصل الأمر إلى الاستغاثة بهيئات المركز ، ترفض الإدارة شحن البضائع الموجودة على الرصيف ، بشجاعة تستحق الاعجاب ، وبعد سلسلة من المهاترات ، ومن الرفض والأوامر وكومة من البرقيات فقط كان ممكن لوكلاء الأسطول التجارى السوفياتى أن ينهوا عملية الشحن كيفما اتفق بعد أن بحت أصواتهم وانهكت قواهم ، وقد اختلطت البضائع ببعضها البعض ، حتى إنه لم يتسنى شحن أكثر من خمسة وسبعين بالمائة من البضائع المعدة للشحن ، لماذا كل هذه الجلبة ؟ وصلت برقية من القسطنطينية فى اليوم الأخير تطلب سرعة الوصول بحزم ، وذلك لأن ما يقارب ستمائة من الحجاج ينتظرون باخرتنا هناك ، وفى حالة تأخرها سيستقلون بواخر أجنبية .

وبالطبع ، تنظف الباخرة حتى مطلع الفجر ، وتوقع الأوراق الأخيرة على عجل ، وأخيراً يرفع السلم ، تسكب الشمس أشعتها على ميناء أوديسا ، وتتحرك الباخرة ببطء وينصرف الجميع إلي حجرهم منهكى القوة ، ولا يختفى ذلك النورس الطائر وراء السفينة لمدة طويلة عن الخلفية الزرقاء لكوة الغرفة .

وهكذا ، نبحر فاتحين بلدا جديدا ـ اليمن للتجارة السوفياتية ـ حيث لم تمر ولا سفينة واحدة ، وحيث لم تطأ أرضها قدم سوفياتية قط ، بل ولا قدم من روسيا القديمة (*) . لم تكن

(*) يظهر أن المؤلف لم يكن على علم برحلة سكالوفسكى فى أعوام (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وابحاره فى البحر الأحمر وزيارته لموانئه وجزيرة بريم وعدن ورحالة روس أخرون فى القرن التاسع عشر . (مزيد من الاطلاع راجع بيلوغرافيا اليمن في الاستشراق السوفياتى ـ د. قائد محمد طربوش ـ مطبعة دار السلام ـ دمشق ـ ١٩٨٥) .

حمولتنا كبيرة وبعد أبعاد ما لم يتسنى شحنه من البضائع ، تكونت حمولة الباخرة من سبعين طنا من الدقيق ، ستين طنا من السكر ، أربعة وخمسين صندوقاً من الصابون ، كبريت ، مواعين وأوانى ، وأشياء صغيرة أخرى ، كانت الحمولة الأساسية متجهة إلى الموانىء الجنوبية فى فارس ، إلى جدة - الميناء الرئيسى للحجاز - نقلت الباخرة ما يقارب مائة حاج ، هم فى الأساس من الإيرانيين المارين ترانزيت ، وثمانية من تتار استراخان .

واسم الباخرة « تيودور نيتفا » (وقد سميت باسم المراسل الدبلوماسى الذى استشهد فى لاتفيا) وقد كان اسمها سابقاً « تفير » ، لقد كانت الباخرة تقوم برحلات بين كامشاتكا وفلادى فاستوك . كانت الباخرة معدة للرحلات القطبية ، لهذا كانت التدفئة البخارية تعمل آلياً بدون توقف ، مدفئة بذلك جميع زوايا الباخرة بغض النظر عن درجة الحرارة خارجها ، ولا توجد فيها لا مراوح ولا حمامات مياه عذبة ، لقد كانت الباخرة على استعداد قطبى كامل ، وكانها ذاهبة لاكتشاف منطقة القطب المتجمد الشمالى ، فى حين أن الباخرة قد توجهت فى رحلة استوائية عبر البحر الأحمر والخليج الفارسى ، إلى أكثر المناطق حرارة ، وفى أكثر أوقات السنة قيظا » .

وعلى كل ، لم نشعر بالحر فى البحر الأسود ، إذ مازال الجو بارداً ، وقد كان مراً الاضطجاع فى الحجرات المدفأة من الموقد دائما ، ولا توجد ضرورة للحمام البارد أو المياه المعدنية ، وكنا ما نزال نأخذ راحتنا من ضجيج ما قبل السفر .

اما أولئك الحجاج ، فقد كانوا ممتلئين بروح الإيمان القوى ، يصلون خمس مرات فى اليوم ، كانوا يقفون على السجاجيد يولون وجوههم نحو الجنوب ، صوب مكة ، يعدون أغذيتهم على قدور الفحم ، وكأنصاف عميان يتسكعون على الباخرة ، وكان الكثيرون منهم يخرجون من محيط قراهم لأول مرة ، ولأول مرة يرون البحر .

ليلاً ، نصل إلى البوسفور ، تبدو باخرتنا كأنها مرسى بحكم وجود الحجاج على ظهرها ، والنزول إلى الشاطىء محرم على الجميع ، وليس للباخرة هناك من أعمال في اسطنبول ، وكان من الممكن المضى قدما بدون تأخر ، لكنه من المفترض أن يكون هناك ستمائة من الحجاج الذين ذكرتهم البرقية ، توقفنا في بيوك ديريه وهو موقع حجر صحي في مدخل البوسفور .

تضج سلسلة المرساة - ويصل الطبيب التركى إلى الميناء ، وان كان ليس بمقدوره ان يقول شيئا عما إذا كان هناك ركاب للباخرة - وكان من الواضح أن باخرتنا تبعث بعض الحيرة وعدم الفهم .

وقفنا حتى الصباح ، تسمع عبر المذياع الأنغام التركية ، التى حلت محل إذاعة موسكو الخافتة ، هذه الإذاعة تنبئنا بأننا ابتعدنا عن الوطن ، وباننا خلفنا ورائنا الاعلام ، اللافتات ، الشعارات ، الأحاديث عن الاشتراكية لمئات الكيلو مترات ، وخلفنا المصانع التى تبنى والحراثات التى تزحف فى عموم الوطن ، لا تتحدث إذاعة اسطنبول عن الاشتراكية والثورة العالمية ، إنما تتحدث بالأنغام الحلقية ، بالأنغام الشعبية ، التى تختلط بأصوات موسيقى الفوكستر (*) ، تذكرنا بأن الامبراطورية العثمانية القديمة ، المجدة لله ، والمانعة للفرح ، لم يعد لها وجود ، ان أصوات الأنغام الشعبية فى اسطنبول تنبىء بأن حياة القرون الوسطى ، وتسلط الفقهاء ، والظلم باسم الدين ، صار من حكم الماضى وتنقرض مع كل يوم .

أوديســـا

ظهر ممثل الأسطول التجارى السوفياتى على ظهر الباخرة ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، مما يعنى عدم وجود حجاج هناك ، ولهذا فعلينا أن نبحر قدماً ، لقد سافر آخر الحجاج قبل ثلاثة أيام ، أى قبل ذلك الاستعجال والاضطراب بلا سبب فى أوديسا .

لماذا إذن كل تلك العجلة والاضطراب ، ولماذا خلط البضائع وعدم شحن كل الحمولة ، ولماذا المهاترات والاتصالات و . . . الخ ــ الخ . ولماذا بقينا هنا طول الليل ولم نمضى قدما ؟ لم يلتزم أحد بالجواب على كل هذه الأسئلة فى الباخرة ، اسمع فقط الرد العابس لأحد البحارة ، الذى كان يقرأ الجريدة الجديدة المبثوثة عبر الراديو ، ويعلن عن بداية عملية المنجم » .

لا يزالون يتحدثون ـ المنجم . . .

نبدأ فى التحرك ، يدفعنا تيار البوسفور إلى الامام بقوة ، رغم هدوئه وزرقته الظاهرة ، نرى الروابى الخضراء ، هذه هى اسطنبول ، السور القديم ، المنارات ، أشجار السرو والمنازل ، نرى ستائر النوافذ المفتوحة ، ومنها تطل وجوه النساء السمروات ، التى لايخفيها الحجاب أو الخمائر الشراشف ، نرى على الساحل أشباح نساء فى ثياب أوروبية ، نرى فى المرفأ أصحاب القوارب بقبعاتهم بدلا من الطربوش التقليدى الأحمر ، نميز الكتابة بالاتينية على اليافطات ، ولا نجد أثرا للكتابة العربية المزخرفة والمنمقة .

(*) ـ الفوكستر : رقصة أمريكية ثنائية ظهرت فى العشرينات وكانت مشهورة أنذاك

لكن ليس هناك وقت للامعان فى النظر ، ومثل مصاب بالطاعون تمر باخرتنا تحت علم الحجر الصحى الأصفر مسرعة بقرب القرن الذهبى المتعرج ، وبسرعة نلمح الرصيف النصف الفارغ ، قصر السلطان وحديقته ، يذكرنا بأخر خليفة منفى ، ذلك السلطان الذى ظل فى منصبه عام الا اسبوع واحد ، وهو الآن يتسكع فى أحد مصايف أوروبا ، تنتصب القباب الخرقاء لكنيسة « أيا صوفيا » المشوهة ، وترتفع مآذن مسجد سليمان بحدة إلى أعلى .

نحن نعرف أنه لا تدور فى أماكنها أفواج المعاقين والبائسين والحجاج قرب هذه المساجد كسالف الزمان ، أولئك الحجاج ، الذين يقومون بالتطهر تحت حنفيات المياه ، نحن نعرف أنه حتى أيام الأعياد تجتمع بالكاد تحت الأقبية المظلمة بضع عشرات قليلة من العجزة والهرمين أو بعض السياح الفارغين والمتعطلين ، الذين يتطلعون إلى حلقة مثبتة فى عامود ، يزعم بأن حصان السلطان الذى فتح العاصمة البيزنطية المتفسخة فى عام ١٤٦٢ م قد كان مربوطا بها ، نتفرج على المساجد الباهرة الألوان وندرك بوضوح بأنها مع قصور المرمر ليست سوى شظايا وبقايا السفينة العثمانية التى حطمتها عاصفة الثورة ، نحن ندرك بأن العاصفة لم تنتهى ، وقد هب أعصارها الأول ليس إلا ، هذا الاعصار الذى حطم أسس الاقطاعية والنظام الاستعمارى في آسيا الصغرى ، مخلياً بذلك المكان لقيام دولة قومية (لم تزل برجوازية بعد) مستقلة ، نحن ندرك بأن الاعصار التالى لن يكون خلف الجبال ، وما الثورة القومية السابقة سوى فاتحة انتصار عمالى مظفر ، ونعلم أيضاً أن الاعصار الهادر الأول قد كان صدى لأيام أكتوبر ، والتى بدونها كانت الامبريالية الروسية قد داستها بأعقابها . ولربما كان صليب الطمع منتصلباً الآن على كنيسة « آياصوفيا » . ولهذا عندما تلقى نظرة خاطفة على تقاسيم ومعالم شواطىء تركيا الجديدة ، تتمثل لك بكل قوة ووضوح ، كيف أنه وأنت بعيد جسدياً عن أعماق فوهة البركان الثورى ، تشعر وأنت على بعد أكثر من خمسمائة كيلو متر من شواطىء الوطن . ترى بصيص ولمعان وهج ثورة أكتوبر ، التى اشعلها عمال بتروجراد (لينين جراد حاليا) وموسكو هذه الشعلة التي لم تبلغ ذروتها بعد ، وان كانت قد أدركت أن تشتعل النار فى ركام مخلفات الماضى ، مجددة للشرق محيطة ومفككة دعائم وأركان القدرة الامبريالية المهتزة ...

اسطنبول من المنظار

لكن لا وقت للتفكير ، أبحرت باخرتنا بعيداً وصارت فى الخلف قباب كنيسة « آيا صوفيا » وآخر ضواحى اسطنبول المترامية الأطراف يدى كولى » ، « سان شيفانو » ، أبحرت باخرتنا

على السطح الرخامى للبحر المنقوش قليلاً ، وبدأت تهب أشباح « جزر برنتس » على اليسار ـ مصيف برجوازية اسطنبول ، وهو المكان حلم الرئيس ولسن أن يعقد فيه صلح وهدنة بين البلاشفة والدينيكيين (*) ، وتحت غطاء هذا الصلح الخيالى يتم إعطاء فرصة للبيض بتجميع قواهم وجعل جنوب روسيا القديمة مستعمرة للامبريالية ، ولتذهب أشباح تاريخ الماضى إلى الشيطان ، هيا إلى الامام .

يقترب اليوم من نهايته . . .

للمرة الأولى نراقب غروب الشمس فى البحر ، ويبد مدخل الدردنيل بعيدا ، نظيفاً ، مكتملاً بقرص الشمس ، الذى يتحول تدريجيا إلى شكل معين يتفلطح وكأنه تحت ضربات مطرقة خفية ، ويصير هذا المعين دقيقاً ويأخذ شكل قطعة مستطيلة ، مقلمة وحارة ، هناك يخترقه سلك صارية سوداء ، لباخرة حراسة بعيدة تتمايل على الأمواج ، ها هى قد صارت اسطوانة صغيرة متوهجة ، نقطة صغيرة من نار ، تغيب من السطح الأحمر المتلألىء فى البحر المتوهج .

نعبر الدردنيل فى الظلام ، ثم نستيقظ فى الصباح قرب جزر نينيدوس ، وفى الخليج الصغير تنتصب صوارى باخرة غارقة تحت الماء ، هى واحدة من شواهد الحرب ، المبعثرة فى كل البحار ، مثل هياكل الحيوانات الهالكة فى البرارى .

* * *

(*) الدينيكون : هم أحد القوى المناوئة للثورة الروسية .

الباب الثانى

* على أمواج بحر إيجه
* والبحر الأبيض المتوسط
* رجال التفتيش
* بور سعيد



على أمـواج بحر إيـجه

يتغير الطقس ، والصـيف يسرع ملاقياً ، مازلنا ننام فى الحجرات ، وإذا كانت النوافذ مفتوحة دائما ، يصـير التفكير مفزعاً بما سيكون بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ونتعود على حياة الجماعة المبحرة قليلاً قيلاً .

وحتى هنا لا مهرب من الشكوى من سوء الإدارة التدبير ، الأخطاء ، وعدم الاهتمام ، روح الاستهتار ، والمخالفات ، يشكو البحارة من تعقيد وتشوش عقد العمل الجماعى ، الملىء بالتلاعب والحيل التلمودية ، وعلى العكس من ذلك تشكو هيئة القيادة وتتذمر من عدم تخويلها السلطة ، من التعسف والجور الناتج من خلط الصلاحيات والاختصاصات للأقسام المختلفة « للمثلث » . لكن الجميع يسب بصوت واحد مكتب أوديسا للأسطول التجارى السوفياتى بسبب البيروقراطية ، سوء الإدارة ، التشوش فى العمل ، والجهل بمعرفة العمل البحرى ، وما كان علينا إلا أن نشعر ولو بجزء من هذه الحقيقة ، وذلك لأننا قد أدركنا أن نجرب بأنفسنا مدى ثقل وبلبلة وخلل أوديسا ، وبالكاد لم تفشل رحلتنا .

لكن أفكارنا كانت تسبح بعيداً ، نغمض أعيننا غريزيا ، نحاول أن لا نشغل بالنا ، بالثمالة المذكرة بالبلبلة الإدارية ، الأفكار بعيدة ـ هناك ، القضية فى اليمن ، حيث تعود مركبنا السوفياتى أمواج البحار والثورة لأول مرة ـ نقعد نطالع قواعد اللغة العربية ، ونقرأ الكتب الأجنبية عن شبه جزيرة العرب ، ونشعر مسبقاً بذلك الارتياح المرتبط بذلك التصور المثالى ، الذى كوناه عن طريق الكتب والأحاديث ، ونقارنه بذلك التصور المحدد والملموس عن ذلك البلد الذى ستأتى رؤيته .

تنزلق الباخرة بمحاذاة الجزر المخضرة فى بحر إيجة ، تلك الجزر التى كانت مراكز ثقافة قديمة من سـالف الزمان ، وهـذه الجزر الآن نصف منسية ، تخاطفتها مختلف القوى الكبيرة والصغيرة أجزاءاً ، وأقساماً ، نشاهد تضاريس الجزر الخضراء ميتلينا ، هيوس ، رودس ، ومجموعة أخرى كانت مشهورة فى القدم ، تلك الجزر التى لا يعرف أسماؤها الآن حتى قبطان الباخرة ، وتقرأ أسماؤها بصعوبة على الخرائط البحرية القديمة .

لم يمض أسـبوع بعد على أبحارنا ، الغذاء جيد (احتياطى أوديسا) والمياه العذبة متوفرة ، ولا يشـعر المرء بقيظ الشـمس إلا بجانب الموقد ، ينام الحجاج بهدوء فى عنبر

السفينة ، على أرضيات خشبية معدة خاصة لهذا الغرض ، وفى الصباح فقط يزحفون إلى الخارج ، وفى الفجر تحدث مشاهد مرعبة ، فى أعماق العنبر عشرات الايرانيين الوقورين ذوى اللحى الفضية ، والعمائم البيضاء على رؤوسهم يستمعون إلى الامام بعيون مغرورقة ، يروي الامام بصوت متهدج باكى للمستمعين تواريخ معروفة حتى فى أدق تفاصيلها عن تاريخ ومعاناة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وحول حياة صهرالرسول بشكل خاص ، ورغم أن الراوى قد كرر وأعاد تكرار هذا التاريخ مئات المرات ، ينصت إليه المستمعون مئات المرات ، ومع ذلك يرون أنه لزاماً عليهم ، البكاء والتشيع بصوت مرتفع ، أو يخرجون مناديلهم ويضعونها على عيونهم مصدرين أنات عميقة على الأقل .

والبحر الأبيض المتوسط

نخرج إلى البحر الأبيض المتوسط ، نترك فى الوراء خال رودس ، آخر جزر الأرخبيل فى هذا الطريق تحس نسمات سواحل أفريقيا ، يرتفع زئبق ميزان الحرارة إلى أعلى ، وقد بسط قماش، شراع السفينة الواسع فوق برج القبطان وفوق سطح السفينة ، يصف البحارة القدامى قيظ وحر البحر الأحمر .

نشعر بالملل فى عرض البحر ، وبرامج الراديو الغنائية توقفت ـ تفريغ ـ يوضح عامل الراديو ـ ولنتأكد من صحة ما يقوله ، ويكفينا قناعة ، من أن البرقيات الموجهة إلى الاتحاد السوفياتى تصل بنفس التعريفة الداخلية ـ سبعة كوبيكات على الكلمة الواحدة ـ (وهذا سعر رخيص مقارنة بمرتبات الخارج) .

تسير الأمور في مجاريها ، كل صباح ـ مثل موكب أسطورى ـ كأنه نبتون ، يظهر رئيس النوتية نصف العارى ، والغليون بين شفتيه ، وطرف الخرطوم الضخم الذى يلف الباخرة كلها بين يديه ، يتبعه خمسة أو ستة من مساعديه ، بمكانسهم يكنسون الماء السائل على سطح السفينة ، يوجه رئيس النوتية تيار الماء القوى فى كل الاتجاهات ، وجهة رصينا باستمرار ، ويصير جامداً فى تلك اللحظة ، التي يكون فيها سيل الماء ، وكانما صدفة ، قد غطى المسافر المذهول من رأسه حتى اخمص قدميه .

أجراس الباخرة تقرع ، يتبدل المناوبون ، يحاول القبطان ومعاونوه تحديد اتجاه الشمس بواسطة الآلة السدسية وينقبون فى التقاويم والجداول ، محاولين تحديد وقوع الباخرة ، يركض البحار المناوب بانتظام بين مؤخرة السفينة وبرج القبطان مخبراكم من الأميال سجل عداد سرعة السفينة ، ينتعش مجلس السفينة والخلية الحزبية ، تبدأ الاجتماعات ، التقارير ،

الجلسات مع الإدارة ، تهتاج الجماعة بشكل جماعي أو كل حدة ، ساخطة على تشوش الانفاق الجماعي ، يتناقش البحارة حول ظروف الابحار ، ويحلمون بالمشتروات من بورسعيد ، والحجاج قلقون ، هل سيصلون إلى جدة في ٢٤ مايو ، آخر فترة ، حتى لا يتأخرون عن بداية الحج في مكة ، تختفي الأبقار والدجاج تحت سكين الطباخ ، ويصبح أكثر بخلا وحسبانا ، منقصا جزاية الغذاء ، يصير النهار أقصر والليل أطول والشمس أكثر علوا وحرارة وتصير أنسام أفريقيا أقوى .

وبعد خمسة أيام في الطريق من اسطنبول ، ها هو يرتسم بعد الظهر من بعد خط الأرض الأغبر الخالي من الجمال ، تبدو العومات الحمراء المتمايلة على الأمواج والتي ترمز إلى مدخل قناة السويس ، يخلو الساحل الأفريقي من التأثير ، ففي حين أن سواحل آسيا الصغرى تبدو للعين قبل أكثر من عشر ساعات من رمي السفينة مراسيها ، فإن سواحل شمال أفريقيا لا تبدو قبل بضع ساعات من المرفأ .

ومع هذا ، حين ترى الخط الأول المبهم ، تتوارد تصورات الصباء المستوحاة من روايات جول فيرن فنطازيا هاجارد وبينوا ، فتتصور الصحاري ، الواحات ، القوافل ، رياح السموم ، الأسود ، النيل ، الفراعنة ، أبا الهول ، الأهرام ، المومياء ، غابات النخيل ، البشر السمر الغامضين ، القرود بأنواعها اللامحدودة ، وهناك في مكان بعيد في الجنوب البارد عواصف الصراع البطولي ضد المارد الانجليزي (*) .

نحن نعلم بالتأكيد ، إنه لا يعقل الآن « القبطان ابن الخمسة عشر عاما » (**) ، الذي كان يمكن أن يذهب بمركبه إلى سواحل أفريقيا بدلا من أمريكا الجنوبية ، ويقود بدون إدراك طاقم السفينة والمسافرين ويعبر القارة ، إذ من المعروف أن طرق السيارات قد شقت في الصحراء ولا وجود في الأخيرة لبقايا أرض « أطلنطا » التي تسجها الخيال ، وقد نبشت ونهبت مومياء الفراعنة ووزعت في مختلف أنحاء أوروبا ، وقد اقفرت الأهرام وانتهكت واحاط بها خط الترام ، وقد احصيت الزرافات . وجواميس النهر والفيلة وتحولت إلى بضاعة ، وتعيش آخر أيامها في الأدغال العميقة ، بينما أخذت البرجوازية هيبتها من الانجليزي المحتل ، سائرة في ركابه بخضوع ، وبمشاركته . تقيم للسكان معالم التحضير ، نعلم أن أفريقيا كلها محاطة

(*) هذا تصوير لبعض مواضع من روايات جول فيرن .

(**) بطل رواية خيالية بنفس الاسم للروائي الفرنسي الخيالي المشهور « جول فيرن » .

بعنكبوت ، الامبريالية ، التي تمتص عصيرها بدون رحمة ، وتعطيها بدلا عن ذلك السفلس والويسكى والكرباج ، نعرف بأنه قد بدأ النسيج العنكبوتى يتمزق في شمال أفريقيا ، فى المغرب والجزائر وتونس وبرقة ، وفى مصر حيث نقف الان وليس فى المقدمة لا أبو الهول ولا مومياء الفراعنة ، وإنما النضال الذى لا هوادة فيه ضد الامبريالية والانجليزية ، هذا النضال المربوط بعقدة حديدية ، مجسدة بمنابع النيل (العصب الاقتصادى الرئيسى) ، الذى يحكم الانجليز قبضتهم عليه ، يفرقون بالدم الوطن الذى هب منتفضا ، نعرف إنه ليس هناك رومانسية - وإنما هناك واقع النهب الامبريالى القاسى ، تزلف وخيانة البرجوازية المحلية وعجز الفلاح المسترق . كل هذا نحن نعرفه ، ومع ذلك (فإن طبيعة النفسية المغامرة) تأمل بأنه مازال هناك مكان ما يحتفظ برومانتيكية ، وإنه من المفترض أن تبدو أفريقيا هذه خاصة ومميزة ، التى نراها لأول مرة ، لكن فى عدسة المنظار الباردة والمنصفة يبدو الخط الأسود والحاجز لأمواج الحجرى وتحرق رؤوسه الحادة سطح بعيد عن العوامات الحمراد ، تبدو أدخنة البواخر ، أشباح الجرافات ، وشواطىء السباحة ، تمثال ديلسبس بانى القنال ، اعلانات الويسكى والكازينو الضخم ، بورسعيد إلى الآن هذا كل أفريقيا ، ويختفى سراب الرومانتيكية .

رجال التفتيش

نتبع التعليمات الدقيقة للمرشد البحرى الذى قدم إلينا فى الوقت المحدد إلى متن السفينة خاصة ، تقف الباخرة قريباً من المدينة ، وراء حاجز الأمواج الخشن ، وكدود العلق تحف بنا ، الزوارق البحرية المليئة بالمصريين بطرابيشهم الحمراء والشرائط المقصبة الخضراء ، هؤلاء هم المفتشون وكلاب الحراسة للشرطة الانجليزية ، لكن بقومية عربية ولباس مصرى (بينهم المالطيون ، الذين يكلفهم الانجليز بالادوار الدنيئة) ، تلف الزو ارق البخارية ذهاباً وإياباً ، وكأنها خائفة من أن يتسلل راكب صدفة ، أو يسقط « منشور » ، يصعد بعض المفتشين إلى سطح السفينة وراء طبيب الحجر الصحى ، يفتشون المكان وينظرون حتى في الحجرات ، يوزعون الأدوار ، من يتابع من ، ورداً على احتجاجنا يلوى الطبيب الإنجليزى الرصين كسمه عنا بوقاحة ، معلنا ، بأنه لا علاقة لبريطانيا بكل هذا ، وان الحكومة المصرية هى التى ابتدعت هذه الضرائب ، هم يرون فى هذا رمز « الاستقلال المصرى » - ستار التعسف الانجليزى - المنشفة التى يمسح بها عملاء اسكتلنديار القذرة والدماء من على أيديهم .

أتذكر كيف كانوا يلفون ذهاباً وإياباً هؤلاء الناس التافهون الجوهر بطرابيشهم الحمراء ، كيف كانت تصير نبرتهم لطيفة متزلقة عندما يكونون وحيدين معنا ، بدون رقابة رقيب ، يقترب

من الباخرة صندل الفحم وصهريج الماء ، العمال المصريون ـ ناس سمر صافيون ، يهزون الثقالة الخشبية ، يركضون إلى ظهر السفينة ، يحملون على رؤوسهم سلال الفحم ، يتلقفون باعجاب السجائر والخبز ، المقدم من بحارتنا رمزاً للصداقة والتضامن .

تظلم السماء الساطعة بسرعة ، وتشتعل المدينة بآلاف الأضواء ، تلون بلمعانها القنال ، الساحل ، والقسم الأوربى بمستودعاته ومخازنه والصاخب بالعربدة البحرية ، الكازينو وبيوت الدعارة ، فى حين يهمد القسم العربى البعيد لبورسعيد ويختفى في الظلام ، تنهال آخر سلال الفحم ، ويوصل الوسيط النشيط للبحارة الأشياء الموصى عليها ، مضاعفا السعر مرتين عن سعر السوق ـ نمنع من النزول إلى ميناء بورسعيد أو إلى أى ميناء مصرى آخر ، ولا يسمح للبحارة السوفييت أن يضعوا كشافاً فى مقدمة الباخرة ، حيث يصل مرشد بحرى خاص لإرشاد الباخرة وعبر كل القنال وفى هزيع الليل الأخير نتحرك .

تتهادى الفنارات الكهربائية الضخمة بهدوء فوق مياه القنال ، وتنزلق فى الظلام الأشباح المسودة للرافعات ، الجرافات ، البواخر ، الصنادل ، وبعدها يختفى كل هذا ، تسبح الأضواء بعيداً إلى الخلف ، نمر على السطح الضيق المرن ، وتنطبق بوابة البحار ، التى تغسل شواطئنا السوفياتية (ولو عبر المضائق) ، لم يسمح لنا بشراء الصحف ، لا يسمح البوليس بدخول الصحف ، ولا حتى بالصور إلى متن الباخرة ، وهكذا لم نعرف كيف انتهت الانتخابات الألمانية ، وهل احتلت بكين من قبل الجنوبيين وما هى قضية المناجم ، نحن لم نعرف عن هذا إلا بعد شهرين فقط ، عندما تصير هذه الأحداث من أحداث الماضى البعيد .

انغلقت النافذة من الخلف ، ندخل وكأننا فى فتحة موقد بعث فيه قيظ من جهنم .

الفجر ، سطح البحر ضيق وكأنه ليس أوسع من شارع ، يتعوج من مروحة الباخرة ، يواصل تجعداته حتى الشاطىء ، وعلى جانبيه ـ مسافة صفراء لانهائية ، على الشاطىء الأيمن فقط تظهر نباتات قليلة محاطة بسور ضيق ، ينزلق تيار الماء كأنه زجاج بين الأصفر ، يتلألأ الماء تحت الشمس يقيس بدقة أعمدة الكيلومترات المحددة وعلى الشاطىء الأفريقى تتعرج طريق السيارات وخلفها خط سكة الحديد ، بورسعيد ـ السويس ، وتظهر أدغال متفرقة بعيدة ، تتكشف منازل عمال القنال بشكل دورى وبشكل نظيف ومحاطة بالحدائق وملحقاتها ، الأعمدة الهوائية ، الأرصفة ، وساحات كرة المضرب وأحيانا تبدو على الطريق سيارة مسرعة ، ونادراً يضج قطار ذى عربات كثيرة على خط سكة الحديد . يظهر الموظفون المهمون في الحدائق ، والأطفال يركضون يغنون الأغانى ، يندهش البحارة ، الذين كانوا هنا قبل الحرب ، من ظهور

المنازل ، الأدغال ، والجنائن في الصحراء القاحلة « هذا ليس الا ديكور - وواجهة للاستغلال الرأسمالي » .

وعلى اليسار - الساحل العربي - لا يوجد فيه خمار رخيص ، هناك الحقيقة القاسية العارية ، بحر الرمال القاحل الخالي من الحياة ، لا عشب فيه ولا شجر ، تبدو فيه نباتات حسكية هنا وهناك فقط ، لا توجد فيه منازل ، تظهر أكواخ سياج يزحف منها أناس سمر عراة في بعض الأماكن يقومون بالعمل ، هؤلاء هم عمال تنظيف وخدمة القنال كل يوم ، ولولا ذلك ستغطى القنال بالرمال .

أنصاف عراة في أسمال بالية يلتحقون جماعات ببعضهم ويبدأون العمل ، وعلى طول الساحل يطوف المشرفون الانجليز بأغطية الرأس الفلينية التي لا تفارقهم ، يمتطون اسرجتهم بشكل تهديد ، يصرخون بشيء ما على السكان الأصليين ، نرى كيف يشدون على الكرابيج في أيديهم ، ولا صورة للمنازل والحدائق هنا ، هذا شاطيء عمالي لا يرى هؤلاء « المتحضرون » ضرورة للاهتمام به .

القنال مريء الاقتصاد الاستعماري الأوربي ، تشق فيه السفن طريقها يوميا ، ليل ونهار ، في ضوء الشمس المحرقة والليل الرطب الخانق ، تمر عشرات السفن البخارية والمراكب الشراعية وبواخر الديزل ، سفن البضائع وسفن الركاب ، حاملة النفط ، تحت كل الأعلام ، ارتالا تشق طريقها وسط الزحام عبر هذه الفوهة ، صبابة البضائع الصناعية من البلدان المستعمرة وبالعكس تأخذ المواد الخام إلى معامل التصنيع في أوربا .

شاي سيلاني ، أرز صيني ، قطن هندي ، لحوم وصوف استرالي ، مطاط وكاكاو أندونيسيا ، نفط ايراني وبورنيو - كل هذه الخامات وانصاف الخامات المنهوبة بالعنف ، بالخداع والتهديد من شعوب الشرق ، تجلب من كل البحار والمحيطات وتمر عبر مضيق باب المندب ، ومن هناك تمر عبر البحر الأحمر ، وتصب في فرسخ السويس الضيق ، ومنه تبحر إلى الجسم الصناعي في أوربا .

الهواء حار ، أكثر من ثلاثين درجة في الظل ، يبدو الهواء وكأنه مشبع بالعطور ، الكميات الضخمة من الثروات البحرية ، المتصة من دم الملايين من الجماهير الكادحة ، كأنها ظلال وأشباح هؤلاء المعذبين المنهكين بما لا تتحمله طاقة أعمالهم ، أولئك الناس الموجهة إلى صدورهم الرصاص ، المطعونين في الصين ، والملايو وأندونيسيا ، العبيد وأنصاف العبيد الصفر والسود والبيض ، تراهم يحومون حول ارتال السفن كسلسلة مستمرة في الشريط الضيق للقنال التي يستطيع الطفل سباحتها .

بيد أن هذه المليارات من الثروة السابحة عبر الأمواج اللزجة ، تثير وتهيج فقط ، بالاريج غير المألوف في كثافتها ، والصحراء المحرقة القاحلة ، التى تتراجع فى عناد لا رغبة فيه أمام مقدمة السفينة . هذا البلد المحروق ينظر لهما بأعين الجياع والعراة والرعاة إلى الثروة السابحة (أكثر من مليونين ونصف شهرياً) لا تبقى لهم منها سوى نسبة تافهة بشكل راتب ضئيل لبضعة آلاف من عمال تنظيف القناال ، كل الضرائب التى تدفعها السفن من أجل عبور القنال (وكانت ضرائب باخرتنا المتواضعة « نيتا » خمسمائة جنيه استرلينى) تذهب إلى جيوب المساهمين الانجليز والفرنسيين وغيرهم فى شركة القنال ، والنخبة من الموظفين الأجانب الذين يعملون فى القنال ، إما الذهب الذى يخرج من جيوب البحارة المتجولين على الرصيف فيتجه إلى خزائن الشركات الأجنبية وبنوك بورسعيد أو تمتصها حقائب الداعرات من مختلف القوميات ، الوافدات من جميع أنحاء المعمورة إلى ميناء (الدعارة) وتظل الصحراء قاحلة محروقة والرعاة جياع عراة .

تثأر الصحراء برمالها فتغطى بسرعة محمومة قاع القنال الدقيق ، وتلتزم عشرات السفن الحفارة كل يوم وباستمرار بأن تصد هجوم الصحراد ، لا يهدأ هذا الصراع العنيد الشرس ولو ليوم واحد ، الطبيعة لا تستسلم ، ويسعى جانباً الشاطئين المفصولين إلى التلاقى بعناد من أجل أن يعم النهب الرئيسى في جسم العدو البعيد اللامنظور .

وعلى خلفية الرمال المجدبة ، يبدأ بحارتنا يعون قليلا قليلا مقدار قوة وثروة الوطن البعيد ، ا هـ ، كم نحن أغنياء ، ولا نفهم ذلك .... ، يتفلسف أحدهم ، ماراً بنظره على الصحراء المفروشة على الجانبين .

هل لدينا مثل هذه الرمال فى أوكرانيا ، أنها ليست موجودة حتى فى الخيال ، ولا يوجد لديهم مكان لبذر الزرع ورعى الماشية .

ـ لا دعك من ذلك ، يمكن رعى الجمال ، لا تقلق هنا من الحسك ما يكفى ـ يفترض أحدهم .

ـ اتحسب الجمل من الماشية ، والبقر والحصان وما شابه ؟ ؟ وأين نذرى القمح وحدائق الكرز التى عندنا .

تنزلق باخرتنا ، وهى ليست سوى حلقة من سلسلة تلك السفن ، التى تندفع أمام الباخرة وورائها وتنقطع أحياناً هذه السلسة ، يمر القنال عبر بحيرتين كبيرتين ، تستخدم البحيرتان

كطرق تفرق وتوزيع البواخر المقابلة ، حيث لا يمكن أن يمر عبر القنال سوى باخرة واحدة ، ولا يمكن أن تفترق باخرتان إلا إذا أرست أحداهما على الشاطىء ، تستخدم هاتان البحيرتان كنقطة مرور حيث تنتظر القافلة قافلة مقابلة لها وتدعها تمر إلى الأمام .

وفى مكان بعيد ، تلوح المدن العربية الصغيرة بمناراتها البيضاء ، هناك بناء ضخم لم يتنهى بناؤه كتب عليه : « فى ذكرى الدفاع عن قناة السويس عام ١٩١٤ - ١٩١٨ » إنه فى حقيقة الأمر قد حسمت الحرب هنا بالذات وليس في مارتي أو فى فيلى ، إذ لو تمكن الألمان بمساعدة الأتراك من الاستيلاء والسيطرة على القنال ، لكان هذا يساوى انقطاع الصلات بين انجلترا وفرنسا من جهة وبين مستعمراتها من جهة أخرى ، أى أن ذلك يعنى متاخمة تحطيم حلف دول الائتلاف ، غير أن هذا لم يحدث ، لقد صد هجوم الأتراك ، وأنقذت مصر بريطانيا ، وظلت العلاقة مع الهند ، والشرق الأقصى ، والعراق وكسبت دول الائتلاف الحرب .

مرة أخرى تصير البحيرة قنال ، ويصب القنال أبعد فى بحيرة أكبر ، وأخيراً نتخلص من أبخرة المستنعات الخانقة ، وتصل الباخرة إلى الفتحة الضيقة بين جبال الرمال الذهبية اللرفحة ثم تسير علي سطح خليج السويس .

ميناء توفيق ، وليس ميناء السويس هو آخر نقطة في القنال ، ينفث الهواء بالجفاف المصرى ، نشاهد الكورنيش ، وتمثال تقليدى علي شرف حدث ما أو أحد ما ، وتبدو السويس في البعيد ، أشباح المنازل البيضاء ، اسطوانات تقطير النفط ، ويبدو مخيم غريب الشكل فى البعيد ، تتعرج سكة الحديد ويظهر قطار عربات مسرع ، وبعيداً من السفن المقابلة المنتظر خروجها من القنال ، يسترعى النظر صندوقان حديديان محصوران منذ أمد بعيد ، سفينتا الملك المنحوس الشريف حسين ملك الحجاز ، الذى أطلق على نفسه لقب ملك شبه جزيرة العرب بفضل الانجليز ، وبفضل الانجليز أيضاً وقوة المنتفضين التابعين لابن سعود دحر الشريف إلى قبرص البعيدة ، وكعادة كل الملوك لم يخجل من أن يسرق سفن بلاده قبل الهروب ، ويسلمها إلى غريبة .

وقفة قصيرة ، يترك البوليس ، المرشد البحري باخرتنا ، تصفر الباخرة وخلال نصف ساعة تبدو اسطوانات تقطير النفط البيضاء كأنها نقاط بيضاء مضيئة منعكسة من الهالة الدموية للغروب الاستوائى .

الباب الثالث

* الاختناق فى البحر الأحمر
* الشعب
* الحيتان
* جدة البوابة إلى مكة
* المضاربة بالحج
* وهابيو نجد فى النضال ضد الامبريالية



الاختناق فى البحر الأحمر

البحر الاحمر ـ أكثر بحار الكرة الارضية حرارة ، وأكثرها بعثا على الاختناق ، وأكثرها خبثا ـ يمتصنا من جوفه النافث نارا ورطوبة .

البحر الأحمر ـ طقس إستوائى أى بما معناة ،أكثر مناطق الارض حرارة ، محمى بحرارة الصحراء العربية ، وقيظ المرتفعات الجبلية لافريقيا ، يصير البحر مشبع بالرطوبة الخانقة ترتفع درجة حرارته الى خمسة وثلاثين درجة [فى الظل] ، تعصر الجسم كاسفنجة ـ وكل حركة ، واتفة مجهود يتحول الى تعذيب ، أما النزول من على سطح السفينة الى أسفل ، الى الحجرة التى هى بالاضافة الى كل ذلك مدفأة بأنابيب التدفئة باجتهاد ، تصبح تجربة لا تحتمل على الاطلاق ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام من وصولنا الى هذا البحر ، يتغطى الجسم بطفح جلدى أكل ، وذلك نتيجة لافراز العرق المستمر تنعدم الشهية ، تقف المعدة والكلى عن تأدية مهامها ، تنسى بذلك تقريبا عن التذكير بوجودها . ويتحول الجسم بأكمله الى جهاز تقطير يكرر كؤوس وأكواز وإدلاء الماء المشروب إلى سيل من العرق . ولا يساعد الاغتسال على ذلك لان جميع الحمامات فى باخرتنا من ماء البحر المالح ، إنه لا يخفف فى شىء بل على العكس تحول طفح العرق الى قروح دموية ، يضاف الى ذلك أن الماء فى البحر الاخمر خبيثة ، حادة شديدة الملوحة ، كثيرة الفوسفور ، حتى العرب المحليين ، لا يغتسلون بهذه الماء كقاعدة ، وكان هذا نصيب البحارة السوفييت ، الذين يمخرون عباب البحر الاحمر على متن باخرة قطبية ، يغتسلون بالماء المالح ، وما يكادون يلبسون ثيابهم حتى تصير مبلولة تماما بالعرق .

حين نشعر نحن المسافرين بالاختناق ، فاننا نمتلك امكانية أن نضطجع بلا حراك نشرب المياه المعدنية ونستلقى على الاسرة المتنقلة تحت السقيفة فى اتجاه هبوب الريح ، لكن من الصعب التخيل ، ماذا يعتمل فى غرفة موقدة ، حيث بالمعونة اللطيفة التى تقدمها الاجهزة القطبية ، تصل درجة الحرارة الى خمسين درجة [تقارب نقطة الغليان] ، خاطر بعضنا بالدخول الى غرفة الموقد ، لكنه يرجع بعد خمس دقائق مندفعا منها كالمسلوق ترافقه قهقهة الجميع ، وبعد ذلك لم يصمم أحد على النزول ، لكن لما الحديث عنه ، اذا كان حتى المتعودون والمصقولون فى الدخان عمال الايقاد المتمرنين قد سقطوا أكثر من مرة مغمى عليهم ، وسحبوا فاقدى الشعور الى مستوصف الباخرة .

لا يأتى الليل بسهولة ، يهبط الزئبق فى ميزان الحرارة درجة أو درجتين ، غير أن الهواء يتشبع بمقدار أكثر من الرطوبة المنذرة بالسوء ، وعند الفجر تكون الباخرة كما لو أنها غسلت

بالماء لا يمكن النوم بدون مظلة ، اذ أن بدونها يمكن الاصابة بالروماتيزم ، أو ما شابه ذلك ، الحجرات مغلقة ، العنابر ، المطعم ، الراديو ، وجناح الراحة كلها مهجورة ، الجميع يعيش ويأكل على السطح ، فقط جماعة من المعذبين مجبرة أن تظل مناوبة فى غرفة الايقاد وقسم الالات .

الشعب

شرس هو البحر الأحمر ، قيظ ورطوبة ، شعاب وسمك القرش ، الشعاب تترأى هنا وهناك ، كثير منها ليست محددة حتى على الخارطة ، وذلك لأنها تظهر فجأة ، مثل الآلهة القديمة ، متوالدة من زبد البحر نتيجة لنمو الطبقات المرجانية ، لا ترى ليلا هذه الشعاب ، يمكن ملاحظتها بروأة البحر الضارب لونه للبياض فى الظهر فقط لانها بلون الماء الاحمر المائل للاخضرار ، تهدد الشعاب دائما بالكارثة ، ويمكن القول بصورة عامة ، أن حصول حادثة فى البحر ليس مخيفا الى ذلك القدر ، لان المياه مشبعة بالملح أكثر من أى مكان آخر ، والسباحة فيه سهلة ، الامواج ضعيفة والشاطىء ليس بعيدا اذا قارناه بالشواطىء الاخرى ، لكن الحيتان ، التى تطرطش قطعانها بدون تخلف قرب الباخرة ، فان أى حادثة تهدد تكاد أن تصبح كارثة . لان الانسان الذى يسقط فى الماء ، وخاصة اذا كان أبيض [القضية تكمن فى أنه حسب تأكيدات السكان المحليين ، بأن الحيتان الحقة ، خلافا للحيتان الامبريالية الموجودة هنا ، تفضل افتراس البيض ، فانها تراءف به لسبب ما] فانها تفترسه لتوها .

الحيتان

وفى مثل هذه الظروف يكون ذلك الهلع الذى أصاب طاقم السفينة مفهوما ، حين قرر أحد الركاب بسبب الفراغ أن يمزح ، حيث حول عجلة تلجراف الباخرة من السرعة الكاملة الى « قف » أثناء غياب القبطان ، وبهذا فإنه كان قد أعطى إشارة الى « الكارثة » المحدقة. وبعد بضع دقائق من اشارة الانذار فقط ، اتضح أن هذا سخافة صبيانية من قبل انسان راشد ، وقد ظل بدون عقاب للاسف .

يتبخر الحماس الدينى للحجاج نتيجة القيظ ، فينسون نوباتهم ونشيجهم ، يتجولون بلا حول يلوحون بالمراوح اليدوية ، ويضطجعون بعجز على السجاجيد وينكبون على أباريق الماء ، وعند صفير الباخرة فقط ، وقد استخدم هذا الصفير كاشارة محجوزة مسبقا من قبل الحجاج ، يقوم الاخيرون بأداء فريضة الصلاة ، ومع ذلك نصاب بخيبة أمل نحن الذين ننتظر

رؤية نشوة الصلاة وتوبتها ، ينهض الحجاج أنصاف نيام [كان هذا فى هزيع الليل] يهمهون بخفوت وراء الامام فى الصلاة ، وما أن تصفر الباخرة للمرة الثانية ، بعد برهة خمس أو ست دقائق ، يرتمون منهارين على سجاجيدهم .

صار خليج السويس فى الخلف ، اختفى مشهد جبل سيناء ، المنعكس فى مرآة الرمال المتلالئة ، وقد مرقت الفنارات الصغيرة الواقفة فى جزيرة ديد الا وجزيرة الاخوين ، عبرنا المنطقة الاستوائية ، تميل النجمة القطبية أكثر فأكثر نحو الافق ، تصير الليالى أكثر طولا ، والنهار أكثر قصرا ، ويصير حلول الليل أكثر سرعة وجدية ، يكاد الغسق أن ينعدم ، بينما يرتفع زئبق ميزان الحرارة الى أعلى ، وتصير وجوه طاقم السفينة أكثر حنقا ومتعبة أكثر .

ـ اليوم العاشر فى الطريق ـ

ـ قبيل المغيب ، وتحت لمعان الشمس الساطعة والحارة ، تبدو الاشباح المظلمة للجبال ، والخط الحاد الابيض للمدينة المتماوجة فى الهواء المتلون ، مآذن المساجد البيضاء الناصعة ، تعرجات البيوت البيضاء الغريبة الشكل ، الاكواخ المنشورية الشكل المعتمة خارج المدينة ، كل هذا على خلفية البحر المزخرف بكل الالوان السبعة ، بالوان المرجان تحت المياه الزرقاء ـ الحمراء ـ الخضراء ـ الازوردية ، كل هذا ينبىء بأننا وصلنا الى مدينة جدة الخانقة والجميلة ـ الخادعة ـ الميناء الرئيسى لمملكة نجد والحجاز ، والبوابة الى مكة .

يحزم الحجاج أمتعتهم على عجل ، يجتمعون عند مقدمة السفينة ، منارا بين الشعب بمساعدة المرشد البحرى ، تدخل الباخرة الرصيف ، حيث قد تجمعت إثنا عشر أو ثلاثة عشر باخرة من مختلف الجنسيات ألمان ، انجليز ، فرنسيون ، هولنديون ، أتراك وحتى سفينة روسية قديمة تحت العلم الفرنسى لكنها باسمها القديم « اورشليم » . نقلت كل هذه السفن أفواجا كبيرة من الحجاج ، تنتظر نهاية الحج ، لترحل من حيث أتت .

جدة البوابة إلى مكة

من الصعب تصور لوحة واضحة للمعنى البضاعى والدينى أكثر من صورة الحج ، فى كل عام ومن كل أطراف المعمورة وقبيل يوم الحج يأتى ما يقارب مائتى ألف من الشيوخ ، نساء ورجال فى الغالب ، يتركون أعمالهم المعتادة ، يجمعون ما ادخروه طوال أعوام كثيرة ، يحزمون فى حزمتين ما يلزم من المتاع ، وينطلقون الى الحج فى بلد القيظ ، الجدب ، الغبار ، والاوبئة ،

يأتون من سفوح الهملايا ، من الهند ، من جزر أرخبيل الملايو المزهرة ومن البلدان المجاورة بالطبع : ايران ، تركيا ، شبه جزيرة العرب ، ومن أفريقيا ، واذا كان الحجاج مسافرين عن طريق البر على القوافل أو مشيا على الاقدام ، تنهبهم القبائل الرحل ، وتنتزع منهم آخر الاغذية ، أما اذا سافروا على ظهور السفن فان عمـلاء شركات السفن يبتزونهم بشكل قانونى « منظم » يسلخون منهم نقودا كثيرة قيمة تذاكر سفر فى ظروف لا تحسدهم عليها حتى البهائم ، يأخذون منهم فى جدة رسوم تأشيرة الدخول ورسم الحجر الصحى ، وبعد ذلك يرافق كل مجموعة صغيرة مطوف ، يطوف بهم فى الاماكن المقدسة ، يعلمهم « مناسك الحج » ، ينهب رعاياه مستغلا كل فرصة ، يأخذ منهم نقودا كثيرة للسكن ، الغذاء ، للماء ، وللماء خاصة ، التى يصل ثمنها بوزن الذهب ، هكذا كان فى عهد الشريف حسين الذى قام بتدابير غريبة ، وصلت الى حد تخريب أنابيب المياه ، من أجل رفع سعرها ، الى جنيه ذهب للكأس الواحد .

ينتقل الحجاج بين الاماكن المقدسة ، من جبل الى جبل ، ومن مدينة الى مدينة ، فى محيط ملىء بالقذورات ، بدون ماء ولا غذاء وبلا رعاية طبية تقريبا ، ينفق الحجـاج آخر نقـودهـم وآخـر ما تبقى من الصـحة ، فيتعرضـون للامراض والانهـاك والتعب بكل بسـاطة ، يقعون بين براثن مضـاربى الحجـاز ، المطوفون ، المرافقون ، مـلاك الجمـال والسـيارات وما شـابه ذلك مـن الزمـر يتحصـلون على ما يقارب ثمانية ملايين جنيه استرلينـى من الربـح ، علاوة على خمسـة عشر ألف ميت تحتجـز جثثهم رمال الحجـاز من بين مائتى ألف حـاج(كأنها فراشات على النار) تتواقد كل عام تحت شمس الصحراء العربية اللافحة .

الحج الدينى موجود فى كل البلدان . يذهب الصينيون الى جبل تايسان ، أينما عاش وعلم كونفوشيوس ، ويصعد اليابانيون لا بسين ثياب بيضـاء الى قمة جبل فودزه ، يذهبون الى معابد نيكو ، ويتوافد الكاثوليك الى روما ، لكن يوجد فى جميع هذه الأشكال عامل جمالى ، يتمتع الناس برؤية محاسن الطبيعة ، والاعمال الفنية ، ويتنقلون فى ظروف محتملة بل وأحيانا مريحة ، لكن لا يوجد جزاء يتجازاه المسلمون الاتقياء المنهكون ، الذين يعودون الى مكة والمدينة ـ سوى المشاعر الدينية الخالصة ـ بعض الاحجار من قبر الرسول محمد ، وقوارير من ماء « زمزم » إنه لم يرى أية محاسن ، ما عدا رمال الصحراء ، والجبال العارية الجدباء والوجوه الجشعة للمرافقين .

المضاربة بالحج

من المستفيد من هذا الابتزاز المنهج للحجاج ؟ بادىء ذى بدء التجار ، المضاربون ملاك الجمال والسيارات وبالطبع سلطة الحجاز ، إن أدنى انخفاض فى الحجاج يمكن أن يكون ضربة قاسية لهذه الفئات ولا نعكس ذلك على مجمل دخل البلاد (١) .

تسيل أشعة الشمس على الاف الفراسخ فى الصحارى العربية والافريقية ، فى الوقت الذى يكون فيه عزيز كل شعاع من الشمس في سيبيريا ، وكم يتمنى المرء أن يخترع زجاج مكبر يمكن الانسان من تركيز وارسال مليارات الكيلواطات من الطاقة الشمسية الى التوندرا وجليد القطب المتجمد الشمالى (٢) .

الناس الطفيليون عادة ما يصبحون عبيدا أو خدما وانصاف عبيد ، والحجازيون ممثلون بالطبقات المالكة يصبحون أذيالاً وأعوانا للانجليز ، تمسك الانجليز فى قبضتها مداخل البحر الاحمر : بوابتا الحجاز وقناة السويس ومضيق باب المندب ، إن جرة قلم خفيفة ، ضغط ضئيل لو حتى القيام ببعض أعمال الحجر الصحى الشكلية ، يمكن أن تؤدى الى افشال الحج ويقضى على سكان الحجاز بالافلاس والجوع ، تمسك أصابع الامبريالية الانجليزية على هذا البلد الخائر القوى .

فى وقت الحرب ، دفعت انجلترا الشريف حسين إلى الانتفاضة ضد الاتراك عن طريق ايقاف الحجاج ، الامر الذى حتم سلفا الاخفاق التركى فى الهجوم على قناة السويس ، والانهيار النهائى لتركيا فى الحرب العالمية ، وفى عام ١٩٢٥ كان ابن سعود ملك نجد ، الذى خلف الشريف حسين بعد الانتصار على الأخير ، كان زعيم الوهابيين شديد الشكيمة ، لكنه بعد أن شعر بالاصابع الفولاذية قابضة على خناقة ، اضطر إلى كبح حملته الشرسة مستخدما أسلوب المناورة الشاقة والمؤلمة ، فلم يحزم في خوض المعركة ، وان لم يرغب في التراجع إلى ما لا نهاية .

لقد وحد ابن سعود نجد والحجاز بشكل وهابى نصف متوحش ، وكان يهدد طرق المواصلات الانجليزية إلى الهند ، من فلسطين عبر العراق وايران ، وقد قررت انجلترا بصلابة

---

(١) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٣٢ لانها غير صالحة للنشر .

(٢) لم نترجم بقية هذه الفقرة من صفحة ٣٣ لانها غير صالحة للنشر .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب السادس

* فى الازقه الخانقه بالحديدة
* السوق
* الهنود
* السفن القديمة
* الصناعة
* راس المال الاجنبى



من " نيته " إلى " تابولسك

نلتقى فى جدة بباخرة سوفياتية أخرى هى " تابوسك " وهى مثل باخرتنا " نيته " بسعتها وتجهيزاتها القطبية (واسمها يتحدث عن نفسه) ، فيها نفس أنابيب التدفئة ، والحمامات المالحة ، وانعدام الماء البارد ، وقد وصلت قبلنا باسبوع وبحمولة ناقصة ، اتضح انه لا توجد ضرورة لابحار الباخرتين اكثر (عن ماذا كانوا يفكرون فى اوديسا ؟) ، وذلك لأن كل الحمولة كان يمكن شحنها فى باخرة واحدة ، وتحمل الاخرى الحجاج عائدة بهدوء إلى ميناء بلادها ، تبدأ المناقشات الصاخبة والاجتماعات : لا يرغب احد فى الرحلة الخليجية – الطقس جهنمى ، ولا توجد موانىء مشوقة يمكن فيها التجول والراحة : كاد أن يكون قبطان الباخرة فى معركة ، حجج مع وحجج ضد ، كل يثبت أنه ليس هو المفترض فى متابعة الابحار ، وفى الاخير يتنازل قبطان " تابوسك " الحزبى بعد اسبوعين من الجدل (والعمل متوقف) يوافق هذا القبطان وسط تذمر جماعى من قبل طاقم سفينته بسبب أخذ حمولة الباخرة " نيته " والابحار إلى اليمن ومن ثم إلى الخليج الفارسى .

تظل " نيته " فى جدة .

وفى البداية يقوم العمال العرب بالشحن ، يعملون بخمول ، يمزقون الاكياس بالخطاطيف ، يسجل المتعهد اجرة ضعف عدد العمال العاملين ، ويأخذ الفرق لنفسه ، وبالإضافة إلى ذلك يتوقف هؤلاء العمال عن العمل بضعة أيام بحجة ابتداء الحج .

تقرر تنفيذ الشحن بالقوى الخاصة ، صعد البحارة عراة إلى عنبر السفينة ، وبدأت العتلات تقرقع ، اهتزت الرافعة اليدوية اهتزازا شديداً ، ويرمون اكياس السكر ورزم المنسوجات بالاذرع من باخرة إلى باخرة . وفى اعماق العنابر تزحف اشباح الناس المتصببة عرقا . ونادرا ما يصعدون كالمسلوقين إلى سطح السفينة من اجل تدخين سيجارة ، ونفسا من الهواء النقى ، ثم يغوصون من جديد فى الحفرة الخانقة يسحبون الاكياس إلى الخطاطيف القابضة للرافعة .

استغرق العمل ثلاث ليال (لانه لا عمل فى النهار) . انجزنا خلال هذه الليالى الثلاث ما كان يمكن أن ينجزه العمال المحليون فى أكثر من عشرة أيام وتحت عصا المتعهد المستغل .

واخيراً انتهى الشحن ، واستلم البحارة اجرتهم ، تلك الاجرة التى لم يكتسبوها بعرق الجبين فقط ، وانما بعرق الجسد كله ، استلموا أجرتهم فى نفس اليوم فافرغوا مقاصف البواخر الاجنبية التى على الرصيف واشتروا تقريبا كل المشروبات المثلجة وغير المثلجة

وهكذا اصبحت عنابر " نيته " فارغة ، وعنابر " تابوست " مشحونة حتى سطحها ، ننتقل إلى " تابولسك " أو بالاصح إلى برج القيادة ، الهبوط إلى الحجرات مستحيل ، هناك تبقى الاشياء فقط وفى الصباح تتحرك تلوح مناديل المودعين من على الزوارق ، وها هى باخرتنا تناور بين الشعاب تخرج إلى الماء العريض للبحر الاحمر ، آخذة اتجاهها إلى الجنوب ، ولأول مرة تبحر باخرة سوفياتية حول شبه جزيرة العرب ، ولأول مرة سيعرض العلم الاحمر ، والبضائع السوفياتية فى اليمن وموانىء جنوب فارس

أول سنونوات اليمن

اشعرنا اليمن بوجوده فى جدة ، هناك ظهر احد التجار مع رسالة توصية من السلطات اليمنية ، مقدما لنا خدماته كمرافق وسمسار فى الحديدة ، مؤكدا أنه بدون صحبته سيكون الفشل مصيرنا ، لكننا استغنينا عن خدماته ، هذه كانت السنونوة الاولى من اليمن ، ومنها يتضح ان اليمنيين يضعون آمالا على التجارة معنا ، وان لديهم امكانيات من نوع ما ، وعن هذا ، وعلى أية حال تتحدث الرسائل الموجهة إلى فرع " اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية " وذلك من شخصيتين يمنيتين بارزتين

الرسالة الاولى ممهورة بختم الامير محمد ، أمير الحديدة ، والموجهة إلى إحدى الشخصيات الموثوقة فى جدة ، لكنها مخصصة لان يستلمها الوكيل السوفييتى ، يقول نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، المتواضع محمد ، ابن أمير المؤمنين (ومحمد هذا هو الابن الثانى للامام) لقد شغل فكرنا مسألة واحدة ، وقد نوقشت أكثر من مرة ، ان حكومتنا لا ترفض ابدا مصافحة اليد الممدودة لها ، لقد صرحت بهذا فى صحيفة " الايمان " . وهى تطمح إلى الصداقة مع شعوب الشرق ، وحكومتنا فى الوقت الراهن تصرح بعزم عن طموحها فى اقامة طموح متبادل مع شعوب الشرق وخاصة مع من يضمر فكرا تقدميا ويناضل ضد الاضطهاد الاميريالى ، ان حكومة روسيا العظمى تقف يقظة لحراسة مصالح شعوب الشرق ، وضد هذه الحكومة تصارع الامبريالية ، موجهة لهذا وسائل مالية ضخمة ، قوى حربية وسياسية ، طامحة إلى اعاقة تنور شعوب الشرق بروح الحرية ، هذه الحكومة تحوز على تعاطف الشعوب المضطهدة ، اننا نأمل فى اقامة علاقة طيبة بين حكومتينا "

واختتم الرسالة بادعية دينية وتمجيدية لله .

والرسالة الثانية مكتوبة بلهجة اكثر عملية وتحفظ وضعها السكرتير الأول للامام ، القاضى راغب ، موجهة إلى القنصل السوڤييتى فى جدة ، يقول فيها · " اننا نحافظ على الحب فى القلب لروسيا ، لقد قررنا وضع بداية علاقات تجارية بين الدولتين المستقلتين روسيا واليمن ، وحين كنت سكرتيرا اولا للسفارة العثمانية فى بتروجراد ، كنت موثوقا بروابط صداقة وطيدة بالشعب الروسى ، لقد وجدت انه من الملائم التوجه إليكم بهذا الموضوع بواسطة صديقى ، نرجوا منكم القيام بالخطوات المناسبة وتعريفنا بهذا ".

لقد اهملت هذه الرسالة فى جدة قراب عام (وقد ذكرت محدثى فى موسكو : " اليمن واى معنى لذلك ") وكانت بهذا الشكل اول وثيقة تضع بداية الاتفاق السوفيتى اليمنى ، الذى سيوقع عليه فيما بعد فى صنعاء ، لكن باخرتنا ما زالت تتحرك فى الطريق من جدة الى الحديدة ، ويظهر ان كل هذا ليس مقنعا بما فيه الكفاية ، لم توجد ثقة كاملة عما ينتظرنا ، وهناك شائعات تطفو عن بداية غارات الطيران الانجليزى ، وعن انتفاضة القبائل قرب الحديدة .

يبعث فينا بعض الانتعاش شيخ عربى يركب باخرتنا من القسطنطينية الى اليمن ، عمره اكثر من سبعين سنة ، وهو ضابط قديم فى الخدمة التركية ، ويحلم ان يعيش آخر ايامه فى صنعاء بهدوء يتحدث عن صنعاء ويبجلها بصوت اجش .

– جميل جدا ، جميل جدا ... كل شىء طيب ، كل شىء موجود هناك : هواء ، ماء ، فواكه ، قوارير ماء من صنعاء ، يمكن ان تحملها الى اخر الدنيا ، لن تلقى اشهى منها ، الهواء – كالعسل ... حدائق فى كل مكان – المشمش ، الخوخ ، التين ، الليمون ، العنب – خمسة وثلاثين صنف من العنب .

لكن صنعاء بعيدة ، اقرب مرحلة – الحديدة – الحديدة حرها اكثر ارتفاعا من حر جده ، ماذا ننتظر ، نحن فى الباخرة ، نتعرض للرياح البحرية ، ومع ذلك ليس باستطاعتنا التحرك ، نبتلع لقمة الغذاء بصعوبة بالغة ونتبعها بقوارير الماء .

فى اليوم الثالث فى وقت الظهيرة بعد سفرنا من جدة نمر على مجموعة جزر تسمى " جبل الطير " ، تستخدم هذه الجزر كمكان لاستراحة الطيور العابرة ، هذه الجزر المقفرة العارية ، بصخورها الحمراء . الفنار الذى يلمع فى الليل فقط ، يحى قفرتها .

وبعد بضع ساعات – وفى العتمة الدهماء تترای مجموعة جزر ، يطلق عليها فى الخرائط

الاوربية " جزائر " ، التى تعنى " جزر " باللغة العربية ببساطة ، لم يطلق اسم محدد لهذه الجزر – وهى خمس أو ست جزر – عبارة عن صخور كبيرة ، وعلى واحدة منها فنار ، من الصعب تصور مكان اكثر قساوة منها كمنفى للمجرمين .

وبعد هذه الجزر ، ننعطف نحو الغرب بشدة ، وننطلق الى الحديدة مباشرة .

ليلة ظلماء غير مقمرة ، يقرر القبطان انه حسب آلة تحديد الاتجاه ، يفترض أن نكون قريبين من الشاطىء ، لا ضوء فى الافق ، وتحت طرق الرفاص المنتظم ، يرمى المناوب بالمرجاس (١) ويقدم تقريرا عن عمق البحر .

– سبعة عشر ... ستة عشر ... أربعة عشر ...

وعندما يصل العمل الى اثنى عشر مترا و يحول القبطان ذراع " التلجراف " الى اشارة " قف " ، تقرع سلسلة " التلجراف " بحدة ، معطية اشارة الى عمق قسم الماكينات ، تسير الباخرة الى الامام لبعض الوقت بحكم قوة الاستمرار ، نتوقف بعد ذلك ، ننتظر الفجر ، وامامنا ظلام دامس .

نضطجع على الاسرة ، من دون رغبة فى النوم ، هذا الشاطىء الغير مرئى ، لكنه القريب الادراك وان بشد الاعصاب و ويطرد النوم ، فى ظل الفنار الخافت اقلب صفحات مرجع بحرى صدر قبل الحرب واقرأ التعريف التالى تحت كلمة الحديدة :

" الحديدة – مدينة يبلغ تعداد سكانها من ثلاثين الى اربعين الف نسمة ، فيها مبنى عظيمة وماء طيب ... "

وبعد ذلك تاتى معلومات بحرية متخصصة .

افتح ديوان اشعار بير يوسف : لقد ذكر اليمن فيها ، وان كانت بمعانى ومسمات مستعارة مجهولة : " هكذا فى صحارى شبه جزيرة العرب المهيبة الجليلة .

اينما سارت ملكة سبأ لتلاطف سليمان " .

هذا يعنى انه فى اليمن ، لان مملكة سبأ قد وجدت فى اليمن ، وقد ذكرها الانجيل ، حيث حكمت الملكة الاسطورية بلقيس ، برجليهاذات الشعر الذهبى الجاف ...

---

(١) المرجاس – جهاز لقياس عمق البحر .

ويضيف الشاعر بير يوسف :

" نظرة باردة من قمة الرأس إلى اخمص القدم واوفير الغنية ...

واوفير – هذه الكلمة المتكبرة تعنى اليمن المتواضعة التى لا تقبل الادعاء .

هذا هو كل ما اتذكره عن اليمن من الكتابات الموجودة لدينا ، يوجد امامى كتابان ايضاً ، احدهما الفه الصحفى النمساوى فيسل وقد سمى هذا الكتاب اليمن " بلدا شيطانيا " ، اكثر بلدان شبه جزيرة العرب تخلفا واقلها جاذبية ، وعلى النقيض منه – وصف احد الايطاليين اليمن وكان قد سافر اليها ضمن بعثة رسمية ، واستقبل بحفاوة وابهة كبيرة .

تعرف اليمن فى هذا الكتاب بانها " وطن الاريج او الشذى " . واتذكر ان اليمن قد اشتهر ايضاً منذ زمن سحيق " بالعربية السعيدة " . ويؤكد هذا مرافقنا الشيخ العربى ، الذى لا يفتأ يدمدم حول اصناف العنب الخمسة والثلاثين وماء صنعاء العجيب ، بهذا ينقطع حبل التصورات المستقاة اثناء الطريق الى اليمن ، و كيف هذه اليمن فى حقيقة الامر ، هذا البلد القريب جدا منا الان ، والذى لا يفصلنا عنه سوى خط الماء أو دخان الضباب الصباحى ؟

... من خلال المنظار وفى ضوء الفجر الشاحب ارى خط الشاطىء الاغبر ، الذى يمتد بضعة اميال من باخرتنا ، وهو اكثر انبساطا وخال من الجمال عنه فى جدة .

اشاهد النتوءات الصخرية لحواجز الامواج ، بعض مبانى بيضاء ، صفت بشكل ساحة صغيرة ، والاشباح الرمادية لمنازل الضواحى الواطئة .

اهذه هى يا ترى " المهمات العظيمة " التى قيل عنها ؟

على رصيف الحديدة

ترفع الباخرة مرساتها مقتربة من الشاطىء خبط عشواء ، تتوقف مرة اخرى على مسافة ميلين أو ثلاثة اميال من اليابسة : والوقوف ابعد من ذلك يهددها ، الاماكن الضحلة ، والقبطان لا يخاطر بالتحرك على رصيف يجهله ، تضج سلسلة المرساة من جديد ، وتنطلق عدة صفارات نداء تاريخى من مدخنة الباخرة ، ويرتفع شريط اعلام الاشارة المبرقشة على السارية ، لا شك فى اننا قد وصلنا ، هذه هى اليمن .

ها هي اليمن

ها هو ، هذا الوطن ، الذى يبدو من على ظهر الباخرة قاحلا ، صحراء كئيبه ... هذه هى الحديدة ، المدينة النصف مغمورة بالرمال ، بيوت مهدمة ، كأنها كومة عظام نصف رميمة ، مبيضة على بساط سهلى اغبر قاحل .

تمر عشرون دقيقة و نشاهد شراعا ابيضا يبتعد عن الشاطىء يناور مع الريح يقترب من باخرتنا ويصل بعد نصف ساعة .

نتماسك انفسنا ظاهريا بحزم ، وان كانت الثقة منعدمة فى الداخل .

– ماذا سيقولون لنا ؟ " اهلا وسهلا " او " فلترحلوا " ...

يصعد على سلم الباخرة ايطالى كهل محنى الظهر ، اصلع الرأس ، انه وكيل الشركة المحلية التى اخذت على عاتقها ، وخدمة باخرتنا ، حسب اتفاق تلجرافى ، وبصحبته عربى عارى القدمين فى سترة عسكرية مهلهلة هو مساعد رئيس الشرطة ، وعندما سأل هذا الاخير من نحن ولماذا وصلنا ، توجه مسرعا الى الشاطىء ليقدم تقريرا .

يمتص الايطالى الماء المعدنى بشراهة ، يجيب على اسئلتنا عن الحديدة ، ملوحا بيديه بكآبة ، – لا شىء يوجد هنا ... لا شىء – لا ماء ، ولا خضرة ولا غذاء ، كل شىء يجب جلبه من الخارج ، كل شىء ... ايسمح لى القبطان بتعبئة قنينتين من الماء البارد ؟

– الاخبار ؟ نسأل نحن ، – كيف انتهت الانتخابات الايطالية ؟

– نحن هنا لا نعرف شيئا – يجيب مبتسما بمرارة ومؤشرا بيديه اشارة بائسة هادئة ... الانتخابات ... نحن لا نعرف حتى انها يفترض ان تجرى ، ربما ستحكون لنا كيف انتهت الانتخابات الفرنسية ؟

ثم نحكى له ، لان هذه الانتخابات قد جرت قبل اسبوعين من رحلتنا من اوديسا ، وقد استمرت رحلتنا اكثر من شهر .

– وهنا كيف ؟

مرة اخرى اشارة تهكمية هادئة .

– هنا ... سترون بأنفسكم ، ما يشبه الحرب ، ننتظر الطائرات ، فلدى الامام شىء ما غير حسن مع الانجليز ...

– كيف تعيشون ؟

– لا تسألوا ... عن كل شيء ، كأننا في سجن أو في منفى ان لم يكن اسوأ .

نحن نرى ذلك من المنهكين والمتعبين ، على كل ربما كان هذا استقبال مقصود : لتخويفنا ، نحن الذين خاطرنا بمجيئنا إلى هنا ، إلى البلد الذى تمد إليه ايطاليا اصابعها الاخطبوطية بشراهة ، تحيط القوارب بباخرتنا من جميع الجوانب . يستشعر مالكو القوارب والعتالون الرزق – اجرة افراغ البضائع ونقلها الى الشاطيء ، يتقافز الناس السمر العراة من القوارب الى الماء ويسبحون مقتربين الى جوانب السفينة " تابولسك " يسحبون حبال الربط باسنانهم ، يلتصقون ويتشبثون به ، وها قد انفتحت ابواب الحجرات ، وطقطقت الرافعات ، وتطايرت اكداس اكياس الدقيق والسكر من سطح السفينة الى قعر القوارب .

الشمس بعد ان ارتفعت ، تلهب سطح السفينة بسيل اشعتها ، كما تلهب ظهور الناس العارية والمكشوفة .

ها هو يظهر قارب كبير وانيق ، على صاريته علم احمر مرسوم عليه سيف وتحيط بالسيف خمسة نجوم انه علم اليمن ، فى القارب سلطات الحديدة ترافقها حراسة ، تتألف مما يقارب خمسة عشر جنديا وعلى ما يبدو أنه قد رتب لنا حفل استقبال بما فيه الكفاية .

الوجهاء – فى برانس بيضاء يتمنطقون بالجنابى ، يلبسون اوشحة من الخيش الخفيف – وعلى رأس كل واحد منهم عمامة بيضاء ، وعلى ارجلهم احذية اوروبية ، وهذه هى العلامة الخارجية الوحيدة للتأثير الاوروبى .

يسمى الجنود كما فى تركيا عسكرايضا ، يلبسون الاردية ، وان كان من القماش المحلى الخشن ، هذه الاردية هى نوع ما من الملابس الشبيهة بالفوطة مع بلوزة معتمة ، يربط الجنود خصورهم باحزمة ، احزمة الذخيرة عبر الكتف ، والبنادق فى الايدى والجنابى خلف الاحزمة .

الاقدام حافية والعيون ملتهبة وحشية كأنها عيون الصقور ، هؤلاء من الجبال ، وصلوا إلى البحر منذ فترة قصيرة ، وقد كانوا لأول مرة فى حياتهم على الباخرة .

تميز بينهم الامير الشخصية المهيبة ، وكامل لقبه امير الجيش ، يتحرك بقربه المترجم فؤاد فى لباس اوروبى وطربوش ، وهذا المترجم مصرى ، وهو الشخص الوحيد الذى يعرف لغات اوروبية ويطلق على نفسه لقب مترجم المحافظ .

وجهت الينا اسئله . بما اتيتم ، وما هى حمولتكم ، وهل تنوون الذهاب الى صنعاء لمقابلة الامام ، واستفسارات عن الصحة وظروف الرحلة ، اجبنا بدورنا نحن نستفسر عن صحة الامام وأولاده وعن الوضع فى صنعاء ، لكنهم لا يخفون بأن ليس كل شيء على مايرام وأنهم ينتظرون الطائرات الانجليزية وان كانوا لا يخافون منها .

– سنتغلب عليها ...

تعب عامل مقصف سفينتنا من كثرة العمل : يخرج صناديق الماء المعدنى ، او مياه عادية باردة ، فهنا يعتبر هذا أفضل ضيافة ، وبعد الضيافة يلقى امير الجيش كلمة اخفائية بواسطة المترجم . .

– نحن انتظرنا الروس منذ فترة بعيدة ، لقد توقعنا رؤيتكم هنا فى العام الماضى ، نأمل بعون الله ان تتوطد العلاقة بيننا ونطور التجارة ، نحى بأشخاصكم اول روس يصلون الى الارض اليمنية ، وبينما نحن نتبادل التحيات ، كان الجميع عساكر ووجهاء يمعنون النظر بشراهة فى كل جزء من اجزاء الباخرة ، ويتراكضون بعد ذلك يزاحمون بعضهم بعضا لفحصها و يمرون بكل الزوايا ، غرفة القبطان ، عجلة القيادة ، البوصلة ، المنظار ، المستوصف ، كل شيء يثير اهتمام الناس ، هؤلاء الناس الذين حرموا من التقنية الى الحد الذى يجعل من سفينتنا الرثة بما فيه الكفاية تبدو لهم كأنها مارد اسطورى على طول الطريق ، والسبب انه لم تمر حتى الآن سوى البواخر الاجنبية الصغيرة القديمة ، أما البواخر الكبيرة فإنها تبحربالطريق الرئيسى للبحر الاحمر ، غير عابئة بالمرور فى هذا الميناء اليمنى المتواضع .

الباب الخامس

* بجع على حاجز الامواج
* الزخرفة العربية والجمارك
* سيف الاسلام والبلاشفة الوافدون
* الجاسوس المفضوح
* رحلة سعيدة
* " تابولسك "



بجع على حاجز الامواج

بابتعادنا عن اخر قطعة من الارض السوفيتية بشكل السطح الباهت ل " تابولسك " . حينئذ فقط وجدنا انفسنا على البساط المفروش على مؤخرة القارب ، بدانا نتصور بوضوح ، الى اى زمان سحيق قد نائنا ، اننا نبتعد اكثر من ثلاثة الاف كيلو متر عن اقرب شاطىء سوفيتي عن طريق الخط الجوى ، تبقى الطريق الى الهند الجزء الاقل من الطريق التى قطعناها ، اثيوبيا الحارة تحت متناول اليد ، انها فى الجهة الاخرى للبحر الاحمر ولا تبعد سوى اربع أو خمس ساعات عبر البحر ، والمسافة الى خط الاستواء اقرب من المسافة بين موسكو واوديسا ، الشمس والنجوم والهواء الخانق – كل هذا يشعرنا باننا قد جذبنا الى عالم اخر ، معلق بين افريقيا والهند ، واننا قد اقتلعنا الى ما لا نهاية عن الوطن السوفيتي – نشعر كيف يصل رذاذ البركان الثورى ولاول مرة ممثلا بنا وكيف يصب حممه على سابع ارض واصلا الى هذا الميناء الذاوى الشديد الحرارة .

تدفع الامواج القارب الواسع بقوة ، هذا القارب الذى قعد فيه ما يقارب ثلاثين شخصا ، وها هى تتطاول بوضوح عظمة حلقة المبانى البيضاء الغربية الشكل ، يرفرف العلم الاحمر فوق واحده منها ، ها هى المدينة تمتد كسلسلة من الصعب ان تحيط بها بنظرة واحدة : السهل ، البيوت البيضاء ، الصفوف الطويلة لاكواخ من الطين والقش ، اشرعة الصنابيق على الامواج ، او على هياكل القوارب فى الاماكن الضحلة ، حاجز الامواج الحجرى المتطاول الى الامام لحماية مرفأ القوارب الصغيرة ، والشمس تحرق ، كمعدن مصهور يتصبب على الجسم ، تضرب مؤخرة الراس,كما لو انها بمسامير ، لم ندرك كيف نصحو من ركام الانطباعات حتى كان حاجز الامواج امامنا .

الانطباع الاول عن الحديدة – سلسلة طويلة من البجع على حاجز الامواج واقفة بأبهه ووقار بصدور بارزة ، طيور بيضاء ، تنظف اجنحتها بمناقيرها ، وتنظر برباطة جأشى الى القارب الذى تتلاطم عليه الامواج الى الحاجز ، يتراكض اناس انصاف عراة يربطون القارب بالحبال ، ايد ما تجذبنا الى الارض الثابته .

– الحمد لله .

لا اثر لنسيم البحر ، الغبار الساخن يلف من كل مكان ، نتجول انصاف عميان مع

مرافقنا ، ندخل ابوابا ما ثم نصعد الى سلم داخلى طويل نمر بافنية وساحات مختلفة ، نصل الطابق الاخير ، نقعد على الكراسى منهكين ، نتطلع فيما حولنا ، نحن فى غرفة ضخمة ، يهب نسيم بحرى عليل من النافذة .

الزخرفة العربية والجمارك

نتطلع الى السقف : دوائر ملونة ، منحنيات ، نجوم ، كل ما يمكن توليفة من الخطوط الملتوية والمباشرة ، اشكال متنوعة لا نهائية ، تتميز بانه لا يوجد هناك شكلان متشابهان بين هذه الاشكال ، والالوان مختلفة ايضا ومتعدده الالوان والتوليفات ، هـذه هـى " الزخارف العربـية " . نتفحص الاثاث والمفروشات وهى نصف اوربية ، اى الخلط القريب بين الاسلوب العربى القديم وعدم الذوق الاوروبى : مقعد رث منثور ، منضدة للعب الورق فى الزاوية ، بضعة كراسى ، وعلى الجدران لوحتان زيتيتان انجليزيتان ذات موضوع حربى كذكرى للاحتلال الانجليزى للحديده بعد انتهاء الحرب ، وغرفة المغسل – ارض حجرية ، برميل يستخدم كمغسل – يؤكد لنا العسكرى المكلف بخدمتنا ان المياة كثيرة ، يمكن صب الماء والاغتسال ، فى الوقت الذى كنا قد خشينا فيه حتى من غسل اليدين بفعل تاثير كلمات الايطالى ، واعتقدنا بان الماء هنا ثمين او عزيز للغاية لقد اطمئننا بان المياه فى الحديدة كثيرة ، حقا انها مالحة الطعم قليلا ، لكنها صالحة بما فيه الكفاية للاغتسال .

بدانا نشعر بان الشيطان ليس مخيفا كما يصفون .

ونصب بشراهة على اجسامنا اكواب الماء ، ونغير بدلاتنا المبللة بالعرق .

ومن النافذة – نحن على ارتفاع الطابق الرابع – ينبسط البحر باتساع : طيور النورس ، الاشرعة ، وبعيدا فى الافق شبح باخرتنا ، وفى الاسفل علي الشارع تمتد ارتال الناس السمر انصاف عراة ، الذين ينقلون اكياس الدقيق والسكر الذى جلبناه ، ينقلون من الرصيف الى مخازن الجمارك . ونرى من النافذة الاخرى فى الاسفل السقائف المبنية ، مخازن الجمارك ، الافنية المفتوحة الى الداخل لا يخشى عليها من المطر ، فهو يسقط مرة او مرتين فى السنة ، نرى كيف تنمو تحت السقائف اكداس اكياسنا ، التى دخلت الشواطىء اليمنية لاول مرة .

الاجراءات الجمركيه ليست معقدة هنا ، تؤخذ الضرائب حسب عدد الاماكن ولا تتعدى خمسة بالمائة من سعر البضاعة ، الدولة اليمنية لا تزال حديثة العهد ، وقد امتدت من الجبال الى

البحر فى عام ١٩٢٥ فقط ، وشملت بنفوذها الحديدة ، وقبل هذا كانت الحديدة محتلة من قبل الانجليز وصنيعتهم الادريس (امير دولة عسير المجاورة) ، لم تدرك الحكومة اليمنية بعد كل قضايا السياسة الاقتصادية ، والبرجوازيه اليمنية الميسورة لا تهتم الا بشكل ضئيل للغاية بتطوير الصناعة الوطنية كى لا تطالب بضرائب حماية كبيرة . لانها تفضل العيش على الصفقات التجارية ، وهى ليست على استعداد للتنازل عن تلك الارباح للخزينة ، التى يمكن ان تجنيها من الضرائب التى يدفعها المستهلك لصالحها وبالاضاله الى ذلك ، لا يستورد الى اليمن سوى المواد الاولية الضرورية وبشكل اساسى الدقيق ، السكر ، الكروسين ، الاقمشة ، الصابون والكبريت ، ولهذا فان السياسة الاقتصادية لم تخرج عن اطار التجارة الحرة البدائية ، فليس هناك لا بنوك ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا جمعيات المساهمين ، ولا سياسة تحمى وتشجع الراسمالية الوطنية التى لا تزال بعيدة ، ان اسباب غياب البنوك وانخفاض مستوى الضرائب فى اليمن هو ان الحكومة ليست مرتبطة بمعاهدات غير متكافئة شكليا فقط بل ولا حتى عمليا يمكن ان تكون هذه الضرائب مرتفعة ، وليس ان القوآن قد حرم ذلك كما يفكر البعض .

اليمن ليست الصين او الهند ، يتحدث بفخر احد الوجهاء الذين قابلناهم ، فهى تستطيع رفع الضرائب ، ولكنها لا ترى الان ضرورة لذلك .

لكننا ضيوف ، يشعرون ان وقت الغداء قد حان، نذهب الى الغرفة المجاورة ، نجلس على مائدة مستديرة مغطاه بعشرات الصحون من مختلف انواع الطعام ، هناك قطع من لحم الخروف ، والدجاج ، البقول ، البيض المقلى ، الارز ، وترتفع قنينة خاصة كبيرة من المشروبات ، يتناول مضيفنا امير الجيش واثنان من صحبتة المقربين الطعام باصابعهم ، ويشرحون لنا انه من المالوف حسب الطريقه العربية الاكل بالايدى ، يرى العرب ان تناول الطعام بالشوكه او السكين يفقد طعمة ويكتسب طعم المعدن ، ومن اجل تذوق الطعام جيدا يجب تناوله بالاصابع ، وعلى كل حال ، ويتسامح ، ونتيجة لعدم خبرتنا بالاكل بالاصابع ، يقدمون لنا الشوك والسكاكين ، وبعد فترة تعودنا على الاكل بالايدى وبدأنا نشارك وجهة النظر العربية .

انتهى الغداء ، شربت المشروبات ، وبلعت اقداح القهوة الصغيرة ، يتركنا مضيفونا الوجهاء لراحة ما بعد الغداء ، ونرتمى على الاسرة المتنقله منهكين ، تلك الاسرة التى اشتريناها ببعد نظر بواسطة الوسطاء فى بورسعيد .

تمضى فترة ما بعد الغداء ، ساعة ساعتين والبشر السمر لا يزالون ينقلون الاكياس فى الاسفل ، وفى الجهة المقابله للنافذة ينعس بلا حراك بعض الحراس الذين يحرسون بنايتنا ، وكأنهم قد تجمدوا .

يصل سكرتير الامير ويخبرنا بان الأمير مستعد لا ستقبالنا بعد ساعتين ، وحتى ما اردنا ، ويقول ان الحكومة تنوى شراء الدقيق لاغراضها وياسعار السوق ، ثم يستفسر عن امكانية استمرار وصول البضائع السوفيتية الى اليمن ، وهل يمكن ارسال مهندسين وخبراء زراعيين وآلات زراعية ، وعندما عرج الحديث عن المواضيع السياسية باغتنا فجأه يرجو توضيح جوهر الخلافات الداخليه فى حزبنا ، وقد اتضح انه قد سمع فى مكان ما ، او قراء شيئا ما عن التروتسكية ، الجدل الحزبى الداخلى ، وقد انعكس كل هذا لدية على شكل تصورات غامضة ، وحاول تصورها .

لقد شكى من الانجليز ، لانهم يطالبون بخروج قوات الامام من المناطق المحاذية لعدن ، الان ان الامام غير موافق على هذا ، هناك احتمال ان يتعقد الوضع ، وقد عاد العقيد الانجليزى جبكوب الى عدن من صنعاء قبل اسبوع صفر اليدين ، ويخرج الايطاليون من التقليعة ، لقد وقعت اتفاقية معهم قبل عامين فى صنعاء ، وحينها كان اليمنيون يأملون بان تاتى بضائع جيدة من ايطاليا ، وان يدافع الايطاليون عن اليمن ضد الانجليز ، لكن هذه الامال خابت ، اما الان فلا وجود للاوهام .

وبعد قليل يخبرونا بانالامير محمد (ابن الامام ، وامير الحديدة) ينتظرنا فى القصر ، نعتلى البغال ، التى قربت الى البوابة ، ونحن لم نعتاد على مثل هذا الركوب ، ومثلنا ، ظلت الحيوانات فيى مكانها ، غير فاهمة اوامرنا ، تحرك اذنيها بارتباك ، ياتى العسكر لمساعدتنا ، فيقودون البغال بمقاودها ، نتحول الى الزاوية حيث ينقلونا لسبب ما على الخيل ، يظهر ان هذا زيادة فى الاهمية . لكنه يتضح ان الخيل ايضا غير متعودة على الركاب الواصلين من وراء البحار ، اكثر من البغال ، فتسير ايضا منصاعة للعسكرى الماسك بعنقها .

نتحرك ببطء الى الامام فى غبار الشوارع المعتمه بمبانيه الطينية ، تخترقنا النظرات الفضوليه من قبل المواطنين انصاف العراة لابسى العمائم ، الذين يمثل وصولنا بالنسبه اليهم حدث كبير ، يحيينا اثنان من الاوروبيين مجاملة ، نعرف ان الاثنين عملاء شركات ايطالية محلية ، نمر قرب مقهى ، حيث يقعد ما يقارب عشرين شخصا تحت ظلال سقيفتها ، يجلسون على مقاعد مجدولة يمتصون دخان التبغ عبر قصب طوال شبيهة بحبال غليظة متصلة باوانى زجاجية غريبة الشكل يفور الماء بداخلها ، هذا هو تدخين النارجيلة .

تنتهى ساعات ما بعد الغداء ، ساعات القات ، القات هو شجرة صغيرة لطيفة ، تحتوى اوراقها على بعض انواع المخدر على مايبدو ، ويعتبر القات المصدر الاساسى لمتعة جميع

السكان صغيرا وكبيرا ، دون التمييز فى الطبقة والسن ، وبعد ساعات القيلولة ، يشترى القات كل من يملك حتى بضعة قروش ، يضع قاته على السجادة او على سرير القش ، اوببساطة فى غبار الشارع ، يمضغ اوراق القات الخضراء المخزونة فى فمه مسبقا الموضوعة بعناية على شكل حزمة مربوطة .

ينتقل الناس فى هذه الساعة الى حالة ارتياح مخدر ، ينفضون عن انفسهم بشكل مصطنع تعب نصف النهار المعاش ...

نمرق بين السقائف المعتمه لسور المدينة ، نبتعد خارج حدود المدينة ، نخلف المقبرة ، الخلاء الرحب الذى تتناثر فيه الاحجار بدلا من مشاهد القبور ، وعلى الجهة اليمنى - اكواخ طينية نصف دائرية ذات قباب وجداحة من القش ، نشعرهنا بالاسلوب الافريقى وبعيدا تتماوج متلونه فى امواج الهواء المندفع جدران البناية الكبيرة ، النخيل على جوانبها ، والحرس انصاف المعراة عند بواباتها ، مشدوهون من اشعة الشمس المخدرة ، محترقون فى الغبار النارى ، تنزل من فوق الخيول المقادة الى جناح القصر ، نصعد السلم انصاف نائمين باتجاه غرفة الامير ، ان غرفة الامير ليست مكتب عمل بل غرفة للراحة ، وعلى الارائك المفروشه بالوسائد ، يجلس اشخاص انصاف مضطجعين يمتصون دخان النارجيلة بتلذذ ، وبرتابه يمضغون اوراق القات الخضراء ، وعند دخولنا نهض احدهم ، لا بسا عمامة خضراء وقميصا ابيضا واسعا ، حيانا بالطريقة الاوروبية مادا يده ، هذا امير تهامة (الخط البحرى) الابن الثانى للامام ، الامير محمد ، وكان المحيطون به معروفين لنا لقد رحبوا بنا على ظهر الباخرة الامير - متوسط الطول ، اسود الشعر بلحية قليلة الكثافه . ملامح وجهة دقيقة ، ونظراته ذات تامل ، صوته هادىء وذى جرس صادق يبتسم له كل الوجهاء ببشاشه وانسجام يلوحون بالمراوح بانتظام ، يدعونا الامير للجلوس ، ثم يقدمون لنا الشربات والقهوة التركية ، يبدأ الامير الحديث ، وللاسف اسمع حديثة عبر المترجم ، لم يكن بمقدورى التقاط خصوصية حديثة الاحتفالى ، ولهذا فانى ساكتفى بالنقل الموثوق لمحتوى حديثة .

سيف الاسلام والبلاشفة الوافدون

قال الامير - نحن نعرف عن روسيا السوفيتيه ، وانه بفضلها نجحت تركيا فى النضال من اجل الاستقلال ، نعرف ان لديكم اهتمام باقامة علاقات حسنة مع شعوب الشرق .

ينظر كل منا للاخر باهتمام ، فللوضع فرادته : هو - ابن رأس السلطة الدينية - الاقطاعيه لليمن ، خلف اقدم السلالات الملكيه فى العالم ، التى تدعى نسبها الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، عليه عمامة ولباس حريرى يتحدث بلغة القرآن الموزونة المنظمة ، المليئة بذكر الله ومقتطفات من الكتب المقدسة - ونحن - الواصلين لتونا الى هذه الارض - ننتمى الى الوطن الاشتراكي الشمالى البعيد ، البعيدون كل البعد ومن كل النواحى عن محدثنا ، نحن مبعوثى سلطة العمال والفلاحين ، ولاول مرة يلتقى وجها لوجه بلاشفة روس وممثلوا الارستقراطية اليمنية القديمة ، وبينما كان الامير يتحدث كنا نحن وجلسائنا نتبادل النظرات ، وكانما لدى الجميع فكرة واحدة - عن الطريقة غير المألوفة ، التى التقى بها ممثلوا عالمين مختلفين الى ذلك القدر من الاختلاف مظهرا ومسافة ، زمنا ومحتوى .

لكن الصيغ الدينية التى يتحدث بها الامير بدأت تتضاءل قليلا قليلاً وتحل محلها الصيغ السياسيه المألوفه لدينا تشق طريقها ، وشيئا فشيئا بدأنا ندرك ان اخبار واخلاق وطننا وصلت حتى الى هنا الى اليمن المهجورة العائشة فى مرحلة ما قبل التاريخ ، انعكست بغرابه عبر النفسيه الاقطاعيه الاكليركية الاصيله مكونه تصورات فريدة خاصة عن بلدنا ، وبدأ شعورنا انه حتى الفئة الحاكمة تميل الى اعتبارنا وكأننا معاريف وتنتظر لنا بقدر كبير من احتياطى الامل والثقه ، وانه سيسوى مع الزمن كل الفرق الهائل بين الوجود التاريخى والاجتماعى لبلدينا .

وبعد ان تحدث الامير عن التجارة ، وبعد ان وعد بانه سيساعدنا على رواج بضائعنا ، بدأ الامير يستفسرنا بالتفصيل عن الوضع العالمى ، آخذا بلدا بعد بلد ، استعرض باهتمام الصور الفوتوجرافيه التى جلبناها ، وفى الاخير وجه مجموعة من الاسئله عن الوضع فى الاتحاد السوفيتى ، ونضطر ان نعيد له رواية وجهة نظرنا حول الاحداث فى الصين وجوهر الخلاف مع التروتسكية (لم يعرف هذه الكلمه بالطبع ، ونحن لم نعرف بسرعة ما الذى كان يقصده) ، يسأل حتى عن " قضية المنجم " ومصير المهندسين الالمان فى الوقت الذى لم نعرف فيه نحن الا فى الباخرة عن طريق اذاعة التقطت الصدفة بان قضية المنجم " قد بدأت "

وفى نهاية حديث سيف الاسلام - هذا هو اللقب الرسمى للامير - يقوم بمحاولة خطرة لمد جسر بين وجهتى نظرنا ، ويقرر قرابة الاسلام مع البلشفية ، والقرآن مع برنامج الحزب البلشفى .

- ان نبينا ايضا قد دعى لضرورة المساواه والاستخدام المشترك للارض وحرم الربا وعاش فقيرا ... اما نحن فقد ابتعدنا عن الدخول فى جدال عن المواضيع الدينية .

ثم تتبادل الاراء حول بعض القضايا الاخرى وينتهى الحديث ، يقول لنا بان السفر الى صنعاء مرتبط برغبتنا فقط ، علينا تحديد يوم السفر وسيقدم لنا كل وسائل الحركة مع حراسة ومرافقين . نعود بالكاد واصلين الى البيت ، ومرة اخرى نرتمى منهكين على الارائك والاسرة يبدو اليوم طويل للغاية لفيض الانطباعات ، نجلس للعشاء على ضوء مصباح الكروسين الباهت

الجاسوس المفضوح

... كل شىء يبدو جيدا ، لولا هذا المترجم الذى لا يطاق ، فؤاد المصرى يقعد معنا بلجاجة ، لا يبتعد عنا حتى اثناء العشاء ، يلح باسألته الوقحه بما فيه الكفاية يحاول ان يعرف كل ما تحدث به بعضنا البعض يعرض خدماته بالحاح فى البحث عن مقر دائم لشركتنا ، نحاول ان لا نعيره اهتمام ، لا نتحدقث معه لكنه يظل جالسا بثبات ، وباصرار حتى نبدأ بالتهيؤ للنوم .

ننام تحت هدير الامواج الذى لا يهدأ ، وتحت ملاطفة النسيم البحرى الذى يخفف انحباس الهواء الذى لا يطاق فى اليوم التالى ياتى امير الجيش قلقا ، يبلغنا نصيحة الامير بعدم التحدث مع احد حتى عن اصغر الاشياء الجدية ما خلاه ، الحديدة تعج بالناس المشبوهين ، فالمترجم فؤاد مثلا ليس مترجما للمحافظ على الاطلاق بل هو عامل جمرك ذى علاقات غامضة ، ماكاد ينهى كلامة ، حتى يدخل فؤاد الغرية مندفعا متهللا مختالا ، وعلى فمه ابتسامه راضية وكأننا معاريف معه قدماء انهال علينا ·

– اية ، ايها السادة ، بالنسبة للمقر ... فلقد وجدت لاجلكم مكان ...

يسقط نظرة على وجه امير الجيش القاسى الشبيه بالباشق ، فينكمش وينحنى ، يسمع الى كلمة ما قصيرة تجعلة ينكمش اكثر ، ويطير غير مكمل عبارته التى بدأها .

نعلم بعد بضعة ايام انه سرح من الخدمة ونفى الى جزيرة كمران المحتلة من قبل الانجليز ، لم يبقى لنا سوى التحسر على علبة الكافيار ، التى تقاسمناها معه من اختياطنا الضئيل ، وعلى فيضان المشاعر فى اليوم الاول ، وعلى كل حال فإن نفية لم ينقص سوى قطرة من بحر الدسائس الاجنبية التى تغمر اليمن الصغير ، وقد حدثنا بعض الشخصيات اليمنية فى صنعاء فى وقت متأخر :



فى الأذقه الخانقة بالحديدة

يوم ، واخر نتجول فى شوارع الحديدة ، نحاول التقاط نبرة وايقاع المدينة المجهوله .

شوارع ضيقة ، عتمه ، اختناق ورطوبة ، تحت السقائف القشيه والخشبية فى السوق ، بجانب الاكياس والسلالة ، يجلس ناس معممون انصاف عراة يلوحون باعياء بما يشبه المراوح اليدوية ، وفى الاكياس بصل وبطاطا ، تمر جاف مغطى بالعفن ، قشر البن ، دخن ، ذرة ، تجلب التمور من بلد الرافدين ، اما كل ما عداه فهو انتاج زراعى محلى .

فى صفوف الاقمشة ، - اقمشة هدية فخمة ، ديباج مخيط بالفضة ومطرز بالاحجار الملونه ، والي جانبها تسقط المتاع ، اقمشه يابانيه رخيصة من صنع شانخاى وتشكيلة من كل انواع الاقمشة هندية خفيفه والمانيه - ونمساوية وايطالية وانجليزية من صنع مانشستر ، وبالطبع توجد مصنوعات يمنيه خالصه مثل السجاد الخشن من الخيش ، الحواشى ذات اللون الابيض والاحمر اللون الاحمر الخالص تصنع من القطن المحلى وتصبغ باصباغ نباتيه محلية .

ومن البضائع الاجنبية التى تلفت النظر : الدقيق الهندى الابيض الذى يصنع منه خبزاً شهيا بأرغفه النشاء ، بدون طعم يجف خلال بضعة ساعات السكر من يافا وتشيكوسلوفاكيا ، الكروسين من كل الشركات : " ستاندارت اويل " ، " شل " وحتى " فيوميه " من ايطاليا ، كلها تتنافس مع بعضها البعض فى ازقه الحديدة الضيقه ، الكروسين الايطالى هو فى حقيقة الامر من مدينة " باتومى " السوفيتية لكنه مخفف فهو لا يصلح لشىء .

السوق

بائعو الخضار ، القشامون ، بائعوا البضائع الصغار - كلهم من العرب المحليين ، اما الاقمشة بشكل عام البضائع الاجنبيه فتيصرف بها الهنود غالبا ، هؤلاء الهنود - وعددهم يقارب المائة كلهم تقريبا من مواليد سرات ، تلك المنطقة الهندية ، التى عرفت بادىء ذى بدء فى تطور الصناعه الوطنية الهندية انهم من المسلمين وكلاء شركات بومباى وهم على ارتباط بها بواسطة فروع عدن ، لحى كثيفه عريضه ، اطواق على الرأس تجعلهم يتشبهون باليهود ، لكن هذا ليس سوى خداع للنظر ، تتركز التجاره الخارجية فى الحدييدة بايدى الهنود ، اما التجار

تنهق الحمير وترغى الجمال ، المعدمون يمدون ايديهم يطلبون الصدقه ، يظهر المجانين والبلهاء المنفردون هنا وهناك يصرخون بعبارات غير مفهومة ، تدق مكائن الخياطه ، يخشخش البن على المناجل والمذارى ، يتصبب العتالون السود عرقا ، ينقلون الاكياس من المخازن على الشاطىء ويشحنونها على الصنابيق ، وينقل مالكو القوارب الحمولة الى ظهور البواخر الراسية بعيدا عن الشاطىء .

فى المساء تضىء مصابيح الكروسين تحت العقود الضيقة لسقائف السوق ، يبدأ تلألأها بشكل اكثر غرابة واثارة لزخارف الاقمشة الهندية ، والاكياس الشوهاء لقشارة البن ، والطباق الطويلة لاوراق التبغ الجاف المفروشه على المناضد القذرة فى الدكاكين ، فترة الغسق قصيرة وسريعا ما تحل ظلمة حالكة ، تغلق الحوانيت ، تصر بوابات السوق الرئيسية المتداعية عند اغلاقها ، يظل الناس جالسين فى المقهى ، فى الساحة على مقاعد وسخه من القش ، والباعة ، العساكر ، الموظفون يظلون حتى ساعة متأخرة من الليل يدخنون النارجيلة ويشربون القهوة القشر او الماء البارد براحة الكف .

الى الشمال والى الشرق من السوق ، وخارج جدرانه معزول بخط عريض ، ليس بشارع وليس بارض خالية ، يمتد الحى " الصناعى " يسمى – سوق الهنود ، هذا السوق الذى يتميز بانه لا يوجد على ما يبدو فيه ولا هندى واحد ، يشبه " مدينة الصين " السوفيتيه ، التى نادرا ما تلتقى فيها بصينى واحد ، هناك ايضا سوق صغير لكن حوانيته اكثر بؤسا ، وفى اكثر اطرافه الاكواخ الصغيره من الطين والزجاج المكسر المغطاه بالقش ، ومحاطة بحواجز مجدوله من القش ، وفى هذه الاكواخ – الخيم تتكدس الصناعة اليمنية الجنينية بعمل النساجين البدائيين .

كلا ، ليست هذه معامل ؟ فوراء الحواجز لا توجد اعمدة الدخان ، ولا تسمع حتى دقات المغازل ، لكن يمكن رؤية شخصين نصف عاريين قاعدين على الارض يترامون بالتناوب بمكوك خشبى عبر صف من الخيوط المشدودة ، هكذا يتشكل النسيج الخشن بالتدريج ، ثم يصبغ فى المصابغ بطريقه يدوية باللونين الاحمر والازرق . ويسبت بضربات قوية من مداق خشبية غليظة غير منجرة ثم يفرش تحت الشمس . يمكن احصاء ما يقارب العشرين من هذه الاكواخ فى الحديدة ، وهذه هى جنين الصناعة الخفيفه لليمن . اما الصناعه " الثقيله " فهى ، فى القسم البحرى للحى الموجود خارج المدينة حيث يوجد كوخان او ثلاثة . تتقد النيران على الارض ، وفى المجمرة ، ينفخ على الفحم من قرب عبر انبوبتين (*) يجلس شخص القرفصاء يحاول

(*) – يقصد الكاتب كير الحدادة

مساعدة هذا " الفرن " البسيط باصلاح المسامير القديمة ، اللوالب ، ترميم الاشياء المعدنيه هكذا هى " المتالورجيا " المحليه .

السفن القديمة

وهناك ايضا - بناء السفن ، فى المكان الفحل من البحر يقف هيكل قارب وحيد لم يكتمل بناؤه ، وبجانبه يتحرك مجموعه اشخاص يدفون الالواح ، يثبتون الدفه ، وبالقرب - عصى والواح واخشاب ، خمسة او ستة قوارب تتراقص على الامواج ، وبجانبها عشرة صيادين شبكة الصيد ، وعلى الرمل يجلس عجوز عارى يرمم شبكة قديمة ، هذه - صناعة السفن المحلية واستخراج السمك ايضا .

الساحل - هو افضل جزء فى المدينة ، مهواء بنسيم البحر ، هنا تقع افضل المنازل ، وان لم تكن فخمه فهو مع ذلك الاكثر اعتبارا ، بهجة تطل على البحر وهنا توزعت كل الشركات الاجنبيه تقريبا : شركتان او ثلاث شركات ايطالية ، وشركة يونانية ، وشركة مصرية ، وشركة فونسية يمثلها احد السوريين ، الذى حافظ غريزيا على اليافطه القديمه لشركة سفن فرنسيه ، تلك الشركة ، التى لم تعبر الحديده ولا واحده من سفنها منذ زمن طويل ، يهدف نشاط هذه الشركات الى شراء البن وتصديرة الى الخارج بشكل رئيسى ، وخدمة البواخر الاجنبية التى تمر فى الميناء ، هكذا ينمو رأس المال الاجنبى ، الذى لا يجد اصل فى اليمن ، لكن حتى هذه الشركات فانها على ما يبدو فى طريقها الى الاندثار ، نظرة سريعة واحده تقول لنا بأن التصور القائم حول التأثير الايطالى القوى فى اليمن ، هو من صنع الايطاليين انفسهم بشكل رئيسى ، وقد تعزز هذا الانطباع بعد حصولنا على الاحصائيات الجمركيه فى الحديدة .

رأس المال الأجنبى

واذا تحدثنا عن دور راس المال الاجنبى فى اليمن ، فانه يجب وضع التجار الهنود الذين سبق ذكرهم فى المرتبه الاولى ، انهم حملة التوسع التجارى - الصناعى الهندى ، الذى لم يجد امكانية للتطور فى بلده المستعمر ، بسبب كبته بالاضطهاد الامبريالى الانجليزى ، يقتدون بمثالهم الرأسمال الصينى ، الذى يهرب من الصين الى جزر زوند ، وسيام والهند الصينية ، وهكذا فان الهنود يرحلون الى اليمن ، والمصريون الى الحجاز ، يزاحمون فى قاعدتهم

الوطنية ، من قبل الامبرياليين الاجانب ، فيسعون الى ان يعوضوا انفسهم على حساب الشعوب الاكثر ضعفا .

تبرز المحطه التجاريه للبن ، بين المشاريع العربيه التى ترمز الى نمو الراسماليه الوطنية اليمنية ، تلك المحطه الواقعه على الرصيف ويملكها عمر المزجاجى اكبر مصدرى البن ، كما يشاهد " فندق " حكومى للضيوف الاقل الاكثر وجاهة .

اخيرا فان اجمل بيت و هو بيت المحافظ ، الذى اسكنونا فى احد طوابقه كعلامه تشريف خاصة هذه المرة ، هذه البيوت ذات طراز واحد : ثلاثة او اربعة طوابق بيضاء ، تكعيبات مختلفه من النوافذ ، سقف غالبا ما يكون مقسما الى غرف تغطيها السماء بدلا من السقف ، التقسيم المعتاد للبيت – تكون الغرف المأهولة بالسكان فى الطوابق العليا ، والمخازن ومساكن الخدم والحرس والمكاتب فى الطوابق السفلى ، ولكل بيت فناء داخلى ، ويشكل سور البيت ، شرفات داخليه وسلالم متعرجة ، ومن ضمن المنازل الموجودة في الساحل – بناية خشببية صغيرة والى جانبها مقهى – ادارة الميناء وفيها مركز نشاط مدير الشرطه ، الذى يقوم بالمحاكمة والقمع فى الحال ، هو الذى يستجوب المتهمين ويعاقبهم بيده ، اما بالسوط ، او بقبضته وذلك حسب الظروف ، بدون بيروقراطيه او مماطلة ، زد على ذلك يتم بوجود رقابه "رقابة جماهيرية " . كل شىء يتم امام اعين الجمهور المتجمع عند الرصيف .

وعلى جهتى الحديدة ، الى الشمال والجنوب منها قلاع صغيره مسقوفه ، وابراج وحاميتان : – هذه القلاع – للدفاع عن المدينه من القبائل الغير مأمونة المحيطه بها : يختفى النمط العسكرى فى الحديدة صباحا ، وذلك بانتعاش تجارة السوق ، اما فى المساء ، حين يهدأ السوق ويخرج العس الى الشوارع يحرسون مداخل ومخارج المدينة ، فان النظام العسكرى يلمس بكل اكتماله .

يسرع الساهرون الى بيوتهم تحت صرخات العسكر ، اما عابرى السبيل المتأخرين ، فلا يسمح لهم بدخول المدينه الا بعد مباحثات وتوضيحات مطوله .

وحتى الصباح يذكر العسكر بانفسهم ، باقامة السير النظامى فى الاعياد فى الساحة وبعد الصلاة فى المسجد وهذا تقليد باهت للاتراك ، وكذلك مرتين كل يوم بعد انتهاء ساعات القات وبعد غروب الشمس ، تنتظم جوقه نحاسية امام البيت الذى يسكن فيه الامير ، وفى تلك اللحظة تدوى باصوات حادة ثاقبة بالمارشات العسكرية التركية ، خارقة بذلك السكينة الناعسه للازقة .

وعند الفجر فقط ، حين تغطس مجموعة من القامات العارية التى تستحم منفردة فى مياه الامواج ، حين تقلع صنابيق الصيادين من الشاطىء ويصبح برميل الماء الذى ينقله الجمل فى الشارع متوقفا عند كل بوابة - يذهب العسس وتبدأ الحياة الطبيعية فى الغليان .



الباب السابع

* ليلة ضائعة فى تهامة
* على سيارة إلى باجل
* الفئران الطائرة
* الرهينة
* جيكوب



ليلة ضائعة فى تهامة

نتجهز ، نتفرق إلى مجموعتين ، اثنان يذهبان إلى صنعاء واثنان يبقيان فى الحديدة . الأشياء قد حزمت على الجمل - الذى سيسبقنا بنصف نهار ، الجمال تسير ابطء من البغال لكنها أكثر انتظامانستعد للرحيل على البغال ، تفرد لنا حراسة بأمر من سيف الإسلام ما يقارب درزينة من العسكر تحت امرة شاويش ، فى المغرب نقوم بزيارة وداع للأمير ، ونستمع منه إلى نصائح قصيرة حول كيف ومع من نتحدث فى صنعاء ، نتحرك برفقة حرس المشاة ببنادقهم المعلقة على اكتافهم ، يخرج معنا رتل من المودعين إلى خارج حدود المدينة ، يطوير العسكر الواحد بعد الآخر ، يبتعد المودعون ، ها هى البغال تسير بانتظام تتناوب ارجلها غير المنعلة لتحملنا على السطح المظلم .

تبتعد واجهات البيوت البيضاء عميقا ، يخف لمعان البحر ، تترامى المساجد ومراكز الحراسة ، واكواخ مشارف المدينة ، بضعة نخيل ، وها هو التبخر الخانق للسهل الرطب يلفنا . لا شىء فى الامام ما عدا اشباح التلال الرملية ، نشاهد اكمة الحسك على الجوانب ، وبالكاد نلحظ خطوط الطريق الضائعة فى الرمال ، ومن بعيد نسمح نباح كلاب البدو التى تحرس قطعان الجمال المتجولة التى يلفها الظلام الدامس .

يرفع العسكر اصواتهم بأغنية ذات نمط واحد وهم سائرون ، تلك الاغنية التى يبدو ان لا احد يفهم كلماتها ، بل وليس معروف ان كانت هناك كلمات ، يمكن فهم كلمة " الله " فقط فى بلبلة الاصوات الحجرية المبهمة ، الصحراء صامتة بحذر تضمنا فى ممساكها الخانق الساخن ، تبدو فى السماء نجيمات اربع موزعة على شكل صليب صحيح قريبة من الافق الجنوبى ، تؤكد مجموعة النجوم " الصليب الجنوبى " مرة اخرى اننا لسنا بعيدين عن خط الاستواء ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من الاراضى السوفيتية لسنا اول بلاشفة فقط ، بل واول روس يسيرون فى مجاهل هذا البلد الذى يبدو بشوشا مضيافا والذى لم يرانا ولم نراه .

على سيارة إلى باجل

يهدأ نباح الكلاب البدوية قليلا قليلا ، يلتحق " الصليب الجنوبى " بالسحب ، ثم تغطى كل السماء بالسحب ، فى هذه الظلمة ، حيث تسمع نبضات القلب وتحس بتوتر اعصاب الصدغ ، وبحدة متميزة نشعر بأنفسنا شرارات الثورة العالمية التى تطايرت حتى إلى هنا ، إلى البعد السحيق للصحارى العربية الجنوبية .

نسير ساعة ، ساعة أخرى وثالثة ، وفى الظلام تترأى ملامح آبار الماء ، حفر كبيرة عليها حائط من الطين ، يملىء العسكر الزمزميات ، يشربون الماء بشراهة ويقترحون ان نعمل مثلهم ، تمتد الايدى بلا ارادة لعلبة الصفيح المغرية والممدودة بكل تكرم ، لكن فكرة احتمال ان يكون هناك ، فى قعر البئر هيكل عظمى لجمل ، (ومثل هذه الحادثة ليست نادرة) يمنع الشفاه الجافة من المياه الوسخة العكرة رغم اغرائها ، نتحرك ، تضيق الممرات وكأنها قد اختفت كلياً ، تبدأ البغال الخطو على الرمال اليابسة مخترقة الشجيرات الشوكية احياناً ، نبدأ التخوف من ان نكون قد اخطأنا الطريق ، لكن هل يمكن الشك بـ " ابناء الصحراء " فى معرفتهم طريق الحديدة - صنعاء ؟ نتذكر الحكايات عن مقدرة البدو على معرفة الاتجاه بواسطة الحشائش ، النجوم ، هبوب الرياح واثار الحوافز ، يبدو ان الشك فى امانة قيادتهم نوع من التجديف ، يعدونا بالتوقف بعد ساعتين ام ثلاثة ساعات ، فى قرية تمنه الصغيرة ، التى تقع فى منتصف الطريق بين الحديدة ومركز باجل الكبير ، يوجد فى تمنه اسرة ، ماء ، قهوة القشر الساخنة ، هناك تنتظرنا فترة استراحة طالما اشتقنا لها ، وبالفعل سرعان ما ظهرت اضواء بعيدة .

تحث البغال الخطى سائرة خائرة فى بعض الاحيان ، يوضح لنا العسكر بان تمنه ترى فى الامام نشد على اسناننا بقوة لكبح الانهاك اللامحدود من الارتجاجات والحر والعطش والكتمة والرشح نشعر بأنفسنا كبيض غسلت ضربا بالعصا ، وان كانت قد سيطرت فكرة اننا قد قطعنا المرحلة الاولى من الطريق تقريباً (وبعد زمن عرفنا ماذا تعنى كلمة " تقريباً " فى اليمن) . تشتد العضلات والاعصاب وكأنها صوملة فولاذية مخفية ، فالاضواء رغم انها بعيدة لكننا نراها فى الامام ، ينبسط التموج المتحدب للسهل البعيد ولاجمات الاشجار (كالسلك) والاماكن العارية الجدباء واحجار الملح المتبخرة تصير الاضواء اكثر فأكثر اغراءا ها هى الحزم الضوئية تتلألأعن قرب وكأنها صادرة عن كشاف ضوئى احترنا ، من اين مثل هذه الاضواء الساطعة فى قرية بدوية نائية لا توجد فى أية خريطة أوربية .

الاضواء اكثر فأكثر سطوعا ، ولم يبقى للوصول إلى القرية سوى نصف ساعة من الطريق ، وفجأة يقطع العسكر اشارة التوقف للراحة ، سنستلقى على الأرض التى لم تبرد بعد من قيظ الشمس ، نحلم باننا سننام قريباً على اسرة من الحبال المفتولة ، وقرب الصباح سنكون قد وصلنا الى باجل التى تقع ورائها الجبال الباردة ، منابع الماء البارد وصنعاء المشتهاة .

لكن العساكر يتهامسون فيما بينهم طويلاً وبشكل مثير للريبة ، يقترب رفيقى منهم ، يقولون له : امامنا الحديدة ... انذهب اليها ام نرجع مرة اخرى الى السهل ؟

يتضح فعلا باننا قد اخطأنا الطريق ، وذلك لان العسكر فى بحثهم عن طريق مختزلة ، التبس عليهم الامر ، وبعد ان قطعنا خطا منحنيا فى الصحراء الى حيث انطلقنا ، ولم نفهم خطانا الا ونحن على مقربة من اسوار الحديدة ، حيث كنا قد رحلنا منها قبل اربع أو خمس ساعات ، تائهون سدى فى قيظ تهامة المضنى .

ان موجة الغضب التى اجتاحتنا امام هذه الحقيقة القاسية والواضحة غير قابلة للنقل او التعبير وما كان يمنعنا من ابداء مشاعرنا إلا ادركنا لمهمتنا السامية ، وتخوفنا من أن تكون بعض الكلمات الروسية معروفة حتى لأبناء الصحراء ، فتسىء لسمعتنا .

لقد كان طلب توضيحات من العسكر أمر زائد عن اللزوم ، وعلى كل حال ، فإنهم كانوا قد ردوا على كل هذا بجواب مفحم : " هذه مشيئة الله " . حتى أن مجرد التنفيس وافراغ ما فى النفس كان صعبا وكان العتاب واللوم ممنوعا ، وذلك لأن دليلنا كان منتهك القوى ومملوء بحالة احباط واستسلام نفسى ، كما أن ذخيرتى من اللغة لا تتعدى كلمات · " جيب ماء " ، " الحمد لله " ، وكذلك " السلام عليكم " و " بخشيش " . وكل هذه الكلمات لا تصلح لهذه اللحظة أو للغرض الان ، فالماء قد انتهى عند العسكر ، وشكر الله أقل ما يناسب الظرف ، ولا يوجد أحد لنسلم عليه ، ويبقى فقط مغاقبة العسكر بحرمانهم من " البخشيش " ، تعزية خفيفة لضياع أيام ، وليلة ضاعت سدى بدون نوم .

– أمر جيد بأننا رجعنا إلى الحديدة ، أما لو كان سيرنا يمينا إلى الجنوب ، لـ " وقعنا مباشرة فى يد الزرانيق " .

والزرانيق – هى قبيلة تقع على مسافة خمسة عشر أو عشرين كيلومترا إلى الجنوب من الحديدة ، وقد انتفضت على الامام بتحريض من الخارج ، ولو وقعنا فى قبضتهم ، فإن عساكر الامام كانوا سيقتلون بلا شك ، أما نحن ضيوف الامام فكانواسيحطمون عظامنا أو ربما شىء أخر ، ونضطر لأن يكون هذا عزاؤنا .

ندخل إلى شوارع الحديدة الخالية ببطىء مرهقين ومشعثين ، ينادى علينا الحرس انصاف النائمين ، ويستمعون حائرين لشرح عسكرنا ، نصل إلى البيت نتهالك فى غرفنا (غضب رفاقنا الذين بقوا فى الحديدة بفتور وقد كانوا نائمين) وشرب كل واحد منا – وهذا ارعبهم أكثر – سبع أو ثمان من قوارير المياه المعدنية . ثم نرقد بعد ذلك ونحن فى غاية

الاعياء بعد أن حصلنا من الشاويش على وعد بان المحافظ سيسعى فى الصباح لتجهيزنا بسيارة ، ننام وملىء اذاننا المثل القائل " ثق بنفسك فقط ، ولا تثق حتى بالعربى فى الصحراء " . (١)

نفذ سيف الاسلام وعده ، وتتخذ اجراءات ما بطولية لتجهيز السيارة ، وفى الساعة العاشرة تقريباً من اليوم التالى ، نرحل على سيارة غريبة الشكل تنهب الصحراء تحت شمس الظهيرة المنصهر (إلى بأجل) ، ومع ذلك فى خلال ثلاث – أربع ساعات .

والسيارة التى أعطيت لنا هى عبارة عن سيارة نقل بسقف مركب ، ومثبت بداخلها مقاعد خشبية مليئة بصفائح الماء ، الذى يجب أن يصب على المحرك المكشوف الساخن كل خمسة عشر أو عشرين دقيقة .

وهـذا العمـل يشـد الصـوملة فتندفع سحب البخار ، الذى يفح ، فيصب عليه المـاء مـن الصـفيحة فـوراً السـائق سـودانى شـأنه شـأن أغلبية العمال التقنيين فى الحجـاز واليمن . يتطلب الأمر الخروج من السـيارة أكثر من مرة ودفعها بجهـود مشـتركة تنتشـلها من الرمال الحارقة .

تكون الطريق فى البداية محاذية لشاطىء البحر ، نشاهد فى البعيد تقاسيم شبه جزيرة ونخل متمايل ، لقد نوى الفرنسيون قبل الحرب مد سكة حديد من شبه جزيرة رأس الكثيب إلى صنعاء وقد بقيت فى الحديدة قاعدات عربات صدئه مرمية هنا وهناك كذكرى لتلك الطريق ، وبعد نصف ساعة نلف إلى الشرق مباشرة ، قاصدين أشباح الجبال البعيدة البادية فى الأفق ، نقطع تهامة ، تاركين إلى اليسار الطريق الشمالى لليمن تلك الطريق التى تؤدى إلى مناجم الملح الحجرى فى الصليف وإلى ميناء اللحية والميدى .

تهامة – هكذا يسمى القسم البحرى من اليمن والممتد من الشمال حتى الجنوب من حدود البلاد ونقيض تهامة فهى الجبال ، ويضم القسم الجبلى من اليمن الجزء المركزى والأساسى فى

---

(١) هذا المثل غير صحيح ، حتى فى هذه الحالة ، فالقضية تكمن فى أن مرافقينا من العسكر كانوا من سكان الجبال ولهم فترة قليلة فى تهامة . وتحت تاثير الجهل الاوربى فقط يمكن احتساب كل العرب " ابناء الصحراء " وبدو الصحراء هم من البدو الرحل فقط ، اما ما يتعلق بالفرق بين الجبل وتهامة فيمكن أن يشهد على ذلك حتى تقسيم الجمال فى اليمن إلى جمال جبلية وجمال صحراوية والفرق يشير إلى كيف يكون الجمل فى الصحراء أو العكس . (المؤلف) .

البلاد . أما القسم الثالث – فهو ما وراء الجبال الذى يمر عبر الصحراء وهو قسم معزول نادرا ما يكون مأهولا بالسكان وأهميته ثانوية .

وتهامة فى قسمها الملاصق للبحر مباشرة هى عبارة عن سهل فسيح ، من قعر البحر المتبخر بتلاله المتجمدة الشبيهة بالأمواج ، وأشجار الساكسول النادرة على قمم التلال ، ونادرا ما تخرق سيول المياه هذه الأرض القاحلة ، وواحات من بعض نخيل غير مثمر أو قطعان النعاج والجمال التى ترعى ، يصادف فى الطريق بعض المسافرين المنفردين على بغال أو على الحمير ، قوافل من عشرين جمل تحمل أكياس البن ، وفى النادر يترأى شبح غزال رشيق أو أرنب يركض فزعاً من هدير السيارة ، وهكذا نمر على نمنة ، التى اتضح أنها قرية تتألف من أربعة أو خمسة أكواخ من القش ، متجمعة حول بئر صغيرة ، والمساء المشتهى لم يعد الآن ضرورياً ، لذا فنحن نسير بلا توقف ، ووراء تمنة تبدأ المنطقة بالانتعاش تصير الجبال أكثر وضوحا ، ولم تعد الرطوبة البحرية الخانقة ملموسة ، ونشاهد قرى كبيرة فيها من أربعين – إلى خمسين كوخ أو أكثر ، ويحيط الأطفال السمر الصغار بسيارتنا جماعات حين نتوقف لصب الماء فى المحرك ، نرى حقول الذرة والشعير ، بدأنا نصادف سيقان الاثل المعوجة ، كانت هذه الاشجار فى البداية منفردة ، ثم أصبحت بأعداد كثيرة ، مبعثرة فى السهل ، كالجنود فى شتى الاتجاهات ، كنا نعبر أحياناً مجرى نهر قد جف وتحجر ، يجرى فيه سيل صاخب فى وقت نزول الامطار ، لكنه يجف مرة أخرى بعد بضع ساعات ، ها هى الجبال تصبح قريبة جداً ، نجتاز أول مجموعة منها ، نقترب من باجل .

أصبح أصعب قسم من تهامة وأكثرها كآبة فى الخلف .

الانطباعات عن هذا القسم ليست مسرة للغاية ، من الواضح أن هناك سكان حضر ، ولا يوجد هناك رحل تقريبا ، توجد هنا زراعة المحصولات – كل هذا يشكل عوامل تفوق على الخلفية العربية العامة الكئيبة ، ويميز هذا تفوق تهامة على الحجاز .

ومع هذا كله ، كم هو بعيد حتى عن مفهوم " العربية السعيدة " كما اعتبرها الرومان القدماء . ان كل ما نراه من المساحات ليس أكثر من سهل ذاو وشحيح تحرقه شمس حارة خانقة . يعتبر هذا القسم أكثر أقسام اليمن تخلفا اجتماعيا ، فالتقسيم القبلى يلمس هنا بكل حدة ، تقبع الاقطاعية فى أول مراحلها ، وبالكاد تتفقس قشرة العلاقات البطريركية – العسكرية والقبلية ، والشعور بالقومية العربية ضعيف هنا ليس بحكم الاسباب الاجتماعية المذكورة فقط ، بل وبحكم العوامل الاتنوجرافية أيضاً . يلاحظ على السكان اختلاطهم بالدم الافريقى ،

ويلاحظ تأثير افريقيا على الشكل العرقى ، ويؤكد ذلك اللون الشديد السمرة للبشرة ، الوجوه العضلية بالشفاه الغليظة . أن الغزاة الأحباش ، قد كانوا أول من أيقظ الوعى القومى عند العرب ، كما قال ماركس فى زمانه (بالاصح سكان جبال اليمن) ، لكن الاحباش كما هو واضح قد تركوا آثارهم الاتنوجرافية على شكل المبانى المهدمة فى الجبال ، وعلى الجنس أو العرق التهامى فى الساحل ، ان هذا التفرد الاجتماعى والاتنوجرافى لتهامة يجد تعبيره فى الدين : كل القبائل سنية فى تهامة ، فى حين ينتمى سكان الجبال إلى المذهب نصف الشيعى - الزيدية فى نفس الوقت ، وكانت حصيلة هذه الخصائص بالاضافة إلى عوامل كثيرة أخرى ذات صفة اقتصادية (سنتحدث عنها فيما بعد) قد أدت إلى ثنائية معينة فى تركيب اليمن ، فقد لعبت تهامة دورا ملتبسا بما فيه الكفاية فى قضية توحيد اليمن ، لقد عملت الامبريالية كل ما فى وسعها لاقتطاع تهامة من اليمن ، وفى عام ١٩٢٥ انضمت تهامة تحت لواء الحكومة اليمنية فقط ، كانت تهامة خاضعة للانجليز فى أوائل اعوام ما بعد الحرب ، وبعدها خضعت للامير الادريس امير عسير ، لقد لعب الانجليز بمهارة على الاختلافات الدينية بين سكان تهامة وسكان الجبال ، وقد سعوا بكل الطرق لتأليبهم بعضا على بعض ، وهما فرعان لشعب واحد ، ضمت تهامة الى الى اليمن فى عام ١٩٢٥ فقط ، وقد تم هذا بمساعدة جيش الامام يحيى ، حيث لم يبقى للانجليز بعدها سوى مساندة ودعم التمردات الانفصالية لقبيلة الزرانيق ، الذين كدنا أن نقع فى قبضتهم ليلا .

ندخل باجل ، على اليمين ، فوق المدينة ، يطل جبل مرتفع ، نرى على قمته لون أسود أسنان قلعة قديمة ، تتكون القرية من أكواخ كثيرة مخروطية الشكل مغطاة بالقش ، محاطة بسياج من الاغصان المجدولة موجات غبار جديدة تلفنا ، حين نقطع الازقة الضيقة التى تنعدم فيها الرياح ، نشاهد السياج ، الدجاج ، الصبية ، الجمال المحملة ، الحمير ، تختبىء النساء بعجلة وراء أبواب الاكواخ ، ندخل الساحة الرئيسية ، نتوقف أمام بوابات مبنى ضخم يشبه قلعة بفناء داخلى وابراج فى الزوايا ، نشاهد بئرا فى الفناء وجمال تستريح ، هذا مقر عامل المنطقة ، وسرعان ما نسمع تحية شيخ ضخم أشيب اللحية ، إنه العامل ، نمر من غرفة الى غرفة حتى نصل الى غرفة الأكل ، حيث يجلسوننا على مائدة طعام أعدت سلفا ، نأكل شيئا ما ، إلا أنه بسبب الحر ، والتعب ، والارق لا يمر الطعام فى الفم إلا بصعوبة .

ننتظر الكاد نهاية الغداء ، نودع مضيفينا ، الذين يذهبون لمضجع القات ، يقودوننا الى مسكن بجانب بيت العامل ، لكى نرتاح بينما يصل الجمل المتأخر مع العفش .

نتوزع على القسم المستوى ، المغطى قسم منه بسقيفة من القش المفتول والمعمول على شكل غرفة ، عملت الاسرة وكأنها { مضجع بروكروستومى] ، كلها بطول واحد بلا إستثناء ،

تنقص الدبع عن قاماتنا تقريبا ، نضطر الى الاضطجاع إما مطويين أو معلقين أقدامنا ، ننام نوما ثقيلا كأهل الكهف .

الفئران الطائرة

نصحو خلال ثلاث ساعات ، يهب القيظ المتناقص لليوم الاول من النافذة ، نسمع صأصأة فوق رؤوسنا بين العوارض الخشبية للسقف تصيح الفئران الطائرة ، تزحف صغار الفئران على الفرمات الخشبية عاجزة أمام ضوء النهار الذى لم ينطفىء بعد ، بينما يوصوص أخرون قابعين فى أعشابهم ، أعشاشهم ، تقع الام المستثارة من أصوات الرعب من على العارضة الخشبية مندفعة فى الغرفة من زاوية إلى زاوية ، اندهشنا من عدم حب العرب للنظافة ، والذين يسمحون للفئران بالتكاثر على سقف بيت العامل ، وتدهشنا انسانيتهم المتفردة ، فى عدم الرغبة فى هدم العش وقتل الحيوانات ، ونسمع فيما بعد ان اليمنيين ، لا يحبون الصيد ، رغم انهم رماة ماهرين ، بغض النظر عن توفر الطرائد فى شعاب الجبال .

الرهينة

تسمع ضجيج ما فى الشـارع ، الشارع الواسع المترب على خلفية من المساجد البعيدة ، والأكواخ المخروطية الشكل من القش تتحرك مجموعة من الصبية المراهقين ، تحت حراسة مجموعة من العسكر الحاملين البنادق على اكتافهم ، تضج المجموعة بغير انتظام ، وجوه منتعشة جذابة ، لا تعطى انطباعا بأنهم مجرمون ، وأكثر من ذلك أنهم لابسون ملابس بشكل لا بأس به ، يعبر عدم اكتراثهم النسبى ، عن أن وضعهم تحت المراقبة أمر اعتادوا عليه وصار مسألة طبيعية بالنسبة لهم ، يوضحون لنا أن هؤلاء هم رهائن قبيلة الزرانيق المجاورة ، وأنهم أولاد أو أقارب الشخصيات المؤثرة غير المضمونة من قبائل تهامة ، لقد أخذ هؤلاء الرهائن من قبل الحكومة كضمانة بأن قبائلهم وعشائرهم لن تقوم بعصيان ضد الامام ، وعكس ذلك يعنى أن تطير رؤوس هؤلاء الرهائن ، يعتبر نظام الرهائن هذا واحداً من أحجار الزاوية لنظام الامام ، هكذا تسعى السلطة المركزية بفضله إلى اخضاع القبائل التهامية غير المنصاعة لها بشكل كامل ، هذا الشكل الفريد للارهاب ، تقوم به الدولة الاقطاعية الفتية فى اليمن ، ساعية لتوطيد كيانها ضد الانتفاضات الانقسامية وسيف التدخل الاجنبى المسلط دوما .

تساق مجموعة الرهائن غير المنتظمة بالغناء والصراخ وكأنها قطيع ذاهب إلى الحظيرة ، تساق عبر البوابات المفتوحة للبناية ، ثم إلى ملجأ المبيت .

تسمع أصوات المزمار الحادة ، والغناء غير المنتظم للاصوات المتعددة للمجوعة ، نتسلق حاجز السقف فنرى ...

العامل الشائب اللحية فى عمامة بيضاء ممتطيا جوادا رشيقا ، وحوله صف من الجنود يرددون نشيدا دينيا ما ، يمدح الله ورسوله والامام ، ينتهى النشيد بعد بضعة دقائق ، ويتحرك العامل بهيبته إلى الامام ، يحيط به جمهور مختلط ، يذهب للمبيت فى الجبل فى القلعة ، فهناك أكثر برودة وأكثر أمان اقترح علينا الذهاب إلى هناك للمبيت ، لكننا عزمنا على التحرك قدما وبدون ابطاء بعد وصول جملنا ، ولهذا اعتذرنا شاكرين .

من جديد تسدل الظلمة الوحشية الحالكة ، يهدأ نهيق الحمير المطوط ، ورغى الجمال الغليظة ، ثغاء ومأمأة الشاة والماعز والمساقة إلى الحظيرة ، لا شىء يرى ، فقط اشباح تلوح مبهمة بلونها الأسود من كل الجهات .

نتحدث مع اثنين - ثلاثة من الضباط ، الذين استقبلونا مع العامل ، يسألوننا عن البضائع الروسية ، عن نوعيتها ، عن ميعاد وصول الدفعة الثانية منها ، يطلبون نماذج ، لكنه بالطبع ليس لدينا منها شىء ، وذلك لأن مؤسساتنا التجارية لم تولى اهتماما لتجهيزنا بأى نماذج دعائية ، ننتقل بعدها إلى المواضيع السياسية ، نعلم أنه وصل طبيب ايطالى من الحديدة إلى صنعاء فى اليوم الأول ، ويعتبر هذا الطبيب عملياً ممثل ايطالياً فى اليمن ، والطبيب على ما يبدو يسعى لاستباقنا ، وهذا ما سيتم له بالطبع ، وذلك لأنه قد وصل بالسيارة إلى مسافة أبعد من المسافة التى توقفنا فيها ، وفى الوقت الذى سنرحل فيه نحن من باجل على البغال ، وبعد ذلك يتذكر محدثنا :

- احتجزنا فى هذا المبنى فى الاسر بعثة جيكوب الانجليزية قبل تسعة أعوام .

جيكوب

- جيكوب - انجليزى متخصص باليمن ، وانجلترا لها دروس فى كل الدراما العربية ، كأنها ممثل متخصص ، يسمح له باقامة أية حوارات ممكنة ، حتى الخروج على حكومته ، ومع ذلك لا تفقد العلاقة مع البلد العربى الذى يخدم فيها هذا الممثل فقط ، كان يوجد مثل هؤلاء

الخبراء الانجليز لدى كل الملوك العرب : هكذا كان لورانس فى فترة الشريف حسين ، وفيلبى فى حكم ابن سعود ، وكان جيكوب يحوم حول الامام يحى ، كان تقدم وارتقاء الشريف حسين اثناء الحرب العالمية قد صنع شهرة عالمية للورانس ، وحين ازيح الشريف حسين وجد لورانس نفسه خارج الحلبة ، انتصر ابن سعود ، فإذا بفيلبى هو المطلع والنشيط ، ينام على اكاليل الغار ، نتيجة لنفوذه ، وسمعته التى توطدت ، جيكوب فقط لم يجد لنفسه مستقر ، لقد ذهب جيكوب فى عام ١٩١٩ إلى رأس بعثة انجليزية كبيرة ليقوم بالمباحثات مع الامام يحيى ، لكنه فى باجل يجد نفسه اسيرا عاجزا من قبل القبائل الناشزة التى قررت عدم السماح له بالدخول إلى العاصمة اليمنية ، فى نفس هذا المبنى ، الذى نحن فيه ضيوفاً ، نتحادث بوئام مع نفس اولئك الضباط العرب الذين قاموا بحجز (جيكوب) الذين ظلوا اسرى عدة أشهر فى ساحة السقف ، وكأنهم حيوانات متوحشة فى اقفاص ، ظلوا يجولون ابناء أقوى دولة فى العالم ، انهالت البرقيات المتوعدة من لندن إلى عدن ، وضغطت عدن على الحديدة وصنعاء ملحة على أن يقوم الإمام بالتأثير على القبائل المتمردة ، تطرزت الجرائد العربية المصرية بالرسومات الكاريكاتورية عن " الطيور المصطادة " كما سمى الاسرى الانجليز ، حلقت الطائرات الانجليزية فوق باجل ، لكن الرجال حينها كانوا يلاصقون جيكوب واعضاء بعثته ، وقد اعطيت الأوامر إلى هؤلاء الرجال باطلاق النار على الأسرى إذا رمت الطائرات الانجليزية بقنابلها ، ولهذا لم ترم الطائرات الانجليزية بالقنابل ، وبعد مماطلات طويلة اطلق سراح جيكوب ، وعاد إلى عدن خائباً مهانا صفر اليدين .

مرت الأيام ، نمى اليمن وتقوى ، وخرجت القوات الانجليزية من الحديدة ، بعد اقتناعها بأن الاحتفاظ بقطعة من تهامة ، معرضة فى نفس الوقت لوخز الدبابيس المستمر من قبل القبائل المتاخمة لها والدافعة عنها ، وأنه أمر يفوق طاقتها .

خرجوا ، وأعطوا تهامة للادريس أمير عسير .

لكن الاخير خيب أمالهم ، حيث كان مضطرا تحت ضغط القبائل الجبلية المناصرة للامام ، إلى ترك باجل فى البداية ثم الحديدة بعد ذلك ، واجتاح السيل العارم بالطاقة التى ايقظت بها المناطق الجبلية ، وانطلق رجال الجبال الرث المنهمكون من مكوثهم القانط فى الجبال ، فضغطوا بالحصار نحو الشواطىء البحرية ، نحو العلاقة مع العالم عبر الحديدة نصف المحطمة ، والتى صارت نافذة اليمن إلى أوربا ، وسقطت سلطة أمير عسير بخزى ، واضطر إلى الاختباء عجلا قرب حدود الحجاز وفى اطار امارته الصغيرة العازلة .

وهاهو الآن فى عام ١٩٢٨ يصل جيكوب نفسه إلى اليمن الجديد ، الذى صار أقوى ، وصل جيكوب قبلنا بقليل ، وفى هذه المرة يمثل دورا رسمياً متواضعاً ، وبرفقته سكرتير - مترجم وحيدا ، وبعد أن مكث شهرين ، ولم يصل إلى أى اتفاق مع الامام ، رحل قافلا ، قبل بضعة أيام من وصولنا فقط ، وخلال تواجده فى صنعاء كان مقاطعا منسيا ، بدأت الغارات الانجليزية من عدن ترمى بالقنابل على المناطق الحدودية الآهلة بالسكان ، تهدف بذلك إلى تعزيز هيبة مبعوثهم ، ولم يفد هذا بشىء مرة أخرى ، ويتحتم على جيكوب من جديد أن يرحل خالى الوفاض ، تحت اناشيد صبيان صنعاء الذين لا يطاقون ، يصرخون بهيجان واحتداد كل مرة يظهر فيها :

- الكلب يسير ، ابيض ، كلب نصرانى !

لكننا نعرف كل هذا فى وقت متأخر ، أما الآن فنحن متكئون على الاسرة المفتولة نرتشف الشاهى ذى الطعم المالح ، نصغى إلى الحديث المنسق الهادىء من ندمائنا ، مرهفين السمع فى نفس الوقت لسكون الليل ، حيث ننتظر الجمل المتأخر .

ها هو الجمل قد وصل ، نسرع فى الظلمة الموحشة لما قبل الفجر للتحرك قدما ، نستفيد من برودة الليل .

اضواء الفوانيس المتمايلة ، الايدى المدودة المتزاحمة لاخذ " البخشيش " - ثم نبتعد راكبين لمواجهة اشباح الجبال تاركين ورائنا اكواخ باجل المخروطية الشكل ، نمضى فى غبش الفجر ، نرى جذوع أشجار الاثل المتناثرة بين حقول الذرة الشامية ، نبدأ بالاقتراب قليلاً قليلاً من سلسلة الجبال الضخمة ، التى تطبق على مساحة واسعة من السهل .

ينبلج ، يبرز أمامنا سفط حجرى يتألف من طابقين ، وعشرات الجمال ترتعى فى القرية ، كانت هنا حامية تركية ، قلعة غير محصنة للحامية التركية التائهة فى محيط عدائى فى البيئة القبلية ، كان البلد يجيش ، يعيش حياته الخاصة ، لا يسمح لموظفى السلطان بالوصول ، ولا يدفع الاتاوة ، ولا يقدم مجندين للقسطنطينية البعيدة المعادية لفرق السلطان التى بقيت بمحاذاة شواطىء الحديدة فقط ، والاكثر من ذلك ان تلك الفرق كانت معزولة فى قلاع منفردة ، أو كانت موزعة على طول طريق صنعاء ، هذا فقط كل ما امكن تحقيقه فى شبه جزيرة العرب الملونة على الخرائط بلون الامبراطورية العثمانية الواحدة .

أما الآن فقد اقفرت قلع الحاميات العثمانية ، فلا يوجد فيها قوات ، وقد صارت مهجورة ، وملجأ لمبيت القوافل العابرة ، تحول بعض الضباط الاتراك الى الخدمة عند العرب ،

وإذا كانت ذكرى الانجليز متمثلة بمبانى الحديدة " الفخمة " التى هدمها القصف ، فإن ذكرى الاتراك قد تمثل فى هذه القلاع الكئيبة المقفرة ، حيث كانت الحاميات السلطانية وحيدة ، عاجزة عن اخضاع منطقة صغيرة ، لكنها عنيدة .

ليس الان انجليز فى اليمن ، بقى اتراك وحيدون يخدمون فى جيش الامام ، أو بعض الاتراك الجذائين والخياطين القاعدين بكآبة فى دكاكين الحديدة وصنعاء ، تهج موجة الحركة القومية العربية فى كل مكان ، تلك الاماكن التى غمرت فيها بقايا القهر القديم .

تنتقل الطريق إلى واد " واسع ، والبغال تسرع الخطى ، تضرب الارض بحوافرها باتساق باتجاه قرية جديدة ، نرى ملامحها البيضاء من بعيد ، تخضر الحقول بطراوة ريانة ، وتصير سيقان الذرة والشعير أكثر صلابة ، وأغصان مائلة أكثر ، نتحرك قدما نستبق الجمال المنفردة نمرق من ارتال البغال والحمير المسرعة التى نقابلها ، والجبال من كل الجهات .

ها هو اليمن الجبلى يقترب .



الباب الثامن

* نحو الاقطاعية
* بقايا الاحباش قوقاز فى " العربية "
* البغال والخيول



نحو الاقطاعية

اثنان من البلاشفة ، اثنان من الروس ، يمتطيا البغال ، يرافقهما عشرة جنود انصاف عراة مسودون ، يتمايلون بانتظام يصلحون البرادع من حين الى اخر ، نتحرك عبر ممرضيق يتلوى بين الحقول ، قدما اكثر فاكثر فى اعماق اليمن المكنونه ، ما زالت الجبال تحيط بنا من كل الجهات بمساحة واسعة ، واشعة الشمس لا تكل وتتصاعد بشدة ، كانها حزم مجمعة فى عدسة مكبرة ضخمة ، تحرق الجلد ، كانها خارقة لثنايا الثياب .

نتحرك الى الامام – نحو الاقطاعية – للقاء بلد مجهول ، للقاء المستقبل المجهول ، وبالتدريج ينكشف امامنا هذا اليمن المنعزل المخفى اسراره البسيطة ، ينتصب امامنا بكل بساطته القنوعه للعصور الاقطاعيه المبكرة ، لم نرى الاقطاعيه ، فى القسم الذى قطعناه – تهامة ، والحقيقة بعد ، ان السكان الهزلاء ، المنهكون من القيظ ، ما يزالون يعيشون بعد حياة قبلية ، بل وحتى حياة عشائرية – بطريركية ، لم يعرفوا بعد اساليب الملكية الخاصة الاقطاعية للارض ، ومع مجىء قوات الامام فقط ، اصحاب الجبال ، بدأت تهامة تربط بالاقطاعية .

لكن حتى تهامة ما قبل الاقطاعية تعتبر متقدمة اذا قايسناها بعائلات الحجاز المترحلة ونصف الوثنية فهناك ، فى نجد والحجاز ، التى راينا طرفها عبر الجدران الطينية البيضاء بجدة ، لا تعيش قبائل باستمرار ، وانما عشائر مشتتة ، وحتى اسر منفردة ، فالزراعة الثابتة التى وصلت الى تهامة تعتبر مثالا هناك ، وهى عمليا ليست " خطة خمسية " واحدة وانما عدة (خطط خمسية) التى يقوم ابن سعود بها بحذر ودون حزم ، المهمة الاساسية هناك هى : الرعى ، جمع التمر من اشجار النخيل القليلة مهمة ثانوية بصفة صرفة ، نهب القوافل العابرة لجاميع الحجاج غير المنتظمة ، لقد فاقت تهامة اليمن نجد والحجاز بعصر كامل ، اللتان تحجرتا فى مستوى القرن السابع الميلادى .

ها نحن نعبر اخر مراحل تهامة ، نبتعد عن شواطىء البحر نسير فى منطقة يزيد ارتفاعها بالتدريج ، نستعد لنترك ورائنا المرحلة الثانية (بعد الحجاز) التى رأينا فيها مرحلة من تاريخ البشرية ، وانتهينا منها لنقبل على مرحلة جديدة ، الاقطاعية الخالصة ، يبدو كما لو ان حوافر البغال ترتفع وتقلب صفحة ثقيلة من كتاب التاريخ الذى وقفت صفحاته هنا فى الجزيرة ، مصفرة باهتة ، فى الباب الاول منه ... نقترب من قرية بحيح .

امامنا اسيجة من القش ، وخلف الاسيجة مساكن ذات سقوف مخروطية الشكل ، ندخل الفناء ، يخبرنا العسكر انه يجب الانتظار هنا حتى حلول برودة المساء .

نشعر ان برودة ورطوبة المساء قد صارت اثرا بعد عين مباشرة ، وما كادت الشمس تبزغ من وراء قمم الجبال المسننة البعيدة ، حتى كانت اشعتها الساخنة تخترق الجلد بسهامها الحادة ، لا يوجد هنا لا طل ولا ندى ، مع ان هنا ليس الحديدة ، انما تكون الشوارع مبللة فى الصباح من الرطوبة البحرية اللزجة ، لكن لا يغير من الامر شيئا ، هنا يسود القيظ والجفاف .

نتنحى ، توضع البغال فى الظل ، دون نزغ السرج عنها ، يخفف شد حزام السرج فقط ، يقولون ان نزغ السرج مضر بالحيوان ، يقودوننا الى احد الاكواخ الدائرية المحفورة فى الارض وينقلون اليه بعجلة مضاجع " بروكروستوس " .

نشعر بسطوة الليله المؤرقة خاصة تحت اشعة الشمس المحرقة .

محتويات الاكواخ - مقعدان ، رفوف فى الاعلى فيها لوازم وادوات . خفان من القش ، سلال على شكل قنانى ، كل هذه اللوازم للمظهر ، موضوعة بدون استعمال .

بحيحة - هى اول قرية يمنية ، اينما تحتم علينا التأخر فيها ، وهى قرية صغيرة تتالف من عشرين - ثلاثين فناء ، وفناء حجرى صغير للخفير بقرب الطريق ، الافنية محاطة باسيجة من الاغصان المجدولة وفى كل فناء اثنان او ثلاثة اكواخ دائرية وحظيرة صغيرة للماشية ، والرخاء هنا اعلى مستوى منه في الصحراء الساحلية القاحلة العجفاء ، تركض الدجاج فى الافنيه وتثغو الماعز والخراف ، وهنا وهناك تتجول ابقار حدباء بنتوء على شكل حدبة عند الرقبة .

وراء القرية (المكشوفة كانها على راحة كف) نشاهد الحقول المخضرة ، بيادر عامة ، تنطرح حزم القش ، نشاهد الماعز والخراف ، التى تركض وراء السياج فى المراعى ، وفى البعيد عند سفوح الجبال تبدو اشباح كانها بيوت مشبكة بها ، وابعد من ذلك تبدو قمم الجبال الذاهبة فى السديم والضباب ، التى تعشش وراءها حياة حقيقة ، كما يقولون .

ومع ذلك كله فليس هناك غرابة وغموض فى الشرق خاصة ، الذى يحلم به محبو الجمال ، ربما قليلا من مسحة افريقية ، هذه البيوت الطينية الدائرية بسقوفها المخروطية الشكل ، والادوات المزخرفة من القش ، والناس السمر ذوى العظام الوجنية البارزة ، وكثافة المواشى البيتية الصغيرة - هذه هى الخصائص ، التى متبعا وصف افريقيا بها ، والتى انعكست هنا فى اليمن ، على الجهة المقابلة من ساحل البحر الاحمر ، او بالاصح المضيق الذى كان يفصل القارة الافريقية - عن شبه جزيرة العرب الحارة الواحدة .

بقايا الاحباش قوقاز فى " العربية "

من المحتمل ان هذا التشابه ليس محض صدفة فمنذ القدم تعرضت اليمن لنفوذ التاثيرات الافريقية ، وبعد طرد الاحباش ظلت العلاقات التجارية بين الحبشة واليمن مستمرة ، وما عدا ذلك ، فقد جلب الى اليمن عدد كبير من العبيد السود ، كما وصل كثير من السودانيين لممارسة الصنع وطلب الرزق ، هاهى بقايا سيطرة الاحباش ، فى نفس الفناء الذى توقفنا فيه ، بضعة نساء حبشيات ، زوجات المالك السابق و والان اصبحن " مالكات فندق " بطريقتهن الخاصه ، تحظى تلك النسوة بشهرة واسعة ذات مغزيين ، كما عرفنا فيما بعد ، فى اوساط الرحالة الذين عبروا يوما ما هذا الطريق ، ان اصلهن الحبشى - الارثوذكسى يعطيهن بعض الحقوق او الامتياز لكثير من الانطلاق ، وعدم التكلف الذى لا يسمح به للنساء المسلمات التقليديات والفزعات ، فلكل الرحالة الاوروبيين وحتى الاتراك الرصناء يتذكرون " ببسمة لعوبة " فترة وصولهم الى هذا " الفندق " .

نحن للاسف لم نعرف هذا فعوقبنا بقساوة لمسلكنا غير اللطيف ، لم يكن لدينا متسع او رغبة فى الحديث ، فبعد ان شربنا كاسا من لبن الضأن ذهبنا فى نوم عميق ، ومع ذلك استيقظنا بعد ساعتين او ثلاث نتيجة لانكتام النسيم ، الذى لا يطاق والهواء الخانق فى الكوخ الذى لا توجد به نوافذ ، لقد سخن تحت اشعة الشمس الافقية ، فطلبنا ونحن - قمة في الجهالة - نقلنا الى مسكن اخر حيث يكون الهواء اكثر بروده فدعانا العسكر الى منزل حجرى ، حيث يسكن " القمندان " بهيئة ضابط قديم ، وقد كان وقتًا ما فى الخدمة التركية .

يقع المنزل خارج القرية ، على مرتفع بسيط وله نافذتين يهب عبرها النسيم ، يعدون لنا الطعام ، دجاجة مسلوقة مسلوخ جلدها عنها والقشرة الدهنية بعناية (وهى الطريقة المحلية المعتادة فى سلق وشوى الطعام) ، يشرب مضيفنا الماء المعدنى المقدم له بشراهة ويدخن سجائر " اسمرالد" .

نسأله عن الوضع فى البلد ، لا بأس ، كل شىء على ما يرام ، يقول مجيبا ، سيكون كل شىء ميسر فى المستقبل ان شاء الله ، وكما نعرف ان الطبيب الايطالى قد وصل الى هنا قبل يومين ، وتوقف خمس او عشر دقائق فقط .

يقدم لنا معلومات اثناء الحديث عن مرتبات الجنود الذين يقعون تحت خدمة ملك اليمن ،

يستلم الجندى خمسة ريالات فضية فى الشهر ، بينما يستلم الضباط خمسة عشر ريالا فضيا ، كما تقدم التموين خزينة الدولة ، لانه افضل : قبضة من القمح يوميا هذا يقدم لنا مفهوما أنه لا يمكن العيش بدون " بخشيش " .

نعرف اننا فى منطقة مجاريد – وهى من اعمال قبلية قحره الكبيرة ، تشمل هذه المنطقة كل ناحية الطريق التى قطعناها ، يقوم شيخ القبيلة بزيارتنا ، تلك القبيلة الواقعة فى نفس المنطقة ، وهو شاب عيناه تشتعلان ، ذو وجه قليل الشعر ، حافى القدمين ، وعلى راسه عمامة بيضاء ، متمنطق بجنبية مقبضها فضى ، وعليه حزام من الرصاص ، ينظر الينا كما لو كنا حيوانات غريبة غير مألوفة ، يقابلنا كالايطاليين وذلك لان الاجانب الذين ظهروا هنا حتى الان قد كانوا من الايطاليين بالاساس ، يندهش عندما يعرف اننا من روسيا السوفيتية ؟ اين تقع ؟ وهل هى كبيرة ؟ هو لا يعرف هذا ، لكنه يعلم ان روسيا قد ساعدت الاتراك فى المحافظة على استقلالهم .

تحملون بضائع ؟ هذا جيد ، فقد كان فى اليمن جدب ، الدقيق لا يكفى ، الاقمشة سيئة ، والاجانب لا يجلبون شيئا حسنا ، اعطونا قمحًا واقمشة وكذلك كيروسين وسكر ، وليكن كل ذلك ارخص وافضل مما يعطونه الاجانب الاخرون ، حتى هنا ، اينما الارض جيدة ، واينما يجمع المحصول ثلاث مرات في السنة ، فان القمح لا يكفى .

– كيف يعيش الشعب ؟ هل كل شيء امنًا ؟ نسأل دون مواربه .

لكنه لم يكن كريما فى الاجابة ، فهو يفضل طرح الاسئلة اكثر ، اجاباته تقليدية يغلب عليها " الحمد لله " المعتادة للحاضر ، و " انشاء الله " فيما يتعلق بالمستقبل ، ومع ذلك تمرق نبرات غريبه فى اجاباته ، يتضح ان قبيلته شاركت مع عسير فى الحرب ضد الامام ، اما الان فلا باس ، لقد هدأ رجال القبيلة ويؤيدون الحكومة المركزية ، الا انه يلمس ان هؤلاء " رفقاء سفر " وليس الدعامة الاساسية لصنعاء .

يخرج بعد ان شرب الماء المعدنى ، نبقى نحن والمالك بجانب بضعة من المعسكر المرافقين لنا يقص احدهم بحرارة ، كيف عاش بهدوء وسلام فى قريته عندما كان طفلا ، لكنه عندما كبر تشوق للعمل والحركة ... والان يفخر بانه فى صفوف الجيش اليمن ، بأنه سيضحى بسرور بدمه فى النضال ضد الانجليز ، الذين يهددوا باستبعاد وطنه الحر ، وبحماس لا يقل عن ذلك يتحدث عن الامام كقائد شعبى ، يقود الشعب على طريق المجد والازدهار .

نرى ان هذا ليس رفيق " سفر " وانما من اكثر الفئات اخلاصا للقضية الوطنية ، انه من سكان الجبال ، التى لم تتاثر بالدعايه الاجنبية ، ولم تقع تحت تاثير فئة التجار الساحلية الرافضة ، نتيجة لمصالحها الانانية والذاتية .

نحاول ان نستفسر عن اشكال استخدام الارض فى هذه القرية ، يقولون لنا بان الارض هى ملكية فردية لكل بيت ، هنا لا توجد ملكية اقطاعية للارض ، وقرية بحيح هى قرية ذات امتياز ، تقع قرب اراضى خصبة ، وتقع على طريق كبير ، اما تلك القرى الواقعه جنب سفوح الجبال فوضعها اسوأ .

فى المساء نتحرك قدما ، الجبشيات الغاضبات يخرجن الى ما وراء سياج القرية يتبعننا بوابل من التمنيات السيئة ، نحتار بصدق لا نعرف حقيقة الامر ؟ نفهم ذلك مؤخرا فى صنعاء ، نعترف بغلطتنا ، وان لم نعزم على تصحيحها مع ذلك .

لكن لا وقت للابطاء ، هيا الى الامام ، فالجمال قد سبقتنا مع المتاع ، وها هى بعيدة فى مكان ما فى المقدمة .

تقترب الجبال برتابة من الجهات الثلاث ، تخترق السهل الفسيح لفحات حادة جافة من الهواء الرملى ، التى تهب من الفجاج الجانبية ، وعلى جانب الطريق تتناثر قرى واسعة فيها اكثر من مائة فناء ، وترى قطعان الماشية الكثيرة العدد ، هنا وهناك تتجول اشباح منفردة من الجمال ، وهناك بئر على شكل حفرة يعلها عامودان فيهما عقلة .

اثنان او ثلاث من النساء السود بقبعات اسطوانية طويلة من القش لها حواف عريضة يشدون الحبل الممدود عبر العقلة ويسحبن دلوا على شكل كيس جلدى (قربة الماء) ، وجوه النساء مكشوفة ، فهنا ليست المدينة ، الحجاب لا ذكر له ، والمعيشة الريفية مليئة بالعمل الشاق الدائم سواء فى البيت او فى الارض ، لقد الغى هذا الحجاب فى حد ذاته ، الثابت فى محيط المدينة المنافق ، يساعد هؤلاء النسوة خادم ، يبدو انه اجير زراعى ، اسمر شبه عار ، يقدمون لنا الماء لنشرب ، الماء هنا ذات طعام مالح ، ومع ذلك فهى افضل بكثير منها في القسم السنج من تهامة ، نعطى البخشيش ونمضى قدما على يميننا سلسلة جبال ضخمة فى راسها قمم تغطيها السحاب مثل جبال ارارات (*) . هذا جبل برع ، اعلى قمة فى اليمن ، يوضح لنا العسكر ، لكننا نعرف فيما بعد ان ذلك مبالغة معتادة ، فهذه الجبال ليست اكثر الجبال ارتفاعا فى اليمن ، لكنها وعلى خلفها السهول ، وهى مرتفعة قليلا عن سطح البحر تبدو فى الحقيقة عظيمة ، كما نعلم بانه فى اعالى جبل برع تنمو اشجار البن .

(*) - سلسلة جبال مشهورة فى ارمينيا

هناك يعيش ناس سعداء ، قال لنا العسكر .

شيء لا يصدق ، نحن الاوروبيين متعودين على ان العائشين فى السهول تكون حياتهم افضل ، وان الجبال قاحلة مقفرة ، اما هنا فى اليمن ، انما المدارات الاستوائية ، يتم اعادة تقييم القيم والمفاهيم ، الجنه – فى مرتفعات الجبال الباردة ، والجحيم على هيئة الحر ، والجفاف والاختناق – فى السهول .

تتحرك سلسلة الجبال على مقربة منا ، هناك واد صخرى نقطعة مشيا ، نزلنا من على البغال هنا ينتهى القسم الذى يمكن اجتيازة من الحديدة على السيارة ، حتى الايطالى الذى يملك سيارة خفيفة ، تحتم عليه ان ينتقل هنا الى الركوب على ظهور البغال ، مسافة سهلية قصيرة من الطريق ، ثم واد صخرى ضيق من جديد وفى قعر الوادى شيئا ما يشبه النهر ، هذه اول مياه فوق سطح الارض نراها فى اليمن .

والسهل الطويل الى قطعناه صار بعيدا فى الخلف ، وسرعان ما اختفى فى عتمة الليل الحالك ، نتوقف ساعتين فى قرية كبيره اسمها عبال ، ونأكل دجاجة مسلوخة من جديد ، نتحرك قدما بعد ان انتظرنا طلوع القمر والمدهش ان تتحقق باللمس من الحقيقه المعروفة نظريا والقائلة بأن القمر بالذات وليس الشمس هو الكوكب الاساسى ، الذى ينظم حياة الصحراء ، الشمس خبيثة ، قاسية ، قاتلة ، نختبيء عندما تشرق تحت السقائف ، ننزل حمولة البغال وننعس بلا حول ننتظر عتمة الليل ، وحين يقبل المساء ويبزغ القمر نتحرك فى طريقنا هكذا يصير واضحاً لماذا يعتمد التقويم الاسلامى الأشهر القمرية كأساس لحساب الزمن .

لقد اصبحنا على ارتفاع عالٍ ، نصعد بطريقة غير ملحوظة فى السهل ، ونصل تدريجيا الى ارتفاع بضعة مئات من الامتار ، نتحرك على هضبة مرتفعة ، تهب برورده ورطوبة من الجبال القريبة جدا ، هنا تسقط الامطار كل يوم تقريبا ، وفى هذه المنطقة المضاءة بنور القمر نشاهد الاشباح الجبارة لاشجار الاثل ، التى تختلف بحده عن اشجار تهامة الهزيلة الكسيحة ، هنا اشجار الاثل كثيرة الاغصان وافرة الظلال ، رغم انها ذوات جذوع معوجة ايضا وملامحها مغلوطه بشكل متشنج ، تبدو فى الغسق وكانها تنانين تتلوى احيانا ، او كانها بشر يحتضنون بعضهم احيانا اخرى ، او توحى وكاكنها رجلا القى براسه الى الخلف ، ينظر الي السماء فاتحا ذراعيه على اتساعهما .

الحر ، الاختناق ، العرق ، والعطش وكان شيئا لم يكن ..الليل البارد الساكن ، اشباح الاشجار والرسوم المبهمة المعتمة للجبال المعلقة فوقنا ، بالضبط ، كل هذا يفرض علينا ان

ننسى اننا فى شبه جزيرة العرب البعيدة ، قرب خط الاستواء ، واننا على بعد بضعة الاف الكيلومترات من شواطىء الوطن ، لقد قام البغل الاغبر القبيح والعنيد ينقلنا خلال بضعة ساعات من الطريق من قيظ الصحارى العربية الى سفوح القوقاز الباردة التى نعرفها . هذه قرية حجيل ، مركز الناحية ، هنا يجب علينا ان نتوقف من اجل ان نغير الجمل ، وجملنا كان صالحا للمشى فى السهول فقط ، فى حين للجبال جمال اخرى تعودت على طرقها ، واضافة الى ذلك فانه من هنا يبدأ الصعود الشاق فى الجبال ، والذهاب فى الليل امر صعب ، لهذا نتوقف للمبيت .

مرة اخرى اسرة مفتولة من القش ، تحت سقائف من القش ، يثب خادم تركى مسرعا ، وبدون ان ينبس بحرف ، يبدأ يتحسس اضلاعى ، ويهز رجلى ويداى ، ادفعة بعيدا برعب ، يبتعد حانقا ، لقد اراد ان يعمل تدليك ما بعد الطريق ، وهو المتبع فى هذه الاماكن ، لهذا كان تعززى غير مفهوم له ، يقولون لنا فى الصباح انه يجب التأخر الى ما بعد الظهر ، لان التحرك ظهراً سيكون حارا ، وبالاضافة الى ذلك فان الجمل الذى استبدلناه بالاخر غير جاهز بعد ، لان جميع جمال سكان المنطقة محملة من قبل الخزينة ، بدفعة جديدة من الاسلحة الايطالية التى وصلت الى الحديدة هذه الأيام ، وهذة الاسلحه هى عباره عن ذخائر خشبية صغيرة ، مرصوفة فى ساحة بقرب بيت عامل المنطقة . تتالف مما يقارب مائة جمل باركة تحت ظلال اشجار الاثل ، او ببساطة تحت اشعة الشمس الطالعة ، تمضغ حزم الدريس المرمية امامها كعشاء ، من اجل ان تجمع قواها للرحيل فى اعماق الجبال ، هناك اينما توجد ضرورة للاسلحة ، واغلب الجمالة كهؤلاء ذوى لحى شائبة ، اجسامهم محترقة ملوحة بلون احمر نحاسى ، يلتحفون عباءات خفية ممزقة ، واحزمه غليظة حول الخصر يجلسون بشكل دائرى يأكلون طعام الصباح ، وبيوت القرية ، ليست على شكل البيوت الطينية السابقة ، انها معمورة من الحجر الغشيم ، والشكل الخارجى للبيوت على نمط واحد : اربعة اركان حجرية خالية من الجمال ، وسقف من العوارض مغطى بالقصب او القش ، والماشية هى تلك الابقار الحدباء ، اثوار ، حمير ، ماعز ، ضأن ودجاج ، لكن لا تحس افريقيا فى هنا ، لا باسلوب البناء ، ولا بملامح الوجوه السمر لكنها تخلو من ذلك السواد والنمط الخاص الذى يقربهم من الجنس الزنجى الحبشى ، هنا ليست تهامة ، وانما ارض نصف جبلية ، والقرية التى صارت مركزا اداريا منذ عهد قريب تعيش على الزراعة ، فى كل جوانبها حقول يانعة موزعة على مدرجات الشعاب المتلاصقة ، فالماء هنا وافر .

لا يوجد هنا سوق بالمعنى الشرقى ، توجد بضعة حوانيت صغيرة فقط ، حيث يمكن شراء التبغ والكبريت او صنادل خفيفة وبضائع اخرى مثل الدخن ، الذرة ، قشر البن التى تستخدم هنا بدلاً من البن ، الحقول الان هامدة ، العمل فى البيت يتمثل بالعناية بالماشية ، وجلب الماء من البئر الواقعة على مقربة من القرية ، او اشعال الموقد لتحضير الطعام ، كل هذا يقمن به النساء ، اما الرجال فانهم منزعجون من قيظ النهار القادم ، يقعدون صامتين فى الظل يدخنوا النارجيلة ، ايقاع الحياة بطيء ، تعبر النسوة من وقت لاخر من البئر الى البيت ، يحملن على رؤوسهن الجرار الطينية الطويلة ، يركض الاطفال عراة كما خلقوا ، باجساد مسلوخه هزيلة وبطون بارزة في الغالب ، هناك صبي عمرة اربع او خمس سنوات يسير بتؤدة ووقار ، يقهقه المتفرجون عليه يصرخون بشيء ما ، اما هو فيصرخ مرتعشا بصوت كانه ليس صوته ، يغطى عورته بيديه ، ثم يهرب لا يلوى على شيء ، يتضح انه لم يجرى له الختان فى وقته ، لهذا يشاكسونه بالعملية " الدينية " التي ستجرى ، والتى يكون مجرد التفكير فيها باعث على الرعب والوحشيه لديه .

البغال والخيول

نتحرك بعد منتصف النهار ، يتعرج الممر في مسيل صخري لسيل قد جف وانكمش فى فج ضيق ، وبعد ان يلقى بنا فى الفج الصخري ، الذى يضيق مع كل خطوة ، نمر بين الاشجار والاحراش ، ونصل عبر مضيق ضيق الي شعب اخر ، بين كتلتين صخريتين كانهما قد وضعتا خصيصا كحاجز ، وعلى شكل منحدر صخرى يمتد عبر الجبال ، علي ارتفاع شاهق وبين اسنة الجبال نرى بالكاد سودة ملامح القرية من كل الجهات تسمي المنطقة صفن ، وفجأة تقترب البغال الي منحدر الفج مباشرة ، تبدأ تضرب بخطواتها الطريق الشديد الانحدار والمتعرج ببطء ومثابرة ، نسمع اصوات البغاوات ، ونشاهد اشباح القرود المنتقضة ، وخلال خمسة عشر – عشرين دقيقة يكون الفج بعيدا في مكان ما فى الاسفل ، في حين تواصل البغال خطوها المنتظم الي الاعلى فى المرتفع الشديد الانحدار .

ابداء اقدر الخصائص الرائعة لتلك الشغيلة المتواضعة ذات الاربع ارجل ، البغال والحمير خصوصا ، متميزة وفريدة بفطانتها ، وقوة احتمالها وجلدها ، يكون الرحيل عليها مرضيا ومقودها حسن ، تصفر فقط بصوت منخفض ويسير الحيوان بدون حث او تعجيل ، يتحسس بحذر كل حجر ، دون ان يتعثر ابدا او يشاكس او يخاف او يحيد عن الطريق ، تذكرت

عفويا ويتقزز الخيول حينها ، المستعدة دوما ان تجفل او تجمح لاى سبب ، سواء لرؤية شىء مجهول او لازعاج مفاجىء ، كما ان الخيل تتوقف عن طريقها اذا ارخى عنانها ، واذا نهرت فأنها لا تسير في الغالب او ضربت بالسوط ، فاما ان تكون مستعدة للاندفاع مسرعة واما بالسقوط منهكة ، قد يقال هناك خيول فطنة وجريئة وهذا صحيح ، لكن البغال والحمير فى مجملها تتميز بالذكاء والحساسية والهدوء وقوة الاحتمال ، بالاضافة الى ذلك فالبغال قد ورثت افضل الصفات " المعنوية " لأباتها الحمير ، والقدرة الجسدية فقط لامهاتها الخيول ، ان البغال والحمير تعتبر استثناءا مميزا بقيمتها كحيوانات - بروليتارية ، لا تماثلها الخيول - الارستقراطية الغبية والحرنة .

واثناء التنقل الطويل على ظهور البغال كثيرا ما يخطر على البال : لماذا صار مألوفا فى الادب التغنى بالحصان الطائش والعاجز ، فى حين تكون البلادة والغباء مرادفة للحمار المحب للعمل والذكى ان البحث عن توضيح ذلك ليس امرا صعبا ، اذا راقبنا خصائص الحمير فى التنقلات البعيدة ، الحمار مثله مثل الحصان ، كائن مستغل من قبل الانسان لكنه حين يخضع الحصان ويطيع الانسان حتى النهاية وبدون حدود ، يجر اى حمولة حتى لو كان فيها خطر انفصام ظهره ، يسير تحت ضربات السوط حتى السقوط ، بل حتى وهو يلفظ انفاسه الاخيرة فى حالة الموت بصمت دون الاحتجاج ضد القسر والاستغلال ، فان الحمار اكثر عنادا فى الدفاع عن مصالحه كحيوان مستغل ، فهو يتشبث فى مكانه فلا يسير اذا حمل اكثر من طاقته ، يتوقف اذا فرض عليه السير طويلا جدا ، ولا يتحرك من مكانه تحت اية ضربات ، لن يركض اكثر مما تسمح به قواه ، لكنه يعمل بامانة فى نطاق المهمة العادية ، اما اذا لم يطعم او اذا ضرب فلن يسكت مثل الحصان الابكم المستكين ، بل سينهق محتجا بوحشية ، ويصدر الناث بطريقة بشرية ، يبدو معها ان اقصى سائق حمير سيرق قلبه عند سماعها ، الحمار يختج ، يخرب ، يغرب ، اذا ما تجاوز القسر عليه حدود مغينة ، الحصان يذعن للقسر باستكانة وبدون حدود : انه مستعد للركض حتى السقوط او الانهاك من جمولة فوق قدرته ، يساير نزوات الانسان بدون حدود ماشيا بخضوع حسب تعليمات السائس والراكب الذى يهزه ، أهل من غرابة ، فى ان يتغنى الشعراء الاقطاعيون بالأسود والنمور والصقور الضارية ، المؤذية وغير الضرورية ، فى حين جعل الادباء البرجوازيون محط اعجابهم الحصان الاحمق المستعد للموت نتيجة طغيان راكبه ، والكلب الذى يحرس البيت يهز ذيله امام صاحبه لكنه بينما كانت هذه الافكار المتقطعة تتزاحم فى راسى كان البغل قد وصل بى الى قمة الصخرة ، بخطو منتظم يزاحم جموع الحمير ملتفا حول الجمال الخرقاء الباركة طلبا للراحة ، يدخل فناء صغيرا ، فى

ساحة قرية مصغرة اسمها اصيل ، او بالاصح نزل من اجل توقف فى مركز القافلة المكون من خمسة او ستة بيوت فلاحية من الحجر .

نرى ان هذا ليس سوى بداية المرتفعات (رغم اننا قد وصلنا الى ارتفاع اكثر من الف متر فوق سطح البحر) ، سلسسلة جبلية ضخمة جديدة ترتسم امامنا كالسور ، وخلفها صف اخر من الجبال ، وصنعاء ابعد منها التى طال انتظارها .

اصيل هى بوابة اليمن الجبلى ، هنا يبدأ اليمن الذى لم تدسه اخذية الانجليز ولا صنادل عسكر الادريس ، هنا سلطة الامام يحيى الراسخة ، التى تختفى وراء الجبال المنيعة على قوات العدو البرية .

وعلى كل ، توجهت الى شاويشنا بسؤال (هل هذا هو اليمن الحقيقى ؟) (اقصد بذلك القسم الجبلى من البلاد) وكان واضحا ان طرح السؤال بهذا الشكل لم يعجبه .

اجاب قائلا :

اليمن كل مكان – هناك فى تهامة ، وهنا فى الجبال .

شعرت بانى قد ضربت على الوتر الحساس ، فالانجليز وعملائهم يحبون كثيرا ابراز الاختلافات بين الجبل وتهامة سواء فى العلاقات الاتنوجرافية او الاقتصادية او الدينية ، هدفهم من كل هذا شق اليمن وافساد ذات البين بين اجزاء هذا البلد ، وردا على ذلك يسعى اليمنيون تجاهل هذه الاختلافات والتشكيك بها .

لكننى مع ذلك اشعر بوجود هذه الفوارق ، وان كانت ليس بتلك الاهمية التى يريد الامبرياليون تصورها يتحدث عن الفارق الهواء العليل البارد ، الذى تستنشقة رئاتنا بكل طاقاتها ، يتحدث عن ذلك ماء النبع الصافى البارد ، الذى نشربه من المفارق دون انقطاع مثل الجمال .

ناكل شيئا ما ، نشرب قهوه قشر الاباريق ، وننام فى السقف الاملس علي البيت تحت ظلال شجرة الاثل العالية ، ونرى فى البعيد برج حراسة اسود ، واشباح الجبال الكثيفة ، يتنفس الفجر بروده ، ولا صوت سوى صوت مضغ الجمال الثقيل ورغائها ونهيق الحمير الراقدة ، يخرق السكون الجاثم لليل الاستوائى المظلم .

وفى اليوم الثانى نمضى الى الجبال ، تصير الجبال اعلى فاعلى ، مضائق جبلية ، هضاب ، منحدرات ، ومرتفعات مرة اخرى ومضائق ، وهكذا قدما حتى سهوب صنعاء المزدهرة .

الباب التاسع

* جبال شبه جزيرة العرب
* البن
* المدرجات
* الحصون
* المشايخ الاقطاعيون
* مناخة
* القات
* الجواسيس



جبال شبه جزيرة العرب

امر غريب وشيء لا يصدق ، نعرف ان هناك صحارى عربية ، وان هناك " سهوب رملية في ارض جزيرة العرب " ، اما ان تكون هناك جبال عربية ، حقيقة ، جبال عصية ضخمة ، مثل قوقازنا ، فهذا ما لم نسمع عنه شيئا في السابق وامر غريب حقا ، نتأمل بشراهة شديدة السهول والسفوح الجديدة التى تظهر امامنا ، الى حيث تنقلنا البغال العنيدة الهادئة السير ، ومن الخيرات الاولى للجبال بعد الماء والهواء البن العربى الذى لا يضاهى .

البن

هذا هو البن الذى يسمى " موكا " فى اوروبا ، وذلك باسم الميناء اليمنى الصغير والفقير ، الذى ينقل عبره البن الى الخارج لاول مرة ، والواقع ان هناك اصناف عديدة من البن ، منها اربعة اصناف اساسية (المطرى ، الحيمى ، وغير ذلك) واصناف كثيرة لا تحصى والفارق بينها طفيف ، وبن " مخا " اصناف خليطة اعدت للتصدير خاصة ، وقد انعكست فى تسميتها بـ " موكا " ايضا بسبب الجهل الاوروبى ، شأنها شأن تسميات " ميكادو " او " بوجديخان " التسميات التى لم تطلق على الملوك ابدا فى اليابان والصين ، لكن القضية ليست هذه ، وانما فى ان كل اقتصاد اليمن الجبلى قد تطور حتى الآن تحت علامة البن ، البن الذى شكل المصدر الاساسى للعملة الصعبة للبلاد ، لقد اعطى تصدير البن امكانية خروج اليمن الى ساحة التجارة الدولية .

عرفنا ذلك فى الماضى ، وباضطراب كبير نتأمل الشجرة المتفرغة الخضراء ، التى تدلت عناقيد حبوب مائلة للاخضرار من هنا وهناك ، تتزاحم هذه الاشجار على ساحات ضيقة متقطعة فى المنحدرات الجبلية .

ان زراعة البن المعقدة تبدو كانها تسير في اتجاه يناقض التخلف ، والبؤس والظروف البدائية المباشرة فى البلاد ، تبدأ شجرة البن باعطاء الثمار بعد فترة خمس سنوات فقط ، وجيد يعرف عن هذه مالاشجار العناية بها اقتلاع النباتات والحشائش الضارة ، كل شيء يتحدث عن الجهد البشرى الضخم الذى يبذل من اجل هذه الحبوب المخضرة الخالية من الجمال .

العجوز احمد ابن صالح ، الذى عمل مدة خمسين عاما في معمل البن فى الحديدة يصف تاريخ البن اليمنى بالعبارات التاليه ·

– بسم الله الرحمن الرحيم ، ونشكر الله الكريم ، الذى اعطانا حكمة التبصر بالكون ، ان اصدقائنا يطلبون كتابة تأريخ البن اليمنى ، الذى تشتريه كل الشعوب تقريبا ، معروف لكل بنى البشر فوائد البن .

فى عهد الملك سليمان ابن داوود ، الذى اطاعة بمشيئة الله ، الجن والانس ، الطير والحيوان ، طلب سليمان من الله خلق شجرة تكون ثمارها شافية للناس من النعاس والجنون والكوليرا ، فامره الله ببعث اقوى الجن الذين تحت يديه الى البلاد البيضاء بين القطبين ، ان يجلبوا الشجرة المباركة من هناك ، فاتى الجن بالبن والقات (سيأتى الحديث حول القات فيما بعد) .

يتضح فيما بعد ان الجن قد اختارت الى جانب الحبشة جاوه ومالابار ومن ثمة اليمن لزراعة البن ، لانها بلد وفير الخيرات تقع فيما بين خطى العرض اثنا عشر واربعة عشر في الشمال من خط الاستواء وفيها يكون امتداد الليل والنهار مناسبا لشجرة البن .

وبعد ذلك ينوه محدثنا الى المحاولات الفاشلة فى زراعة البن فى سوريا ومصر ، وباستخفاف يتحدث عن البن البرازيلى ، وانه يفسد بسرعة ، فى حين يظل البن اليمنى محتفظا بنقاوته فترة خمس او ست سنوات ، كما يتذكر انه من بين مائة من الاوروبيين الذين يشربون البن خمسة أشخاص فقط هم الذين يشربون البن اليمنى الخالص ، فى حين يشرب الاخرون خليطا ، ويشير باسى الى انه فى اليمن نفسها يشرب البن ثلاثة من كل الف ، فى حين يكتفى الاخرون بشرب قشرة البن ، التى يعمل منها مشروب لذيل منعش ، يحل محل الشاهى .

والواقع ، انه خلال كل فترة تواجدى فى اليمن كنا نشرب البن بالطريقه التركية عند الوجهاء الرسميين والمشايخ الكبار فقط ، اما الجماهير الاساسية من العرب فهى تشرب برمتها مشروبا من قشرة البن ، لاستطيع ان احكم على خصائص قشرة البن ، لانى لم اشربه سوى مرتين او ثلاث مرات اثناء الطريق وتبدو هذه الغسالة انها مشروب فردوسى .

ما السبب ؟ يبدو انه نفس السبب الذى كان صيادو الفولجا لا يتناولون الكافيار ، فى حين اعتبره الاجانب بحق مادة روسية اصيلة ، لقد اندهشنا من ان البن لا يتناوله سوى ثلاثة من كل الف فى اليمن .

وبالنتيجة فان اجزاء الشمس الاستوائية فى الجبال تلك ، الملوثة بالعصارة والاريج للاصناف الجبلية غير المدروسة ، تظل لذاته محرق لمن يصنعها ، فالفلاح البدوى يبيع حبوب البن على المحتكر او يعطيها ضريبة للخزانة او للشيخ الاقطاعى ، فى حين يترك لنفسه شيئا ما اخر ، يبعث المشايخ والمحتكرون البن الى الحديدة نصف مصفى ، وهناك يصنف ويباع فى اكياس ، ثم تنقلة البواخر الاجنبية الى ما وراء المحيط .

البن هو العصب الرئيسى الحيوى للبلاد (مثل الحج فى الحجاز) ، يثير الاوروبيون هذا العصب لبلد متخلف قليل الخبرة فى احابيل التجارة الخارجيه ، تستغل الشركات الاوروبية عدم وجود اسطول تجارى يمنى وتجار ذى علاقة مباشرة بالاسواق الخارجية (لا يدخل الهنود هنا) حتى تفرض اسعارها على البن اليمنى ، وبهذا تثبت هذه الاسعار فى مستوى منخفض وبشكل جشع ، وثمن الطن من الصنف الجيد من البن " موكا " يقرب من مائة جنيه استرلينى ، ان سعر الكيلو روبل واحد تقريبا ، فى حين يكون شراء الكيلو الواحد بصعوبة بمبلغ من سبعة - الى ثمانية " روبلات " ، ومع ذلك فانه ليس بناً يمنياً صافياً ، وانما يخلط مع البن الحبشى والبرازيلى الرخيص .

البن هو اول عامل اقتصادى يميز القسم الجبلى من اليمن ، نظرا لتبدل التربة والطقس ومستوى الرطوبة والميزة الثانية (اسجل ذلك حسب توالى الانطباعات) انه وراث حضارة قديمة - المدرجات الزراعية المنحوتة على منحدرات الجبال الصعبة ، الابنية السكنية القديمة ، التى تم بناؤها منذ قرون كثيرة خلت يقول البعض انها منذ الاف السنين .

ارى المدرجات مع اشجار البن فى وقت واحد ، ينمو البن فى هذه المدرجات فى الغالب اى فى المساحات المحفورة فى مرتفعات الشعاب ومنحدرات الجبال ، هذه المدرجات المسورة بجدران من الاحجار والمفروشة بين جوانبها طبقة سميكة من الارض المجلوبة ، حتى يكون احيانا كل المنحدر الممتد عشرات الكيلومترات بشكل مدرجات تشبه التجاعيد .

المدرجات

هل تتصورون ؟ منحدرا طوله عدة كيلو مترات بزاوية ميلان ثلاثين - اربعين درجة ، لا يستطيع البغل ان يسير فيه فى اكثر الاحيان ولا الماعز الراكض دائما ان هذا المنحدر مقطع الى قطع صغيرة بطبات اصطناعية مفروشة بتربة خصبة طربة ، تنمو فيها اشجار البن ،

وتخضر الاراضى بالقمح والذرة ، من وحتى حفر الطبقات الحجرية فى الجبال ، من الذى نقل التراب ، واسندها بركائز حجرية ضخمة وتعلم ان ينشىء الزراعه المعقدة لنباتات طويلة العمر ؟ الواضح : ان من عمل هذا ليس البد وانصاف العراة ، اولئك الاميون الذين لا يملكون سوى محراث وبندقية ، الذين يتطلعون بفضول من خلف زوايا اكواخهم ، اسال العسكر ؟

– متى ، ومنذ اى عهد تعلم اليمنيون بناء مثل هذه المدرجات ؟

اتلقى جوابا لا يتغير :

الله وحده يعلم هذا ، يفترض ان يكون قبل بضعة الاف من السنين .

والمبانى السكنية ؟ قلاع ضخمة ارتفاعها ثلاثة طوابق ، ليست مثل بيوتنا ، انها بيوت مبنية من الحجر المنقوش فيها نوافذ صغيرة ، عملت على ارتفاع بضعة امتار من الارض بغرض الامان ، بكوات وابراج وكرنيشات وحواف نائبة ، وسلالم ونافورات وبرك اصطناعية فى الفناء ، يحيط بالقصور حائط حجرى عريض انها قلاع من القرون الوسطى ضخمة ، لا تستطيع حتى المدافع تحطيمها . تقع القلاع على المضائق الجبلية فى الغالب وعلى القمم او فى اذيال الجبال العصية حيث يكون المدخل من جهة واحدة فقط .

الحصون

واذا سألت :

– متى بنيت هذه القلاع ؟

يكون الجواب نفسه :

– الله وحده يعلم ذلك . نحن نعرف انه عاش بها اجدادانا واجداد اجدادانا .

صحيح ، ان مثل هذه القصور ليست ضرورية الان لا يستطيع احد ان يحتمى بها من احد ، لانه لا يعيش بها لا المشايخ ، ولا الاغنياء ، انما اولئك الرثوا الثياب المنهكون شانهم شان اولئك الذين يتكدسون فى الخيم فى السهول ، لا احد يشاغلهم ، لان قطاع الطرق والمجرمين بالمعنى القديم فى القرون الوسطى لا وجود لهم ، اما امام قطاع الطرق الجدد ، امام الطائرات والمدافع الانجليزية ، وامام المستغلين المحليين ، فان هذه الجدران الحجرية لا تجدى شيئا .

لكن هذه القلاع والمدرجات الزراعيه تظل شاهدة على حضارة عظيمة ، وقعت ارث لقبائل بدوية متخلفة تاخرت فى تطورها ، هذه القبائل المترعرعة فى ظروف الرعى والزراعة البدائية لم تعرف ولم تستطع استخدام منشآت الرى العظيمة التى بناها اسلافهم الاكثر تحضرا ، اولئك الذين لم يكونوا فى حاجة للعملات والمتاع ، التماثيل الحجرية مرمية وكأنها نفايات قديمة فى كهوف مأرب التى تنهب من قبل المضاربين ، انهم لم يريدوا ولم يقدروا علي الحفاظ على حضارة مملكة سبأ وتطويرها ، لكنهم وحسب قدرتهم يستخدمون المدرجات الاصطناعية ، التى حولت منحدرات الجبال الجرداء الى رياض مزدهر ، فى القلاع العريقة الشامخة المعبرة عن بقايا الثقافه القديمة يعيشون فى اسمال بالية بين الدخان والوساخة .

تتكون اللوحة ، كما لو ان روما بثقافتها العريقة العهد ، بالقصور وسواقى المياه ، حتى بتلك المدرجات التى لم تكن معروفة لا فى روما ولا فى اى مكان فى العالم ، لقد اخليت وانقرضت ثم غمرتها شعوب جديدة متدفقة من الخارج ، تلك القلاع التى لم تحرق ولم تخرب من قبل البرابرة كما فعلوا فى روما ، وانما قطنها ناس بسطاء فحولوها الى اكواخ متواضعة ، ولا يذكرك بانها قلاع الا مظهرها الخارجى .

والان تؤكد هذه " القلاع " الافتراض الذى عبر عنه انجليز في عام ١٨٥٨ فى احدى رسائلة الى ماركس بشكل مرئي :

" هناك اينما عاش العرب فى العربية الجنوبية (اى فى اليمن) بشكل حضرى ، فانهم قد كانوا حسب البراهين شعبا متحضرا مثلهم مثل المصريين والاشوريين ... الخ ومنشأتهم يؤكد ذلك ". (ماركس ك . انجلزف . – المؤلفات الكاملة . المجلد ٢١ صفحة ٤٨٤) .

وعلى كل حال لم تحول كل القصور الى اكواخ .

فهناك قصور مفروشة بشكل فاحش وبعد ان صعدنا مضيقا جبليا رئيسيا رأينا قصرا شامخا ارتفاعه ستة – سبعة امتار على تل بجانبنا ، وكانه قد من ثلاث قطع منفصلة ذات ارتفاعات مختلفة ، تبدأ النوافذ التى تستخدم ككوات فى نفس الوقت على ارتفاع ثلاثة – اربعة امتار من الارض – تحيط المتاريس الحجرية بفناء صغير ، التل مزروع كله بالصبار ، طريق منحنى بشكل دائرى يؤدى الى البوابات .

المشايخ الاقطاعيون

نشاهد فى الطريق مجموعة من الناس ، يتوسطهم شيخ اشيب اللحية فى ثوب ابيض فضفاض وفى خصرة جقل فضى وعلى راسه عمامة خضراء ، وبقربة خادمات بدويات انصاف عراة بقمصان مفتوحة وبعيد عنهما شاب اسمر ذو وجه حاد وعلى رأسه قبعة من القش .

ينتصب امامى كل محيط القرون الوسطى ، الشيخ الاقطاعى ، مالك القصر ، اثنان من الفلاحين (خدم او مستأجرون) ويهودى قادم من المدينة المجاورة ، يحتمل انه وصل للاتجار او لصفقة مالية .

نتبادل التحيات مجاملة مع الشيخ ، ثم نجيب على سؤال لماذا وصلنا .

- تجار روس ، ذاهبون الى الامام للتفاوض حول التجارة .

ينتهى فضولة ، اطلب منه السماح بتصويرة هو وكل الموجودين معه ، يوافق على الطلب لكنه يرفض ان يكون اليهودى معه وقد كان رفضه بحزم وذلك لان اليهودى لا يستحق ان يكون معه فى صورة واحدة وهو الشيخ ، ومع ذلك فقد استطعت ان التقط اليهودى - الذى تعمد التأخر فى الطريق - فى الصورة مع الشيخ .

المشايخ ، اليهود ، المستأجرون والفلاحون - هذه هى الميزة الثالثة التى تميز منطقة الجبال عن تهامه .

تبرز هذه الميزة بوضوح خاص لاكتمال النمط الاقطاعى النموذجى فى القسم الجبلى من اليمن ، واذا كانت العلامة المميزة لتهامة هى الاساس القبلى ، والخلافات الموجودة ، وكل المشاكل والتناقضات تدور على اساس النظام القبلى ، فاننا فى الجبال لم نسمع تقريبا عن القبائل والمشايخ وزعماء القبائل ، وبدلا من هذا تبرز صور المشايخ الاقطاعيين ، مالكى القصور ، والاراضى الزراعية الواسعة ، المراعى والمدرجات الزراعية فى الجبال .

وهذا الفارق مع ذلك ليس لصالح تهامة ، انه يتحدث عن ان الاقطاع فى الجبال قد تبلور ، بمشائخه وفلاحيه المزارعين ، بعسكره وتجاره الحضريين المحليين (بشكل غالب من اليهود) ، بالطرق الراقية لفلاحة الارض ، لقد سبقت الجبال تهامة بكثير ، تهامة التى تمارس الرعى والزراعة البدائية ، بسكانها ذوى النمط القبلى او ببساطة النمط العشائرى - البطريركى ، يعيش سكانها انصاف رعاة ، هنا فى الجبال مملكة الملك " ارتور " الاقطاعية

المبكرة من القرنين السادس والسابع ، اما هناك فى تهامة ، فان الناس لا يزالون يعيشون حتى الان نمطا بطريركيا – قبليا ، وان كان يمثل بدورة مرحلة اعلى بكاملها عن النمط الرعوى – الصحراوى لبدو الحجاز .

مرحلة تاريخية كاملة – فى خلال يومين من الطريق فى شبه جزيرة العرب ، هذه المنطقه العذراء فى الحضارة العالمية ، تحت الحواجز الرملية ، تحت اشعة الشمس الحارقة ، مثل المومياءات الفرعونية احتفظت بذاتها بضعة عهود من حياة البشرية ، عهود بدأت تهتز وتتحلل فقط تحت مطرقة الحرب العالمية ، تحت رنين الذهب الامبريالى وتحت دوى الثورة الاشتراكية .

هذه هى اول الانطباعات عن الجبال ، وهى تتعزز وتتكامل فى كل مراحل الطريق اللاحقة .

نتسلق راحفين من فج اصيل نعبر بضعة مرتفعات على المرات المتعرجة المملوئة بالاحجار وخمائل الصبار على جوانبها ، نصل الى منخفض واسع ، وبعد ان ندور حول اطرافه نصل الى مدينة مناخة ، حيث يجب ان نتوقف مرة اخرى .

تقع مناخة على المضيق الجبلى الرئيسى فى الطريق الى صنعاء ، تمتد على جانبى المضيق ، ومنها تبدو سفوح الجبال الواسعة والتى تتحول تدريجيا الى شعاب وسهول ، تغيب فى الافق الضباب الازرق ، نشاهد قرى منفردة على المنحدر الغربى تتخللها المدرجات الخضراء من القمح والذرة .

وفى الشرق نرى فجا متعرجا يتحول بعيداً فى الاسفل الى سهل اغبر بلا لون ، ثم سلسلة جبلية شاهقه من جديد ينبغى ان نصل اليها فيما بعد .

مناخة

مناخة – مدينة شرقية نموذجية من مدن القرون الوسطى ، اهتزت تحت تأثير تجارة القوافل النشطة ، هنا المرحلة الاساسية ، فهى فى منتصف طريق القوافل السائرة من الحديدة الى صنعاء ، ولهذا فان الساحة الصغيرة مملوءة بالجمال الباركة طلبا للراحة ، الحمير تنهق والبغال واجمة ، مجموعة افنية للتوقف فى بضعة شوارع – واسواق ، منطقة سكنية صغيرة ومزروعات الذرة على السفوح ، وعلى الساحة بقرب الطريق الكبيرة مبانى حكومية تلغراف ، سجن ، فناء يستخدم عنبر للقوافل فى نفس الوقت ، ومكان لوقوف القوافل الحكومية . وعلى

مسقط الجبل اينما ترفع (المدينة) تقع قلعة مراقبة فيها حامية صغيرة ، كان الاتراك يقعدون بثبات في هذه المدينة في عهد الامبراطورية العثمانية : لهذا لا يزال فيها طريق معبد ، وبها قباب جميلة لخزانات المياه وبيوت الخلاء بناها الاتراك من الحجر المنحوت ،تلك البيوت التى لا تتناغم بشكل كامل مع نمط حياة البلاد البدائية .

فى السوق كثير من الحوانيت فيها بضائع عاديه من الحبوب ، الدخن ، الذرة الشامية ، قشر البن ، وعلى العكس من اسواق تهامة يوجد هنا كثير من البقول والخضروات فى مثل هذا الوقت الخيار والطماطم وحتى الفواكه مثل المشمش والليمون المجلوبة من صنعاء ، نبتلع بشراهة هذه الثمار الاولى " فى العربية السعيدة " وان كانت قليلة وقد فقدت طعمها نظرا لطول الطريق الجبلى الصعب والقاسى من صنعاء . وفى حوانيت الاقمشة كثير من النسيج المحلى : ابسطة بيضاء بحواش حمراء ، قطع كبيرة ثخينة من قماش احمر مخطط ، يستعمل بدلا من السجاد ، مصنوعة من القطن المحلى يدويا بمساعدة انوال بدائية مثل تلك التى شاهدنها فى الحديدة ، هذا القماش القوى المتين ، والى جانب هذه المصنوعات الرائعة ، توجد وفرة من الاقمشة القطنية الرديئة والرخيصة التى ادهشتنى بوجود الماركات عليها والمصنوعه فى المعامل اليابانيه فى شنغهاى ، وقد رسمت عليها حروف صينيه ، وقد تأكدت فيما بعد ان هذه الاقمشة اليابانية الغليظه اضافة الى المنسوجات الاخرى تغطى السوق اليمنية النائية ، تنافس حتى منسوجات ما نشستر ، هذا بغض النظر عن ان اليابانيين لم يوجدوا بشكل مباشر فى اليمن ابدا ، اذا لم ناخذ بعين الاعتبار واحد ما من غرباء الاطوار منهم الذين يصطادون بعض المنتجات البحرية على السواحل قرب جزيرة كمران ، هذه الكائنات البحرية التى تشكل المادة الوحيدة للمستوردات اليابانية من اليمن والتى تسمى باللغة العربية " فرج البحر " وهى الجملة التى لا تجد مقابلا لها فى اللغة الروسية الخجولة أو لا توجد ترجمة لها فيها ، ومع ذلك ليست المسألة هنا ، فقد تذكرت نقيضا لذلك حديثا مع بعض الرفاق فى الهيئات التجارية ، حيث اصابهم الرعب لمجرد الافتراض بانه يمكن اقامة تجارة مع بلد ليس فيه مقومات تجارية بطاقم من العاملين لا يقل عددهم عن عشرين شخص كما هو مألوف ، وبما ان الاحتفاظ بمثل هذا الطاقم فى البلدان العدبيه يعتبر خسارة فقد استنتجوا بسعة افق روسى حقيقى : يعنى ان التجارة مع البلدان العربية رعونة وخيال ، وليس لها نصيب من قبل رجال الاعمال الواقعين الصائحين ، حسبما يعتبرون انفسهم ، فى حين يملأ اصحاب المعامل اليابانين الجزيره العربية ببضائعهم من المخازن فى بومباى بمساعدة شبكة متشعبة من الوسطاء (الهنود غالبا) بكل بساطة فى نفس الوقت ، وما يلفت النظر الى جانب الاقمشة القطنية اليابانية ،المصنوعات

الحريرية الصينية مثل الجوارب ، المناديل ، واشياء اخرى صغيرة من النوع الردىء بما فيه الكفاية (وقد اقتنعنا بذلك من التجربة الخاصة حيث تمزقت الجوارب فى يوم واحد) ، وتبدو هنا وهناك خردوات الحديد الالمانية - النمساوية والتشيكية ، سلع صغيرة ، خيوط ، مصابيح يدوية ، زجاج الفوانيس الخ ، اما البضائع الامريكية فتتمثل فقط بصفائح الكروسين استندرات اويل ، والبضائع الانجليزية غير ملحوظة .

نمر على التلغراف : وهو عبارة عن غرفة صغيرة ، ومدير التلغراف هو نفسه عامل التلغراف الوحيد ، يستند بمرافقيه على المنضدة ينقر على الجهاز رسالة عاجلة ببطء ، وحين دخلنا ينهض ويحيينا بوقار ، من الواضح اننا قد ازعجناه ، لان الوقت فترة ما بعد الغداء ، وهو جالس يمضغ القات وقد وقع فى حالة يكون الحديث فيها من الاعمال التى اقل ما يرغب فيها ، ساعات القات ....قد ذكرناها سابقا ، هى اكثر الساعات نعيما فى حياة اليمنى ، ففى هذه الساعات من الواحدة حتى الثالثة بعد الظهر تقريبا ، لا يستطيع فيها الفقير المدقع فقط متعة تلمس حزمة الاوراق الخضراء المحتاطة مسبقا ، ووضع نتف صغيرة منها فى الفم ومضغها يتلذذ يمسح بها لعاب سقف حلقه وعندما يكون المقيل جماعيًا تتخلله صيحات منفردة ، تعكس حالة الابتهاج نصف السكرانة التى يرفع فيها ما ضغوا القات نفسا من دخان النارجيلة بالدور ، ويرتشفون فى النادر من ماء باردا مشبعا بالبخور من اكواب صغيرة .

القات

وتحت علامة القات " مثل الفودكا عندنا المعروفة بقدر ملعوم " تمر الحياة ليس فى الريف اليمنى فقط بل وفى المدينة ، ان حزم الاوراق الخضراء الجذابة تعتبر سببا اساسيا للتبذير ، للتخلف عن العمل وسببا للجريمة ، واكمالا لكل ما تقدم فان القات يضعضع صحة المخزنين المتهورين ، كما يستخدم القات مصدرا لربح ملاك المزارع الصغيرة المزروعة بالاشجار اللطيفة المظهر ، والتى لا يتجاوز حجمها شجيرة الليلك ، ونتيجة لمضغ القات ، الذى يتم تعاطيه بدلا من الكحول والتبغ الى حد ما ، وكذلك بدلا من مجموع المتع ووسائل الترفيه المعدومة فى هذا البلد المغلق والذى يرجع ذلك الى صرامة العادات والاخلاق ، فان نصف السكان يقضى وجوههم الصحى ، كما يصابون بمجموعة من الامراض المزمنة حيث انهم يتحولون الى مخدرين عاجزين ، والنضال ضد القات لا يصعب بسبب وجود ظروف معيشية خصوصية متميزة فقط ، بل ولاستحالة استبداله باشكال ترفيهيه اخرى ايضا ، وبسبب العادة القوية العنيدة منذ غابر

الزمن ، لقد وصلت هذه العادة الى مرحلة طقوسها الخاصه ، يحكى ان الامام يحيى الذى لم تنعدم فيه طموحات التقدم والاصلاحات الجزئية فى البلاد ، فكر تحت تأثير الاطباء بالحد من استعمال القات الى درجة معينة ، وكبداية توقف شخصيا عن مضغ القات ، الا ان هذه " البدعة " واجهت بتذمر قوى من العلماء ممثلين بمجموعة من المشايخ المؤثرين ، وكشفت للرئيس الروحى والمدنى كل تناقض سلوكه مع نمط الحياة المتوارث عن الاجداد والذى ترسخ منذ القدم ، وتحت تأثير الغيورين بصرامة على الاصالة الوطنية والمشجعين بدون شك من قبل ملاك مزارع القات وتجاره ، اضطر الامام للمهادنة ، حتى انه نفسه كان يمضغ القات بعد الغداء ، كى لا يعطى رفضه للقات صفة مبدئية او قطعية .

ضيفنا مدير التلغراف بالشاهى ، وسلم لنا فى نفس الوقت برقيات تحية من سيف الاسلام محمد من الحديدة ومن عامل باجل ، هنأنا سيف الاسلام بسلامة الرحيل الى صنعاء ، التى سماها " عاصمة الخليفة " ، فى الجملة الاخيرة اشارة الى ان المؤمنين التابعين للمذهب الزيدى يعتبرون الامام خليفة لقاطبة المسلمين ، اينما يكون مقره عاصمة للمسلمين ، وعلى كل حال تضمحل هذه الصيغة فى محتواها فى واقع الحياة القاسى ، الذى لا يقدم اية اما ل لتحقيق امال الجامعة الاسلامية .

يشعر مدير التلغراف بانه ممثل السلطة العليا فينطبق بخطاب حول الخصائص السيئة للبضائع الايطالية ، معبرا عن امله فى ان تكون البضائع الروسيه على مستوى الامال المرجوة ، ثم نفترق بعد ان تبادلنا المجاملات .

فى النزل الصغير يخبرنا قائد حراستنا انه يتحتم علينا الانتظار للسفر الى اليوم التالى ، وذلك لأنه لا يوجد جمل نستبدله بالجمل الاول ، واضافة الى ذلك فقد بدا البغل الذى كان بصحبتنا يعرج ، وان السلطات قد ارسلت طلبا الى الامام حول اذا كان يمكن تغييره ببغل اخر ، انتظار جواب الامام مسألة فى غاية الاهمية ، وقد اقترح علينا ان ننام بهدوء ونسافر صباح اليوم التالى : وفى تلك اللحظة لم نتقبل بجدية حجته فيما يتعلق لا بامكانية تدخل الامام فى مسألة تغيير بغل باخر ، فارجعنا سبب التاخر الى دوافع سياسية ما او ببساطة رغبة العسكر فى الراحة فى مدينة ملائمة نسبيا على حساب " الرحالة المشهورين .

لا شك ان الأخير كان واحدا من الاسباب ، لكننا اقتنعنا فيما بعد ، ان واقعة الاستغاثة من السلطات المحلية فى حد ذاتها الى العاصمة حول مصير حيوان حكومى لا تشكل بحد ذاتها امرا عجيبا ، فاذا لم يكن الطلب مقدما الى الامام ، فانه سيكون فى كل الاحوال الى اقرب

مساعديه الوزير (يشبه رئيس الوزراء) القاضى عبدالله وانه سيكون مشغولا ببحث مسألة بمثل هذه الاهمية ، الجهاز البيروقراطى فى اليمن بسيط بما فيه الكفاية ، فاصغر القضايا توجه الى الإمام او الى رئيس وزرائه . .

الجواسيس

لقد لاح لنا فى توقفنا الاول وعن قرب ، لاحظنا نشاط مختلف النماذج الغربية ، التى من الواضح انها تتحرك باوامر احد ما من الخارج ، وهقد ظهر هذا بشكل جلى خاصة فى مناخة .

فى النزل الصغير يلاحقنا رجل رث الثياب بعناد ، يسعى دون اى طلب منا ان يتحدث عن مآزق الامام ، وبناءا على ما يقول يبدو ان كل السكان اطلاقا معبأون ضد الامام ، الجنود يهربون ، التجارة توقفت ... الخ .

الجميع يتعطشون لوصول الانجليز ، يخافون من الدمار الذى ستترتب عليه غارات الطيران ، الكل يعانى من الضرائب الباهظة .

نحاول التهرب منه ، وذلك لان معلوماته تاخذ صفة المغالاه والتحيز وتتناقض بشكل ملموس مع مجموعة من الوقائع المرئية ومع الانطباعات المباشرة التى حصلنا عليها نتيجة الاحاديث مع اشخاص اخرين ، ورغم ذلك فهو لا يكف عنا ، يتململ ، يساعد فى جلب الاشياء يسعى مزاحمة العسكر الذين يرافقوننا .

نرجوه مرة ثانية ان يكف ، نهدده بالشكوى الى العسكر ، وحين رأى انه ليس لديه اى شىء اخر يطلب " بخشيشيا " (للشاهى) والوداع ، ينزع حزامه ويحدثنا انه كان فى حينه خادما لجيكوب ، وكانه مطلوب تاكيد ذلك ، ابتزنا محتالا ريالين فضه ، ومع ذلك ظل يتابعنا طول الطريق بثبات عن بعد ، ولم يفقدنا من لمح بصره حتى وصلنا صنعاء نفسها .

بطريقة او باخرى نرتب انفسنا للمبيت ، هناك جبال ، والاثاث الداخلى للبيوت ليس مثلما هو عليه فى تهامة ، لا توجد هنا الاسرة المفتولة من القش ، نتمدد على مصاطب من الطين داخل الغرفه التى ارضيتها من تراب يوقظوننا عند الفجر وبعد ان شربنا كوبا من اللبن نمتطى البغال وبعد ان اصبحنا خارج المدينه فى طريق معبد واسع بدانا النزول فى فج عميق ، وتتحول الطريق المعبدة الى طيرق مملوءه بالحجارة ، التى لا تستطيع الخطو عليها سوى البغال ، فهى تجد بمهارة المكان الملائم لوضع الحوافر دون ان تفقد نقطة استنادها ودون ان تقع فى الهاوية الفاغرة .

من حين لآخر نصادف قوافل الجمال الطويلة ، التى كان يجب علينا ان نبتعد عنها بالقدر الممكن ، وسبب ذلك أن السير المنتظم للجمل الذى لا يلوى على شىء (لا ينظر الى ما حوله) وهو حامل رزمة او حزمة معلقة على جانبية ، قد تؤدى اما إلى ان تدفع الراكب المقابل الذى اصطدم بها الى الهاوية ، واما ان تلصقه بالصخور وتسحقه مثل الرغيف ، كان المنخفض شديد الانحدار ، وكانت البغال تسير بسرعة ، وبعد ساعتين وصلنا الى سفح السلسلة الجبلية الى سهل خانق محترق .

الباب العاشر

*من مضيق الى مضيق

*محقق

* التركى الشاكى و " شخص " فى الحديدة

* الجراد والاعلام الحمراء

* المنجم

* نتائج الرحلة



من مضيق الى مضيق

فى نهاية المنخفض ، هناك حيث يتحول الفج الى سهل جاف مملوء بالصبار ، يستقر مقهى عند السفح ، كوخ ضيق صغير يتكون من اربع او خمس زوايا ، مرصوص باحجار غير منجورة ، يمتلكه بدوى واهن بثياب رثة ، نادانا بالحاح لنستريح ، نتوقف ، يصب لنا فناجين من قهوة القشر ، ويعد لنا على الفحم بيضاً زنخا من الدخان ، وقريبا منا يحوم ابنه ، صبى فى السابعة او الثامنة من العمر .

ما هى اهتمامات من يعيشون فى هذا الكوخ علي حافة الطريق ، ما هى الغايات الاجتماعيه المثلى لصاحب هذا المقهى ، نسأل الصبى .

– ماذا تريد ان تكون عندما تكبر ؟

نظن انه سيعبر عن رغبته فى ان يصبح عسكريا ، ضابطا ، قاضيا ، موظفا ، شيخا ... فما هى الطموحات التى يمكن ان تكون لدى صبى هذا المالك ؟

– اريد ان ابقى فى هذا المقهى طول حياتي مثل ابى .

صبى سعيد ، مثله قنوع متواضع جدا وبسيط جدا تحقيقه ، يشترط ان تظل اليمن ثابته لا تتغير عشرات السنين القادمة ، وحينها سينتقل هذا الكوخ المبنى من الاحجار من الاب الى الابن ومن الاخير الي الحفيد ، كانه ضمانة لثبات مثلهم .

لكننا للاسف ، عرفنا فى صنعاء ، بان الحكومة اليمنية تشق طريقا جديدا صالحا للسيارات من الحديدة الى صنعاء ، ستمر هذه الطريق بمناطق اخرى تماما ، وتعبر شعاب وسلاسل جبلية مغايرة ، وحين ينتهى شقها ، وهى مسألة ستكون فى الاعوام القادمة ، فان سير الحمولات الرئيسى سيمر بها قاطعا الطريق من البحر الي العاصمة فى يوم وليلة ، وبهذا ستفرغ ناحية مناخة وشعابها بالكامل من القوافل المارة بها ، وعند ذلك سيتحتم على مالك المقهى واولاده القنوعين ان يتركوا كوخهم وان يذهبوا الى المدينة طلبا للرزق ، ابدا ، فان المستقبل القريب جدا لليمن يحمل فى طياته افاقا غير متوقعة لصاحب هذا المقهى ، الغارق فى غبطة ونعيم مشكوك به فى كوخه .

وداعا ايها الصغير السعيد المفكر بواقعية ، لن تكفيك نزعاتك العملية الواهمة طويلا ،

قدما نصل الى سهل تتخلله اكمات صغيرة .

السهل حار مثل سهولة تهامة ، تبطيء البغال خطوها ، تجتاز سلاسل الجبال بصعوبة ومنخفضات ينبت فيها الصبار ، تمر خمس ساعات فى الطريق ومناخة لم تختفى عن الانظار بعد ، مناخة المفروشة على مرتفع المضيق الجبلى البعيد ، نمر مرة اخرى مروراً قصيراً فى مقهى نائى على حافة الطريق ، ثم نتحرك قدما ، نرى تلالا جديدة اكبر ، واشباحا غريبة متفرقه للجمال المتناثرة على كل التل من السفح حتى القمة ، تقضم النباتات الشوكية بشراهة ، وفجأه يبدأ العسكر ينادون بكل اصواتهم مترنمين بمختلف النبرات :

– احمد بن محمد المطرى ! احمد بن محمد المطرى !

وعلى سؤالنا ، ماذا يعنى هذا الاطراء او التبجيل ، يجيب العسكر بان كل الارض التى نسير عليها لعدة ساعات يمتلكها الشيخ احمد بن محمد المطرى ، تعتبر المنطقة باكملها ملكا له ، وكل من يمر بها عادة ينادى باسمه يكرره فى مختلف المقامات .

محفق

نصل قرب المساء الى سهل جديد واسع وفى نهاية السهل جبل فى قمته قصر محفق ، هذا واحد من المراكز الاداريه المهمة ، رغم ان سكانه يشكلون حامية صغيرة ومحطة تلغراف، نتوقف للمبيت على جبل مقابل له ، حيث تقع قرية صغيرةبنفس الاسم .

لا يوجد فى هذه القرية لا التلغراف ولا السلطات ، كما لم يخطر احد بوصولنا ، يتوجه شاويشنا بنفسه ليبحث لنا عن مسكن ، كل الاكواخ مكتظه ، وبعد عدة محاولات استطلاعية فاشلة يشير الشاويش الينا على احد الاكواخ ، وحين بدانا نرتب انفسنا بجانبه ، لم نكن ندرك بعد ان اكملنا انزال حمولة البغال ، حتى ظهرت امرأه من مكان ما ، اتضح انها صاحبة الكوخ ، تمطرنا بسيل من الكلمات الغليظة داعية على رؤوس العسكر ، وربما رؤوسنا ايضا ، بكل لعنات السماء المختلفة .

نطلب مرتبكين توضيحا للقضية ، اتضح ان العسكر العابرين قد اضجروا السكان المحليين بتوقفهم اللانهائى فى هذا المكان ، اولائك العسكر الذين يطلبون الغذاء المجانى ، واحيانا تصاب الممتلكات بخسائر اخرى ، حتى اصبح وصول اى عسكرى الى الكوخ ينظر اليه بانه مصيبة او كارثة دورية ، والحالة كهذه ، يزداد غضب الامرأه ، لان الشاويش الذى يقود جماعتنا

لم يهتم بسؤالها مسبقا عن امكانية مبيتنا حتى من قبل المجاملة ، وفى سيل السباب المسعور يبدو كما لو انها افرغت التذمر المتراكم ضد العسف الذى يقوم به العسكر والصف الطويل من الضيم والمضايقات .

نعلم انه لا نعتزم شغل الكوخ ضد ارادتها ، حتى اننا بدانا فى رص العقد التى كانت قد فتحت . حينها يسوى الامر ونحصل على " الموافقة المعنوية " ، وكان الشيء الرئيسى انه بعد ان عرفت انها لن تخسر هذه المرة ، هدأت وبدأت تطهى الطعام لنا ، امتد بنا على الاسرة المتنقلة قرب المدافىء تاركين للعسكر الاندساس تحت قبته الخانقة .

التركى الشاكى و " شخص " فى الحديدة

يحل الليل سريعا ، امامنا سلسلة جبال جديدة طويلة ، يجب ان نقطعها غدا لكى نصل فى اليوم التالى الى صنعاء ، ننتهى من أكل الدجاجة التى لا تتبدل ننتظر النوم بلذة ، وفجأه ينتصب امامنا ، نموذج غريب اخر كما فى مناخة ، تركى شائب يبدو ذلك من طربوشه المهترى ، متعب معفر من رحلة طويله مشيا على الاقدام ، يبدأ يؤكد لنا بحيوية وبتشفى انهيار الحكومة اليمنية :

– يهرب الجميع من صنعاء ... الامام بسياسته انهض الجميع ضده ، توقفت التجارة مع عدن ، والبضائع مفقودة ، والطائرات الانجليزية على وشك الوصول الى صنعاء ترمى بقنابلها ، لكن السكان لا يخافون من الانجليز ، انهم على استعداد للترحيب بهم كمنقذين لهم من الامام .

يشقشق بعبارة واحدة يكررها عدة مرات .

– فليأتى كائن من كان .

نسعى الى استقصاء " انحداره الاجتماعى " باهتمام . يتضح انه تاجر تركى ، ذاهب على عجل الان الى الحديدة فيبحث عن بضائع ، بدا يتباكى على اوقات النعيم ، حين كانت سلطة الامبراطورية العثمانيه تقبض بيدها على هذا البلد واعطت مجالا واسعا للتجار الاتراك للكسب ، اما الان فان الاتراك يرحلون من اليمن ، لان التجارة تنتقل قليلا قليلا الى التجار العرب ، ظل هذا التركى متذمرا ، يتذكر باسى الايام الخوالى حينما كان فى بحبوحة من العيش .

الصورة واضحة : بقية عفنة من المحتلين الاتراك ، ممتلىء بالحقد على اليمن المستقل ، يتمنى له كل اخفاق وفشل ، يساعد بكل قوله اعداء اليمن ، ينشر كلمه بكلمة تلك النمائم المستفزة ، التى سمعناها منذ توقفنا السابق من فم " خادم جيكوب ".

وفى نفس الوقت - كما عرفنا فيما بعد - كانت قد وصلت الى الحديدة شخصية مؤثرة ، من الواضح انها مرتبطة بالانجليز (احد الوزراء المصريين السابقين التابعين للانجليز) وقد نشرت هذه الشخصية مثل هذه الاخبار واضافت اليها معلومات اخرى وقد كانت هذه الشائعات تهدف بالاساس الى ما يلى :

وجه الانجليز الى الامام انذارا نهائيا ، يطالبون بحل مشكلة المناطق المتنازع عليها (المحتلة من قبل الامام) وبمجموعة من التنازلات الاخرى ، بما فى ذلك اعطاء حكم ذاتى لتهامة ، وانه خلال الايام القادمه ستلقى الطائرات الانجليزية قنابلها على كل المدن اليمنية بما فيها العاصمة ، والاسطول الانجليزى سيمسح الحديدة من على وجه الارض ، ستنتفض القبائل ضد الامام وستنتقل السلطه الى يد شخصية اكثر مقبولية لدى الانجليز ، وما دام هناك متسع من الوقت ، يجب التنازل ، واقناع الامام بتقديم تنازلات ، وطلب المسامحة من الانجليز .

فى هذه الايام ، ظهرت بارجة انجليزية على سواحل الحديدة ، وكأنها صدفة ، وقد كررت هذه الشخصية بالحاح تشير باصابعها عن يمين ويسار باتجاه البحر :

- اترون ، انهم قد اتوا ، اذا لم يكن اليوم فغدا سيبدأون القصف .

وحين اصبح واضحاً ، ان الحكومة رفضت مطالب الانجليز بالتنازل ، اكدت هذه الشخصية بجزع :

انتهى اليمن ، ليس له من خلاص .

وفى نفس الوقت حاولت هذه الشخصية ، اقناع الوجوه المؤثرة فى الحديدة بالاقدام " من اجل المصالحة الوطنيه " على استبدال الامام يحيى بشخصية ما اخرى ، ولو حتى على نطاق تهامة ، لقد كانت التربة غير ملائمة لتجار الحديدة ، فرغم انهم قد ارتبطوا بالشركات الاجنبية ويتاوهون تحت التأثير المتعاظم للسلطة المركزية ، التى تسلك الى ارباحهم التجارية ، الا انهم لم يتجرأوا على الدخول فى صراع مكشوف مع صنعاء ، لان علاقتهم بالسوق الداخليه وخوفهم من التنكيل غلبوا على انفسهم واستسلموا استسلام الكمبرادور المتذبذب ، وبالمناسبة ظهرت هذه الشخصية " امام رفاقنا الذين بقوا فى الحديدة ، محاولة اقناعهم باخطارنا تلغرافيا عن

الموت الذى يهددنا فى صنعاء، وعمل كل شىء من اجل عودتنا من الطريق باسرع ما يمكن .

وهكذا ، انه اجزاء متفرقة ، من انطباعات متقطعة كانها محض صدفة ، وقليلا قليلاً تتضح الصورة المعقدة للشبكة العنكبوتية من الدسائس والاستفزازات ، التى ينسجها بمهارة رؤساء عدن المجربون ، وقد تأتى لنا لاحقا ان نصطدم بنتائج وظواهر هذا العمل فى صنعاء .

اليوم قبل الاخير من رحلتنا، صعود طويل وشاق ، نعبر المنطقه ، التى اشتهرت بانها المعقل الرئيسى لنشاط الثوار اليمنيين فى عهد الاحتلال التركى ، نرى هنا وهناك على قمم التلال ، ابراج المراقبة التى بناها الاتراك ، نتوقف فى الظهيرة فى قرية صغيرة اسمها سوق الخميس ، هنا تبدأ منطقة مزارع البن مرة اخرى ، وسهل الحيمة المشهور غير بعيد من هنا ، هذا الوادى الذى سمى باسمه صنف من اصناف البن اليمنى ، اتى الينا تجار البن يقترحون علينا عقد صفقات مباشرة هنا للتخلص من وسطاء الميناء ، كما ياتى الحكام المحليون ، بدأ احدهم حديثا مفتوحا مع قائد حرسنا حول المثل السياسية " للاعضاء النشطاء " من المجموعة العسكرية اليمنية ، يثبت لنا بان اليمن مؤهلة لتوحيد شبه جزيرة العرب تحت سلطتها ، بل وحتى توحيد الهند ومصر ، حيث يوجد اتباع ومريدون للامام . نرى ان هذا هو برنامج الحد الاقصى ، الموجود فقط ارفع همة فئه نشطه واسعة ، ثم عرفنا فيما بعد واقتنعنا بانه لا يوجد لدى الاوساط اليمنيه الحاكمة مثل هذه الاوهام ، وانها تفكر بطريقة اكثر واقعية ، تطمح لان يتعزز استقلال اليمن فى حدوده الداهنه ، لانها فى قوتها الانتاجية بهذا القدر ، اما طموحها فى التوسع فلا يتمثل الا بشكل الحاق بعض المقاطعات فى الشرق والجنوب الشرقى (مارب وحضرموت) .

الى الامام قدما ، نمشى اعلى فاعلى ، لقد اصبحنا على ارتفاع اكثر من ثلاثة الاف متر فوق سطح البحر ، وعلى طريق واسع مقوس الشكل ، تتعرج حول منخفض سحيق ، مغطى بطيات كثيفة تتالف من مدرجات البن ، ندور حول وادى الحيمة ، الذى تتصاعد من قرارته سحب مظفرة . وبعد ان نخلف بمجموعة هضاب صخرية ، نهبط الى نهير صغير ، حيث تبدأ طريق معبدة صالحة بما فيه الكفاية لعبور السيارات ، وقرب الجسر وعبر النهرين صف من المبانى الحجرية ، هذا هو سوق الخميس، حيث يشتغل السوق يوما فى الاسبوع (يوم الخميس) لكل المنطقة ، لكن السوق الان خالى ، لا يرى احد فى المبانى الحجرية ، نتابع سيرنا فى الطريق المعبد الواسع ، الذى لم نتوقعه ، نتحسر على عدم وجود سيارة يمكن ان نبلغ بها صنعاء خلال ساعتين او ثلاثة .

تتعرج الطريق على هضبة سهلية مارة بالمضائق الجبلية القليلة الانحدار ، بين الاراضى الخضراء الشبيهة برقعة الشطرنج ، تخضر مزارع الذرة والقمح ، وتصادف قرى ليست من الاكواخ البسطة وانما من مبانى ضخمة تتالف من ثلاث او اربع طوابق ، يقال انها بنيت قبل الف سنة ، كلها قصور قروسطية بكوات وابراج مراقبة ، تقع على المرتفعات تلتصق بمرتفعات الجبال ، لا يمكن الوصول اليها فى حالات الهجوم الا من جهة واحدة فقط ، نشاهد خزانات المياه الحجريه الواسعة التى بناها الاتراك على طول الطريق المعبدة الرائعة ، لقد ارهقنا ، تعد الساعات المتبقية للوصول الى متنة مكان المبيت الاخير .

فجأة ينتعش مرافقونا ، يتبادلون النظرات بهلع ، يشيرون الى سحابة غبراء بعيدة .

الجراد والاعلام الحمراء

– الجراد ، الجراد – نسمع الاصوات المتقطعة .

نحملق فى السحابه الغبراء ، نرى كيف تتسع متحولة الى سديم كثيف ، تغطى الافق الذى كان صافيا قبل برهة قصيرة ، نمضى نصف ساعة واذا بنا ندخل فى عمق هذه السحابه من اسراب الجراد المنتشرة .

تضربنا الحشرات باجنحتها ، تصيب اذاننا ، كما تصيب البغال وترتمى اكداسا على الطريق تشكل غطاءا كثيفا تخطو حيواناتنا عليه وكانها تخطو على بساط .

ومن حولنا – ارض ... مزدهرة ، زرع اخضر يتحرك بالكاد من البرودة الطرية للهضاب الممطرة ، لقد طوقتها الجموع الشرهة بكثافة .

نضال ؟ ... لكن ايمكن ان نسمى هذا نضالا ؟ ... ففى بعض الاماكن المنفردة التى تقطعها السواقى يركض اناس منفردون ، غالبيتهم من النساء والاطفال يلوحون بمراوح كبيرة مخشخشة ، ان طرد الجراد من الحقول بهذه الطريقة تشابه تقريبا طرد سحابة ممطرة بطلقة بندقية ، فقط فى بعض الحالات وحين يكون الريح ملائما يستطيع بعض المحظوظين الفرادى جعل اسراب الجراد المتدفقة على قطع ارضهم تنتقل الى قطعة مجاورة قبل ان تلتهم الاخضر واليابس ، لكنه بشكل عام ، يبدو الانسان ضعيفا عاجزا وكائنا حقيرا امام جحافل الحشرات النهمة التى لا تقهر ، تلتهم الجراد بالدور كل الاراضى ، مستغله العادة الذاتية لمالك الارض ، الذى يسعى للمحافظة على ارضه فقط ، ولا يهتم بجاره قليلا ، ولو نهضت كل القرية وتعاونت

على طول الخط فى مكافحة الهجوم بقوة موحدة ، لكان من المحتمل تحقيق نتائج ما معينة ، غير انه لا ذكر للنضال المشترك . تلويحات ، خشخشات بهيجان شديد ، تركض النساء والصبيان بهستيرية بمراوح كبيرة ، لكن بالكاد يستطيع واحد بالمائة طرد العدو الجائم .

... وفيما بعد ، بعد شهر ونحن فى طريق العودة ، نشاهد قطع الارض السوداء المحروثة من جديد، بدلا من الزرع الاخضر والاغصان الناضجة ، لقد اكلت الكتلة الجسيمة النهمة الزرع ، وتابعت هجومها قدما ، فى اعماق البلاد حتى وصلت الى الصحارى فيما وراء الجبال النائية .

تذكرت كيف لاحظنا اسراب الجراد فى جدة ايضا ، القادمة من الصحارى الى سواحل البحار ، التى تناثرت حتى على سطح سفينتنا ، غير ان الحجازيين فى تلك الارض القاحلة ، لم يلعنوا هذه الكارثة بتاتا ، وانما كانوا يجرفون اسراب الحشرات فى اكياس ويعدون منها غذاء ، يمتصون الجراد بشراهة بعد ان يرموا باجنحتها القاسية ، لا شىء فى صحارى الحجاز يمكن ان تلتهمه الجراد ، بل على العكس فان افواه البشر الجائعة هى التى تلتهمها .

الصورة النسبية عن الخير والشر مفهومة ، فالجراد فى الحجاز هو نعيم هبة السماء ، اليس الجراد هو الذى تغذى به اليهود المذكورين فى الانجيل بدلا من " السميد " ؟ ... بينما يعتبر الجراد شرا رئيسيا ، مأساة ، يقضى على ثمار عمل الانسان الدؤب فى " اليمن السعيد " .

لا يمكن الحديث عن تنظيم الدولة لمكافحة الجراد ، فالمكافحة تتم بالمراوح والخشخشة فقط ، واحيانا بالاعلام الحمراء التى كتبت عليها الدولة " لا اله الا الله " باحرف بيضاء من اجل ان يكون النجاح حليف مطاروى الجراد ، لقد كان غريبا بالنسبه لنا ان نرى هياكل نصف عارية خلف الاراضى المغمورة بالجراد ، وهى تلوح بالاعلام الحمراء كانت هذه الهياكل تركض من طرف الى اخر ، وكانهم ثوار يحملون يافطات الدعاية ، هنا وهناك ترفرف ، لكنهم يلوحون بها ليس من اجل الانتفاضة وانما نوبة عجز ، يحاولون صد الهوام الحقيرة الضعيفة التى تحولت بقوة جموعها الى جيش عارم لا يقهر .

نقترب حتى نصل الى مكان خالى (وكل السكان فى الاراضى التى طالتها الجراد) ، سيكون مبيتنا الاخير فيه .

يسمى هذا المكان فى الخرائط التركية سنان باشا ، باسم الجنرال التركى الذى احتل اليمن فى وقت عصيب ما ، يصدم هذا الاسم الاذان اليمنية ، ويسمون هذا المكان بكلمة قصيرة

" متنة " التى تعنى " مدينة " صغيرة بكل بساطة .

وهذه المدينة الصغيرة " تقطعها طولا وعرضا خلال خمس عشرة او عشرين دقيقة فيها بضعة منازل قديمة ضخمه ، وخزان مياه واسع تشكل مركزها ، وبجانب الخزان مبنى تشغله الحامية والسلطات ، نسكن فى احدى البيوت ، فى الطابق الثالث ، نشاهد من اعلى السقف الاملس المزارع المحيطة الخضراء ، والجبال القريبة والبعيدة ، وقطيع من الجمال السارحة التى تأخذ مكانها بين جدران الفناء الحجرية القريبة من دارنا .

الجو بارد ، الريح تصفر ، تنتابنا رعشة ، الارتفاع هنا اكثر من ثلاثة الاف متر ، يكون الجو باردا فى الليل حتى فى الصيف .

يقدمون لنا الدجاجة المغلية التى لا تتغير ، المسلوخة الجلد والدهن ، يجيبوننا ب " مافيش " المستمر حين نسأل عن وجود اى طعام اخر ، لقد كانت كلمة " مافيش " تتخلل كل رحلتنا من الحديدة بثبات .

والخمسة والثلاثون صنف من العنب التى حكى لنا الشائب عنها فى الباخرة ، كل هذه الاصناف توجد على بعد عشرين او ثلاثين كيلومترا من هنا ، اما هنا فلا توجد سوى البدائية والشحه نفسها ، تلك الشحة التى صادفتنا على طول الطريق من الحديدة.

المنجم

يقطع تاملنا ظهور منجم ، عجوز طويل نصف عارى وفى يده مسبحة ، ياخذ يقرأ المستقبل ، نوافق ببعض الابتسامه .

يقدم لنا سبحات الكهرمان ، يطلب منا دلكها بالبشرة ، يجعلنا هذا ناسف على الموافقه التى اعطيناها له ، غير ان تراجعنا صار متاخرا ، يبدأ المنجم بالتحديق فى المسبحة يهمهم بشىء ما ، يخيب املنا ، فبدلا من ان يتنبأ بالمستقبل او يعطينا تنبوء حول الحاضر ، الذى يمكن أن يكون شيقا لمعرفة نفسيته ، نسمعه يعدد امراضا فينا ليست موجودة فى الواقع ويقترح علينا معالجتها ، هذه الامراض غير موجوده فينا ، نرفض طلبه ، ونشكر خدماته ، ثم نطرح على العجوز سؤالا مباشرا ماذا يفكر عن رحلتنا ونتائجها المحتملة . ؟

لا يخلو جوابه من خبث :

- اهدافكم القريبة ستبلغونها اما البعيدة فلا .

الجواب غير مرغوب فيه كثيرا .

نسأله ايضا :

ماذا تفكر عن الحرب : هل تتوقع الحرب ، وبماذا ستنتهى ؟

هنا يستسلم العجوز ، انه مستبعد للتنبوء بمستقبلنا ، لكنه لا يرى مستقبل بلاده .

- اجاب عن هذا ، الله وحده يعلم - يقولها بصراحة ، وفجأة يتوجه الينا ينتقل الى الهجوم المضاد .

- قل ماذا تفكر انت عن الحرب ؟ هل من المؤكد ان الانجليز سيطيرون ويدمرون قرانا ؟

ينتقل دور التنجيم الى ، رغم عدم وجود مسبحة عندى ، لقد حرمتنى من امكانية الانتقام من محدثى الذي اجبرنى على ان المس الوسخ المتراكم فى قرون المسبحة .

اجبته بلهجة اقل صوفية او ابهام :

- ان يطيروا او يرموا القنابل ، هذا امر كبير الاحتمال ، اما ان يدمروا القرى والمدن فهذا قليل الاحتمال ، لانهم لا يستطيعوا ان يلحقوا بها اذى كبيراً .

نتائج الرحلة

تخالصنا ، هو ايضا غير راضى عن اجابتى المراوغة ، يقترح مرة اخرى اشفائنا من جميع الامراض الوهمية نتوادع ، اعطيناه بقشيشا ، ثم يذهب .

يحل الظلام ، اخرج الى السقف المستوى ، تهب ريح حادة باردة ، وبقايا المزارع التى التهمها الجراد مخضرة بشكل باهت ، استحضر فى فكرى المراحل التى قطعناها من الرحلة ، تهامة الغبراء المضنية ، اشجار الاثل الخضراء فى سفوح الجبال ، الحيود الصخرية فى مضائق الجبال ، اشجار البن المتواضعة ، الصبار الشوكى الخبيث ، الخطو العنيد للبغال اللطيفه التى لا تتعثر ، الابراج التركيه العديمة النفع ، قصور المشايخ ، الجمال البليدة ، الحمير الذكية الحثيثة ، البغال الصبورة الواثقة من نفسها ، الببغاوات ، القرود فى الاحراج والجرادين فى المنعطفات الصخرية .

البشر السود ، بدو تهامة الذين نخرهم القيظ والغبار ، سكان الجبال الرشيقون ذوى اللحى السوداء العسكر المعممون واشرطة الذخيرة فى اجسادهم النصف عارية ، واقدامهم التى حولتها قيظ الطرقات الى نعال جلدية .

المساحة الشاسعة الخالية قصور المشايخ التى تحيط باسوار منيعة ، الفلاحون الذين ينضحون عرقا فى المزارع والحقول ، الاعلام الحمراء ضد اسراب الجراد ، المشايخ النقيو الدم على صهوات الجياد الاصيلة ، الجمالة ذوى الوجنات الناحلة ، القوافل المربوطة بسلاسل طويلة ... صفائح الكروسين وصناديق الذخيرة على ظهور الجمال والحمير ، قطعان الضأن والماعز التى تقضم الحشائش الشحيحة من اجراف الصخور ... رمال ، خضرة ، صخور ، مضائق جبلية ، سهول - وها هى الرياح الباردة الحادة الان ، وامامنا اخر سلسلة جبلية تحجز العاصمة .

اعود الى غرفتى ، وهى مليئة بالذباب ، رائحة الدخان الحادة تتسلل من المطبخ ، يغلق رفيقى النافذة ، وعواصف الرياح حادة عنيفة ، ننام لاول مرة منذ عبورنا قناة السويس والنوافذ مغلقة ، امتطى على السرير المتنقل الذى يئن وانام اخر نومة فى الطريق الى صنعاء .

الباب الحادى عشر

* " الامام مستاء "
* فى عهد الاتراك ام الآن ؟
* الطبقات الاجتماعية فى اليمن
* وادى صنعاء الخيمه البيضاء فى صنعاء
* النسور فى القاذورات



" الامام مستاء "

انهضوا بسرعة ، لقد اشرقت الشمس ...

يصرخ العسكرى بالحاح ، يقرع باب غرفتنا بلا كلل ، لسنا ضد ان نواصل النوم ايضا ، الطريق قد اخذت حقها ، لكن لا وقت للراحة .

انهضوا سريعا ، الامام مستاء .

نعلم ان القضية ليست في الامام ولا في استيائه ، فالامس ، اليوم الثالث من الرحلة ، حين استعجلنا مسرعين ، نسعى لكسب يوم زائد ، وحين حثينا البغال ، حاول العسكر انفسهم اعاقة حميتنا بنفس هذه الحجة .

– لا يجب الاسراع ، هذا صعب على البغال ، سيكون الامام مستاء .

حساباتهم مفهومة : سابقا ارادوا السير ببطء ، غير مكترثين ، يحصلون على طعام جيد من " الاجانب الوجهاء " ، اما اليوم – فانهم بهذه الطريقة او تلك – فهو يوم الوصول الى العاصمه ، وهم يرغبون بالوصول اليهم باكرا ، كي يدركون الغداء والراحة حتى المساء ، – وها هو الامام – مرة اخرى حجة وسبب للاسراع هذه المرة .

نتذكر ، ان كل الموظفين ، جميع سائقى الجمال والحمير ، والتجار على طول الطريق كانوا يرجعون جميع الذرائع والاعذار الى الامام ، وما عدا الامام ، الله هو الحجة الوحيدة لتبرير اى شىء كان الذى يتحمل الامام باستكانة وبقدر اقل من الصحة ، كل المسؤولية عن مختلف ظواهر التقصير والتهاون والمماطلة وقد تحتم علينا ، فيما بعد ، فى صنعاء الدخول فى مماحكة مع عمال التلغراف ، الذين كانوا غالبا وبعناد ما يؤخرون مراسلاتنا مع الحديدة ، يعللون ذلك تعطيل الخط بمشيئة " الله " : لقد كانوا يردون على محاولاتنا الساذجة المستعجلة حين نستفسر متى سيتم اصلاح الاعمدة التى اسقطتها العاصفة يردون دائما بجواب واحد مفحم ببساطته المقنعة :

– عندما يشاء الله (ان شاء الله بكره (.

ان " كلمة " الله فى شبه جزيرة العرب ، تشبه قانون رياضى ، تعنى كل ما هو غير مرئى

ومجهول ، وجملة " ان شاء الله " هى واحدة من اكثر العبارات العربية الكثيرة الانتشار ، تلتصق هذه العبارة فى حقيقة الامر بكل عظة او حكمة ، تدل على الاستمالة الدائمة للتنبؤ الدقيق فى ظروف العفوية البدائية ، واذا الصقت " ان شاء الله " باى عبارة تتعلق بالمستقبل ، فانها تضفى عليها علامة التقريب .

– متى سنصل الى صنعاء ؟ – نسأل مرافقينا بفارغ صبر .

– خلال ثلاث ساعات إن شاء الله – يجيبون علينا

وهكذا سنصل صنعاء اليوم " ان شاء الله " ، نستنشق الهواء البارد العليل بشراهة ، نحدق فى اخر سلسلة جبلية تفصلنا عن وادى صنعاء يرفرف الهواء بعيدا بهدوء ، نشاهد سنابل الذرة والقمح مخضرة وبانتظام فى الحقول التى لم تمسها الجراد التى تزحف جانبا فى مكان ما .

نشاهد القصور المتعددة الطوابق على الجوانب ، والبيوت الطينية الملحقة بها ، القرية تتكون من مبانى متكدسة ذات قالب واحد ، تحيط بها اسوار حجرية ضخمة وبوابات وحيدة تغلق ليلا ، تتعرج الطريق فى السهل ، تغوص احيانا منخدرة ، واحيانا تزحف متسلقة الى الهضبة المرتفعة ، نمر على صخرة ضخمة ، بحجم ناقوس القيصر محفور بداخلها وبها فتحة كانه باب ، انها ملجأ لا يمكن ان تخترقه الامطار والرياح فقط ، بل والرعد والبرق والرصاص والقذائف ، لا يعلم احد منذ متى هذه الصخرة هنا ، مثلما لا يعرف احد تاريخ ظهور صنعاء ، وتاريخ بناء القصور والقلاع التى مرينا عليها فى الطريق ، والاستفسار غير مجدى ولا ينفع ، اذ ان الجواب واحد هو : يعلم الله وحده متى بنيت ، نمر بقرب مبانى مبهمة مليئة باسرار التاريخ القديم ، قرى ، منشآت ، ادوات ، نحملق فيها بنهم ، وكل الاجوبه على اسئلتنا هى اجوبة هادئة وقصيرة باستمرار :

– لا ندرى ... الله يعلم هذا ...

فى عهد الاتراك ام الان ؟

نسأل عن موضوع اخر ، حول الحياه الفلاحية ، هل كان الوضع افضل فى عهد الاتراك ام الان ... يؤكدون ان الوضع صار افضل ، كانت السلطه سابقا فى المناطق تخضع للمشايخ بدون رقابة ، كان الشيخ يعطى الارض للفلاحين ، وربما يقرضهم البذور ، ويأخذ مقابل كل ذلك

ريعا على شكل نصف المحصول ، ويدفع قسطا صغيرا من قيمته النقدية للخزينة التركية ، وكان الفلاحون يخضعون خضوعا كاملا للمشايخ بدون حدود .

وحين خرج الاتراك وتعززت سلطة الامام فى صنعاء ، ضعفت له سلطة المشايخ فى المناطق ، وبرز موظفوا الامام المرسلين من العاصمة ، يجمع هؤلاء الموظفون العشر بانفسهم حيث استغنوا عن وساطة المشايخ ويسلمون الضرائب لخزينة الدولة ، لم يختفى العسف والغبن عند الجباية بطبيعة الحال ، لكنه ضعف مع ذلك ، يبدو كما لو ان تحصيل العشر وضرائب المشايخ لم تطبق ، المشايخ مستاءون ايضا لان الفلاحين اصبحوا يقومون بتادية الطاعه العسكريه فى الجيش الامام متخطين بذلك المشايخ ، وبدأت تظهر المدارس فى القرى ، وتقوم الحكومة بتنظيمها ، كما تقلص تاثير رجال الدين المحليين ، غير ان بوادر التحسن هذه ليست كبيرة ، لكن مجرد حادثة ضعف سلطة المشايخ فى المناطق ، الخضوع لسلطة حكومية موحدة عامة ، امر يشجع السكان ، الذين يرون فى السلطة المركزيه ممثلة بشخص الامام ، ضمانه من نوع ما ضد العسف الجائر الذى ساد سابقاً .

يتضح لاحقا ان الضرائب لم توزع بالتساوى : ففى الوقت الذى يدفع فيه الفلاحون عشر المحصول على اقل تقدير ، يتملص اصحاب المدن من دفع قسط الى الخزينة يقدر باثنين ونصف فى المائة من محصول ايجار بيوتهم ، كما يحدد هذا القسط بمقاييس ما قبل الطوفان ، حسبما قال لنا احد الملاك " كلمة شرف " ، ويضغط غياب القروض على الفلاحين بقسوة ، والبنوك لا ذكر لها (لقد حرمها القرآن) ، ومن اجل الحصول على القرض يجب التوجه الى الشيخ ، والشيخ لا يعطى الا التاجر فقط ، رافضا بمرارة اخذ الربح (الى حرمه القرآن) ، لكنه بدلا من ذلك ياخذ حصة الاسد من الربح الذى سيحصل عليه التاجر بفضل هذا القرض فيما بعد ، وتصل هذه الحصة الى ثلث ربح التاجر ، يظل الضمير ساكنا (فالقرآن لم يحرم ذلك ورسول الله لم يخدع) ورأس المال يتضاعف

الطبقات الاجتماعية فى اليمن

اما الشيخ فيعطى الفلاحين سلفة لفلاحة الارض المؤجرة منه احيانا . ثم يسترد هذه السلفة بربح عينى زائد بالاضافة الى نصف المحصول الذى يحسب على شكل ريع للارض .

والتجار لا يدفعون الضرائب كما يعفى ماكوا المواصلات منها ، وذلك لانه يفرض العشر

على البقر والماعز وما شابه ، لكنه لا يفرض على دواب النقل والمطايا ، هذا مربح للتجار بدرجة اولى من جديد وذلك انه يجعل نقل البضائع من الموانئ الى عمق البلاد والعكس رخيصا ، يتكسب من هذا الملاك الميسورون فى الريف ايضا ، الذين يمتلكون مجاميع من دواب النقل ، التى يستخدمونها لنقل البضائع وعلى هذا الشكل يتكون سلم اجتماعى فريد ، يقف فى اعلى السلم المشايخ الاقطاعيون الذين يمتلكون سلطة سياسية حقيقية ، وامكانية استغلال الفلاحين ، ونوعا من الضغط على التجار ، ويمتلك الاخيرون بدورهم سلاحًا قويا فى التأثير على المشايخ ، ويستحوذون على قسم من ارباحهم لأنفسهم ، يلعبون دور الوسيط ، يشترون البن والحبوب وبضائع اخرى من المشايخ فى محلاتهم مباشرة ، وحين تصل هذه الى الميناء تباع البضائع من جديد يدفع التجار ضرائب قليلة ، ولا يزاحمه احد فى حرية التكسب

ويكون الاخير على حساب المشايخ جزئيا ، وعلى حساب الفلاحين بالدرجة الاولى ، لانه يشترى البن منهم بثمن ارخص ، ويبيع البضائع الاجنبية عليهم بربح خمسين فى المائة – او مائة فى المائة .

وفى الاخير يجبر الفلاح على العمل لحساب الجميع : للخزينة التى يدفع العشر لها والقيام بالخدمة العسكرية ، وللشيخ ، الذى يدفع له نصف الغلة ، كما يقوم الفلاحون بتادية عدة اعمال حسب نظام " السخرة " ، للتاجر الذى يقدم له امكانية الكسب بالتبادل البضاعى ، ان كل مجموعة من هذه المجموعات الاساسية الثلاث تنقسم بدورها الى مجموعات من الفئات المختلفة :

تتميز فئتان اساسيتان من الاقطاعيين – المشايخ ، الفئة الاولى من ابناء الارستقراطية القديمة المالكه للارض ، انها تتألف من الملاك القدماء الذين ورثوا الارض ومزارع واسعة ، والفئة الثانية الاكثر تأثيرا بينهم هم السادة الذين يدعون انحدارهم من سلالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، هؤلاء هم حملة التقاليد القديمه الاكليركية رجعية فى اليمن ، وهم من الناحية الاقتصادية سلالة متجمدة آفلة ، غير قادرة عضويا على التكيف للظروف المتغيرة فى شبه جزيرة العرب الهامده ، التى بدأت تهتز فى السنين الاخيره فقط ، مصادر دخلهم الاساسيه هو ريع الارض ، الذى يستلمونه على شكل بضائع مجبية وفقا لنظام المناصفة ، تتراكم فى مخازنهم احتياطات الحبوب ، الصوف ، الجلود ، التى تحفظ فى صناديق جامدة بدون حركة ، واكداس الفضة والذهب والاحجار الكريمة ، الاقمشة ، السجاد ، الاوانى والاسلحة ، انهم يحتقرون التجارة ، ولا يفكرون بالصناعة ، ويعطون البضائع المكدسة للتجار من حين الى

اخر لاعادة بيعها ، بينما هم يقعدون بلا حراك على السجاجيد ، يدخنون النارجيلة ، يمضغون القات يتصفحون الكتب الصفراء او يتنعمون في مخادع نسائهم الكثيرات اربع زوجات شرعيات ، بالاضافه الى عدد غير محدد من الجوارى ، يمنعون حتى التفكير باى نزعة جديدة كانت ، يفكرون بشكل مقدس ظل ثابتا لم يتغير منذ عهد نوح ، وملكة سبأ ، وسيظل هكذا ثابتا لا يتغير الى ابد الابدين ، مستعدون بشراسة مقاومة كل محاولة لتصنيع البلاد ، واقامة علاقات مع الخارج ، يخيفهم منظر السيارة ، يعدون الوقوف امام عدسة التصوير عيبا ، ويعتبر بالنسبة لهم حتى الامتناع عن القات تدنيسا للمقدسات ، مثلهم العليا هى شبه جزيرة العرب المتحجرة الثابته مثل القصور التى لها الاف السنين والتى يعيشون فيها ، العمل فى الارض نصيب سواد الفلاحين ، التجارة والحرف – يمارسها " اليهود الكلاب " المحتقرون ، اما هم فانهم حملة تقاليد الماضي التليد ، وملزمون بالحفاظ عليه وعلى عفونته فى الصراع ضد الكفرة الاجانب .

– هؤلاء – البلداء ، الذين يرون الكفر وعدم الاستقرار فى كل مكان ، حتى انه لم يسلم الامام وابناؤه من نقدهم اللاذع المتعنت .

بدأت هذه الفئه تفلس ، تتضائل ، قليلا قليلا ، تصبح جزءا من الماضى تضمحل حتى فى اوساط المشايخ الاقطاعيين ، نسمع اصوات اقطاعيين محدودين جدد ، لا يقبلون الموت احياء فى العفن العظيم ، وانما يسرعون فى السير قدما ، من اجل ان يغالبوا الرياح الجديدة ، يمتلك هؤلاء الاقطاعيون اراضى مزروعة واسعة ، لكنهم لا يمتلكون وراء ظهورهم حملا ثقيلا من النسب الرفيع ، لا يتقززون من التجارة والحرف ، ولا يبالون ابدا بترك الارباح للتجار الهنود واليهود ويتفاخرون بالصمت وملاعبة مسابحهم ، يسعون بانفسهم ، عن طريق العمل الماجور او السخرة ، فى تصفية البن ودبغ الجلود ونقلها الى الميناء ، يسعون لبيع بضائعهم فى الخارج مباشرة او عن طريق متعهدين مؤجرين ، ولا يأنفون من شراء البضائع الاجنبية فى الميناء – الكروسين ، الدقيق ، ونقله الى داخل البلاد من اجل اعادة نقلها ، لقد عرفوا سخف مراكمة الثروات غير المثمرة ، يسرعون الى الاندفاع فى البحر العارم بالمضاربة التجارية التى يجهلونها جهلا بسيطا ، كى لا يتركوا لليهود والاجانب الاثراء على حسابهم المشايخ ، هم هذه الفئة الاقطاعية ، التى تطورت الى فئة من التجار – الصناعيين ، التى تعززت فى فترة الحرب حين سقط دور التجار الاتراك واليونانيين – تزايدت هذه الفئة بفضل انحدارها من الاسر الثرية للملاك الزراعيين ، ظهر مشايخ جدد اتوا من المناطق النائية فى البلاد ، هؤلاء المشايخ من

الملاك الاثرياء ، والسماسرة صاروا يجمعون فى ايديهم اراضى وعقارات الاسر الارستقراطية المفلسة مشيعة الامبراطورية العثمانية " التى صفيت كطبقة " ، لقد تزعزعت اركان الاقطاعيه القديمة ، والقسم العنيد من الارستقراطية القديمة فسر القرآن بما يلائم العصر بعد ان اغمض عن عينه تقاليد الاسلاف ومد يده لملاقاة الناشئين الجدد ، وبدأت تتشكل وتتعزز طبقة جديدة من الاقطاعيين ، الذين اتخذوا شكلا تجاريا - صناعيا اكثر قرب الى العصر ، لا يستنكفون المضاربة المالية والتجارة المكشوفه ، يركبون السيارة بكل ارتياح ، وبزهو واضح يعرضون انفسهم بمختلف الاوضاع امام الات التصوير .

يشربون النبيذ الذى يشترونه من اليهود ، دون ان يتركوا القات ، لا يخافون من العلاقة من الخارج ، بل على العكس ، انهم يسعون بعجلة على نزع احتكار الارباح من التجارة الخارجية من ايدى الهنود واليهود ، ولا يبتعدون عن امتلاك متاعا اوروبيا فى بيوتهم ، يلبسون الاحذية الاوروبية بل وحتى يلبسون احيانا ارضاءا للموضة ، نظارات لا حاجة لها ، على عيونهم السليمة الصقرية ، يحلمون بجلب المكائن الزراعية وبناء معامل النسيج ، لم يعد " التدين " بالنسبة لهم عقيدة جامدة ثابتة لا تقبل الجدل . يميلون للسخرية من اخوانهم فى الطبقة الاكثر تخلفا ، كما انهم يقرأون الصحف المصرية ، هؤلاء هم القسم الاكثر تقدما من الاقطاعيين ، الذين يعدون كوادر البرجوازية التجارية - الصناعية المستقبلية فى اليمن وهذا القسم هو اكثر قاعدة اجتماعية قربا من الحكومة فى البلاد .

التجارة ، البرجوازية ، يمكن تمييز فئتين اساسيتين منها شأنها شأن البرجوازية فى بلدان الشرق ، الفئة الاولى - هى النموذج التجارى الكمبرادورى ، تجار الجملة ، الذين يرتبطون بالسوق الاجنبية مباشرة وممثلى الشركات الاجنبية فى اليمن ؛ لقد كانت التجارة الكبيرة والعلاقات الخارجية قبل الحرب تقع كلها فى ايدى العناصر غير العربية : الاتراك ، الهنود ، اليهود ، اليونانيين والفرس ، لم يعد الاتراك الان موجودين ، لكن الهنود فى الحديدة واليهود فى صنعاء والمناطق الجبلية الاخرى ، ما يزالون يحتلون وضعا مهيمنا فى التجارة الخارجية للبلاد ، اما الاماكن التى خلت بعد خروج الاتراك واحتلتها العناصر العربية . فانها لم تزل قليلة بعد ، هذه الكوادر الكمبرادورية هى القاعدة الاساسية للمجموعات المتأثرة بالانجليز ، وصنيعا للمعارضة ضد السلطه المركزية ، والحديدة هى عشهم .

الفئة التجاريه الاخرى هى من التجار الصغار والمتوسطين ، ملاك الجمال وقوافل الحمير ، الذين يتاجرون داخل البلاد ، يوزعون البضائع ويشترون المواد الخام من كل زوايا اليمن فى الجبال والسهول .

تتألف هذه الفئة من الملاك في القرى ، واصحاب الحوانيت الصغيرة ، والحرفيين والصناع الصغار ، انهم عماد سياسة الامام ، وهم ما يمكن تسميته بالجناح اليسارى لجماعة السلطة ، هؤلاء هم الفئة الاكثر روح وطنية من قسم البرجوازية - الاقطاعيه فى اليمن ، انهم يمقتون الكمبرادوريين ، الذين احتلوا اكثر المواقع الاقتصادية ، ربما يحلمون بانتزاع حصتهم من الفطيرة على حساب الامبرياليين والعملاء الكمبرادوريين ، يستعدون بنشاط لتأييد الصناعات الزراعيه للحكومة ، شق الطريق الجديد ، امتلاك اسطول بحرى ، وذلك لان هذه المشاريع تعد بتوسيع حجم السوق الداخلية ، وتقلص تأثير الكمبرادورية والامبريالية وتطور الصناعة الداخلية ، معطية امكانية تشغيل رؤوس الاموال المتراكمة ، يؤيدون النزوع الى السيطرة على سواحل المحيط الهندى ، الى عدن وموانىء حضر موت ، نمت هذه الفئة وتعززت خلال فترة الحرب وتزحف الى مواقع الكمبرادورية ، مزيحة التجار اليهود والهنود من اعشاشهم .

يبدو ان كل هذه الفئات والشرائح ، لا تشمل الا وسطا اجتماعيا صغيرا نسبيا فى اليمن (عشرة - عشرين بالمائة) ، اما ملايين الجماهير من الفلاحين فهى بعيدة عن تلك الاوساط المشتركة بهذا الشكل او ذاك فى السلطة ، وهذه الجماهير الفلاحية التى تدب حولنا نحن الرحالة بعيدة عنا والاقتراب منها ليس بتلك السهولة ، او التحدث معها ومعرفة حياتها المعيشية ، ومعرفة احتياجاتها ونفسيتها ، يراقبنا مرافقونا العسكر بيقظة ، ثم كانوا فيما بعد فى صنعاء يراقبون كل من يدخل منزلنا ايضا ، كان الفلاحون الذين نتحدث معهم يتهربون عادة من الاحاديث الصريحة ، او يجيبون على كل الاسئلة بحضور العسكرى المرافق باجابات تقليدية يغلب عليها " لانعرف " " الله يعلم " " الحمد الله " " كما يشاء الله " ، وحين نستفسر عن مساحة الارض وكمية المحصول وما شابه ذلك ، كنا نصطدم بكثرة من مقاييس الوزن والمساحة المجهولة لنا ، نتحير فى ترجمتها الى مفاهيم معروفة لنا .

من غير الممكن اطلاقا تحديد نوعية الارض ، حيث تختلف بشكل حاد :

رمال تهامة ، التربة الاكثر خصوبة فى سفوح الجبال . المدرجات الجبلية ، التى تتطلب مع ذلك مجهود ضخم ، التربة الخصبة فى السهول الجبلية ، مقدار الماء فيها ، عدد مرات الحصاد فى السنة (مرة ، مرتين او ثلاث مرات حسب خصب المنطقة) نوعية المحصول فى هذه المنطقة او تلك (البن ، الذرة ، القمح ، البساتين ، الحدائق) - كل هذه المعطيات متفاوتة اطلاقا ، ومن الصعب توحيد كل هذا فى مقام واحد .

وما يلفت النظر بحدة ، الفئة العليا من الفلاحين ، الملاك ، القاعدة الاجتماعيه للكوادر

البرجوازية الحديثة ، ملاك الحوانيت الريفية ، اصحاب الحانات ، ملاك المنازل والمقاهى ، ملاك البساتين ومزارع القات ، اصحاب الجمال ، او اعداد كثيرة من البغال والحمير - وسائل المواصلات ، الصرافون الريفيون ، تمتلك هذه العناصر اراضى كثيرة ولديها اجراء يكون من الاطفال وقصار السن فى الغالب .

الجماهير المتوسطة الواسعة ، تمتلك كوخا من الطين او من الاحجار المرصوصه على جناح السرعة ، قطعة ارض ، محراث ، بقرة حدباء وحمار ، بضعة دجاجات - هذه هى ملكية الفلاح المتوسط ، الذى يمشى باقدام حافية ، لا تشعر بحر احجار الطرق الساخنة ، تلبس بلوزات وفوط مصبوغة بالنيلة ، عمامة وعكاز (فى الجبال) ، اجساد مسودة نصف عارية (فى تهامة) ، ارغفة الذرة ، عصيدة الدخن ، قليلا من اللبن - هذا هو الغذاء الرئيسى ، حزمة من اوراق القات الغليظة - هى المتعة الوحيدة ، العمل الدؤوب فى الارض ، نقل الحطب الى البيت ، رعى الماشية ... ترعاة الزوجة - واحدة ونادراً زوجتان (وثلاث او اربع زوجات لدى التجار ، وزوجتان او ثلاث لدى الملاك) .

الفقراء ... فى ثياب رثة ، يعيشون فى اكواخ نصف مهدمة ، لا يملكون لا ثور ولا جمل ، حمار بائس فقط ومحراث يدوى لفلاحة الارض ... للعمل عند الشيخ او الميسورين بالنخاسة ، يأكل حفنة من حبوب الدخن بدلا من الغذاء ، وورقتين مصفرتين من القات فى وقت الراحة احيانا ، جسم مجروح اكلته القروح ، اقدام حافية ، وراس مكشوف ، وتبعية وديون لا تنتهى ، اطفال ببطون بارزة بوجه مقرح - هذا هو النصف الاكثر من الريف اليمنى .

وكوادر البروليتاريا الريفية : الى جانب الفقراء هناك العبيد الذين جلبوا من افريقيا عن طريق القوة والاستدراج ، اناس وصلوا الى هنا على القوارب من وراء البحر فى محاولة للتجارة من غائلة الجوع والاوبئة ، فاصبحوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، يغيرون نوعا من العبودية بنوع اخر ، وهناك صنف اخر من العبيد هم الاسرى من القبائل المعادية ، ويختلف عنهم قليلا انصاف العبيد ، الفلاحون الذين ادقعهم الفقر ، وفقدوا الامل حتى فى حقهم بالمحافظة على كوخهم ، يستبدلون السخرية المستمرة بالعبودية الدائمة تقريبا ، يكتفون بما يتفضل الشيخ والمالك من الطعام ، وبامرة يعملون من مطلع الشمس حتى غروبها ، وللمالك حق معاقبتهم الجسدية ، وهو مخير فى ان يتخلى عنهم ، او يرسلهم الى شيخ اخر ببساطه ، قتلهم محرم فقط ، يبدو ان هذا هو القيد الشكلى الوحيد للعسف الاقطاعى .

ومن فقراء الريف تتشكل الكوادر فى معامل البن ، والورش الحرفية ، العتالون والرعاة ،

والجمالة ، ان كل نهيرات نصف البروليتاريا ستصب مستقبلا فى المجرى الوحيد للبروليتاريا الصناعية والزراعية .

والاسمنت ، الذى يمسك وينظم هذه البنيه الاجتماعية ، هو الجيش ، الضباط العرب الجدد ، الجهاز الوظيفى – العسكرى ، هذه هى القوة الحقيقية ، التى تسعى الفئات العليا فى اليمن ، والاقطاعيون بواسطتها تعزيز سلطتها وجبروتها ، وازاحة فئة الوجهاء الاقطاعيين والكمبرادوريين الى الدرجة الثانية عن طريق الحلول الوسطية من جهة ، ولجم استياء الجماهير من الفئات الوسطى والفقيرة من جهة اخرى ولا ينبغى ان ننفى طموحهم لتقليص نفوذ الامبرالية وايجاد دولة مستقلة فى ذلك الجزء البعيد المقطوع والمعزول فى شبه جزيرة العرب ، يبلغ تعداد الجيش ما يقارب خمسة عشر الفا ، ويمكن ان يتضاعف بسهولة حتى يصل الى ثلاثين الف جندى ، لان نظام واساليب الجيش هو حسب النموذج التركى .

ومن اجل ان نختتم هذا العرض المختصر للطبقات الاجتماعية فى اليمن ، يجب ان نتحدث عن رجال الدين .

خلال الرحلة الى صنعاء وفيما بعد ، اثناء تواجدنا فى صنعاء ، لم نلاحظ دورا خاصا لفئة رجال الدين كمجموعة اجتماعية ، لا يتميز ائمة المساجد وعلماء المناطق الصغيره فى الريف اليمنى بشىء كثير عن بقية الفئات الاجتماعيه ، بذلك التميز الذى يعيشون فيه فى الحجاز وبقية البلدان الاسلامية الاخرى ، انهم هنا يندمجون مع جماهير السكان الاخرين ولا يتميزون عنهم ، ينبغى اعادة ذلك ، فى اغلب الظن الى ان الدين والدولة قد نميا معا ، الى درجة ان الدين اصبح محتكراً للخاصة الارستقراطية الاقطاعية العليا ، ابتداءا بالامام – الملك – رجل الدين الاول ، ثم اغلبية المشايخ ورؤساء الجيش ، ان كل هؤلاء لهم نفوذ فى الجانب الدينى فى نفس الوقت ، وان كانوا قد تركوا لرجال الدين المتخصصين الوظائف الدينية البحته فقط ، حيث ان فئة رجال الدين مجسدة فى الطبقة الاقطاعية ، الامر الذى يعطيها صيغة اكليركية تتشبع بها كل اجراءات الدولة ، ولو كانت البخور تستخدم فى مناسك العبادات الاسلامية ، لقلنا بان رائحة البخور ستذوب بذاتها فى العصير الاقطاعى ويفقد وجهه الخاص المنفرد .

لهذا السبب او ذاك ، ومما يلفت النظر ان التدين الخارجى للجماهير الشعبية ، هو هنا اقل بكثير مما هو عليه فى الحجاز ، بل وحتى فى بلدان الشرق الروسى حتى الاعوام الاخيرة ، لم نلاحظ فى اليمن التضرعات والصلوات الحاشدة عند الفجر وقبل غروب الشمس ، ولا الصلوات التى تفوح خلالها الروائح العطرة ، انهم يصلون هنا بعد الوضوء بقليل

من الماء ، واذا لم يوجد الاخير يكتفون بقبضة من الرمل حتى ولو كانت من ارض غير طاهرة يتيممون بها ، ولم يكن يراعى فروض الصلاة بورع سوى الشاويش من بين المقربين الذين رافقونا ، فى حين كان بقية العسكر (واغلب الظن انهم من " المتدينين " بما فيه الكفاية) لا يعبأون بالصلاة ، حيث كانوا يؤثرون الراحة يغنون بكسل قدب شعلة النار .

انى ارتب هنا على عجل وتشوش نتائج انطباعات الطريق (حينها كانت هذه الانطباعات اقل وضوح) ، حين كنا نتارجح على ظهور البغال ، ننتظر بفارغ الصبر رؤية الرسوم المجهولة لصنعاء الفاتنة .

لكن صنعاء لا تزال بعيدة ، ولا نرى حولنا سوى الاراضى الخضراء او سلاسل الجبال الغبراء ، تصبح الطريق متعرجة وغير مستوية ، واكوام الحصاء والحجارة تخل بسير البغال المنتظم ، ها لم نعد نشاهد لا قرى ولا حتى اكواخا منفردة لا من قريب ولا من بعيد ، لقد خلفنا وراءنا بعيدا طريق " الثلاث ساعات " التى وعدنا العسكر بها ، والتى بانتهائها سنكون " ان شاء الله " قد وصلنا الى المدينة المنشودة كما يفترض .

وادى صنعاء الخيمه البيضاء فى صنعاء

البغال تسير، والوقت يمضى ، وصنعاء لا ترى ، والطريق لا تدل على ان المدينة قريبة ، لقد اصبحنا نشاهد حمير الركوب ليس الا ، نصادف مرتين مشايخ لابسين ثيابا فاخرة من قمصان حريرية يمتطون جياد عربية اصيلة فى طريق العاصمة .

اصبحت الطرق اكثر وعورة ، اختفت الخضرة ، ولا توجد سوى الصخور والمساحات الشاسعة المفروشة بالاحجار ، تصعد البغال بخطو منتظم على المرتفع الخفيف الانحدار ، وعلى اليمين ترتفع ذورة صخرية شاهقة ، نصعد فى مضيق جبلى نرى ... سهلا لا متناهيا اخضر ، مغطى بلثام هوائى متموج ، ينبسط بعيدا ، فى العمق الاسفل تحت اقدام بغلانا ، انبهرنا من الوهلة الاولى ، لم يكن بمقدورنا تفحص التفاصيل ، ولا نرى سوى بحيرة من الخضرة لا شواطىء لها وفى وسطها نرى المدينة مفضفضة كخيمة بيضاء ، وفى الافق تتناثر الحيود الضخمة للجبال الوحيدة المقطوعة من جهات متفرقه ، وقليلا قليلا تتضح الرؤية ونبدأ نميز التفاصيل ، تبدو امامنا كتلة المدينة الناصعة البياض فى وسط رقعة الشطرنج الخضراء للأراض المزدهرة وقد تميزت المدينة بشكل واضح ومقسم : مآذن المساجد ، السقوف

المسطحة ، بضعة سلاسل من المنال العالية ، والمرتفعة في مختلف اطراف المدينة ، يتعرج سور قلعة مسنن بخط متكسر ، وبابراج فى زواياه ، كبقع خضراء محاطة بحواش بيضاء داكنة ، تتناثر فيها ضياع المشايخ ، كما تتناثر فى الضواحى مثل بقع صغيرة غبراء اكواخ الفلاحين ، بعيدا من المدينة ، على بعد خمسة او ستة فراسخ ، تعشعش مجاميع صخرية من القرى المجاورة من كل الجهات ، من على السهل الاخضر تبرز جبال مسننة منفردة ككتل خرقاء ، وبعيدا فى الافق ، الى الجنوب ، والشمال - الشرقى تحصر هذه الجبال السهل ، وتبتعد كشريط ضيق الى هناك - الى شواطىء المحيط الهندى والرمال المجدبة لصحراء الربع الخالى ، ومن جهة الشرق المقابلة لنا يشمخ جبل نقم الضخم ، وكانه فوق المدينة مباشرة ، وعلى قمته تستقر مراكز الحراسة .

ومن منحنى الجبل الاسود ، الذى كنا بجانبه ، تنحدر طريق معبدة الى الاسفل بشكل متعرج تصل حتى سهل بقرب قرية صغيرة غارقة في المزارع - اعتاب صنعاء - تنطلق قدما ، محددة باعمدة التلغراف ، تخترق بوابة قاع اليهود مباشرة وهو الحى الذى يشكل الجزء الغربى من العاصمة .

تسير البغال الثابتة الرصينة ببطء ، وكم تبدو تلك المسافة من الطريق طويلة ، والتى يجب قطعها من اجل الوصول الى صنعاء ! نترجل من على البغال ، نعطيها للمرافق ، ليقودها بدون عجل عبر المتعرجات اللانهائية للمنحنى الجبلى ، فى حين تتدحرج راسا على عقب الى السفح عبر ممر ضيق عمودى تقريبا ، تلك المتعرجات التى لا يكون من اليسير السير عليها الا للانسان والحمير .

فى كوخ طينى صغير عند السفح يستقبلنا كهل رث الثياب بسلة من التين الطازج ، هذه هى اوائل ثمار " اليمن السعيد " ، التى سالنا عنها باستمرار خلال الطريق دون نتيجة ، وكان الجواب علينا بكلمة " مافيش " التى لا تتغير .

تلهث البغال تحرك آذانها ، تتبعنا بنظراتها الحائرة ، لم ننتظرها ، نقترب من قرية صغيرة ، تتالف من منزلين او ثلاثة ، وعنبر للقوافل، وخزان مياه واسع وحديقة خضراء ، هذا هو المخفر الامامى لصنعاء ، جزء من قرية عصر ، المتخفية جانبا وراء السور الحجرى المرتفع ، وهنا ، يقربون لنا كوزا من ماء صنعاء ، تلك المياه التى يحلم بها سكان الحديدة بيأس ، ان افضل هديه هى قارورة صغيرة من الماء ، من ينتنبه ليوصلها الى السواحل البحرية الحادة ، يقدمون لنا ليمونا اصفرا فاتحا ، نقشره ثم نأكله ، انه حلو المذاق كثيرا ، اكثر حلاوه

من البرتقال ، اراد عساكرنا اعداد الطعام لنا ، دون ان يخافوا من غضب الامام ، لانهم ليسوا ضد ان يتغدوا ، وقد استخدموا معنا حتى الخداع ، يؤكدون ان المدينة المنبسطة امامنا ليست صنعاء ، وانما حى اليهود ، اما صنعاء فانها بعيدة وراء الجبال ، لكننا نصير هذه المرة قساة نرفض التوقف ، لاى نوع من الغذاء نقول للعسكر " الامام سيستاء غضبا - نضرب العسكر بنفس سلاحهم بدون رحمة ، - الامام سيستاء اذا علم اننا تباطئنا عند دخول العاصمة ، هيا بسرعة " .

النسور فى القاذورات

استاء العسكر ، وخاب املهم ، لقد كان فى حسبانهم انهم سيتغدون حتى التخمة فى نهاية الامر ، وقبل ان يعودوا الى الحراسة فى الحامية ، يتحركون يدمدمون يشتمون ، نلف عبر الطريق الدائرى حول سور المدينة ، ثم نقترب من باب السياج البوابة الرئيسية بصنعاء .

القيظ على اشده ، سحابة من الغبار تلف المدينة ، تنظر النسور الينا بثبات ، اينما استقر سربهم وفى جانب البوابة تنبش فى ركام النفايات التى جلبت من المدينة ، وهكذا استقبلنا البجع البيض فى مرفأ الحديدة ، وعششت الخفافيش فوق رؤوسنا فى باجل ، وهنا تنبش النسور فى اكوام القاذورات على بعد عشر او خمس عشرة خطوة من الطريق .

اليس هذا رمز ؟ ، تفقد النسور هنا عظمة رحلتها المكوكية المصطنعة ، دون ان ترغب فى التحليق فوق السحاب ، تفضل النبش فى اكوام نفايات المدينة ، على كل حال لماذا نتسائل ، اذا كان حتى ملوك ارض العرب ، الذين انسلخوا عن عظمتهم الغابرة ، يتحولون تدريجيا الى مهنة اكثر تواضعا ، وان كانت اكثر انتاجية ، الا وهى المشاغل الادارية والاقتصادية ، وصولا حتى الى حل المخاصمات والمقاضاة الصغيرة عند عقد الصفقات التجاريه ! .

لكن يوجد لدينا وقت للفلسفة · تتقدم البغال بخطو ثقيل متعب ، تحت الاعمدة الضخمة للبوابة ، الحارس المناوب ، الذى لم يشعر بقدومنا مسبقا ، يتفحصنا بحيرة ، يستمع الى توضيح مرافقينا بعجلة ، نحن فى الساحة : فى احدى الجهات يمتد شارع طويل فيه دكاكين صغيرة للخضروات والبقول واللحوم ، يعج بالقبائل اللابسين معاطف زرقاء وجنبية فى الوسط ، يجول الصبية ذهابا وايابا باكشاكهم يصرخون باسماء البضائع والاطعمة ، تشق الحمير والبغال طريقها عبر حشود الناس غير المنتظمين ينتصب امامنا سور نرى خلفه مبنا

حسنا من اربعة طوابق ، انه قصر الامام ، وهناك ايضا تحت اشجار الاثل المترامية مبنى من طابقين ، هى الصيدلية ، نشاهد قبة خزان مياه صغيرة الى اليسار مبنى على شكل حائط ، يقود بابه الى ساحة اخرى ، هنا توجد ادارة صنعاء ، وعلى الساحة الصغيرة يطل برج مراقبة ، علي طول الحائط المحيط بالمقر الملكى مباشرة ، تمتد الطريق الواسعة ، يسير فيها عساكر مشاه والخيالة ، تؤدى الطريق الى المدخل الرئيسى لقصر الامام ، ثم تمتد قدما الى الشمال عبر البوابة المواجهة لباب الروضة ، ان هذه الطريق هى جزء من الطريق العظيم الممتد من عدن الى سوريا ، وخلال قرون كثيرة كانت هذه الطريق الشريان الاقتصادى فى شبه جزيرة العرب ، تسمح بالمرور لارتال القوافل وعشرات الالاف من التجار والحجاج القادمين من سواحل المحيط الهندى وحتى اسوار مكة والمدينة وقدما الى سلسة جبال لبنان ، هذه الطريق التى اقفرت الان وفرغت ، ولا يوجد هنا الا بوابتان فى الطرفين المتقابلين لصنعاء يذكران بعظمتها الغابرة ، التى تبخرت مع دخان الآلات البخاريه ، التى تنقل الحجاج والبضائع الان .

نحن فى صنعاء .



الباب الثاني عشر

* الانطباعات الاولى عن صنعاء
* شقشقة الآبار
* " ابن الامام "
* القاضي راغب
* الدعاية الايطالية
* في انتظار الغارات الانجليزية
* الاستقبال الرسمي للامام



الانطباعات الاولى عن صنعاء

بعد ان انتظرنا قليلا من الوقت في الساحة ، بين الحشود المحيطة بنا من التجار ، والعسكر ،الجمالة ومجموعة لا تحصى من الصبية ، نمر عبر بوابة الادارة الى ساحة كبيرة ومن ثم عبر شوارع ضيقة مليئة بالاسوار الطينية نصل الى البيت المخصص لان نعيش فيه ، العسكرى النعسان المتمنطق بجنبيه فى خصرة بالضرورة ، يفتح البوابة التى تصر ثم باب البيت يقودنا عبر سلم نصف مظلم الى غرفة مفروشة بالقطائف ، عبر الفسيفاء المتعدده الالوان لزجاج النوافذ ، نشاهد بساطا اخضرا من الحشائش فى حديقة هادئة فواحة ، وبعد ان خلعت ملابس الطريق التى اسأمتنى ارتمى بارنياح على الفراش الموضوع هناك على القطائف مباشرة ، انظر عبر النافذة ، محاولا ان املىء نفسى بالانطباعات الاولى للعاصمة " الخالدة " صنعاء فى عراقتها التى لا تبلغها عين المؤرخ هى ايضا مدينة " خالدة " مثلها مثل القاهرة اثينا وروما .

الهواء مشبع بقيظ صيفى ، زجاج النوافذ المتعدد الالوان يتلألأ باشكال مختلفة (مثلثات ، دوائر ، لوالب ، واشكال هندسية مختلفة) ، وبكل الوان قوس قزح ، فى الجدران تبدو كتابات جذابة منمقة ، مقاطع من اشعار الشعراء العرب القدماء ، نشاهد عبر ستائر النافذة بعيدا اوراق الصبار العريضة ، اشجار السرو ، والملامح الاستوائية والمترامية من اشجار المشمش ، ان كل المنطقة التى وراء النافذة هى حديقة خضراء كثيفة ، تقطعها فى بعض الاماكن اسوار طينية ، تفصل ملكية مالك عن اخر ، وبعيدا ، وراء الحدائق ، تتناثر منابر المآذن والمنازل الطينية المتفرقه التى يضيق اعلاها ، المكونه من ثلاثة - اربعة طوابق ، المحاطة بالحدائق ، بسقوف مسطحة ونوافذ رباعية الاركان الشبابيك .

هذا الحى خارج المدينة ، لا يوجد هنا التجار المتجولون فى الشوارع ، ولا اصحاب القوافل العابرة ، ولا تسمع هنا اصوات الناس والمواشى ، الا انه لسبب ما فان الهواء تخترقه موجة من الاصوات التى لا تهدأ ، تلك الاصوات تشبه اصوات سرب من الديوك الرومية فى فترة الصيف ، كان هذا الرنين الذى لا يهدأ لا يسترعى انتباهنا خاصة فى البداية ، لقد تعودنا على الوضع العام الى حد بعيد ، ندرك فى ساعات ما بعد الغداء فقط ، حين يهدأ فجأه ثم يعود مرة اخرى عند المساء .

شقشقة الآبار

هذه الترنيمة " زغرودة " سمفونية صنعاء الرئيسية ، اللحن الانتاجى ، الذى تتسم حياة المدينة بطابعه ، لا تستطيع التقاط مصدرة مباشرة ، ابدأ اخمن بان الطيور ليست هى التى تصدر هذه الزغردة ، اخرج الى السقف المستوى ، اشاهد الجبال بعيدة ، والسور الذى يحيط بالمدينة من كل الجهات ، وعلى السور مدافع صغيرة ، مرتفعة الى اعلى الطائرات المعادية ، نشاهد وراء الحدائق الخضراء فى حيننا كتل المبانى البيضاء فى القسم الاساسى من المدينة العربية ، المزينة قليلاً بمآذن المساجد ، ابحث من اين تأتى هذه الشقيقة التى لا تهدأ ، وبعد محاولات بحث طويلة عديمة الجدوى ارى : جملا مضنى يصعد على مرتفع منحدر تدريجياً بين حاجزين طينيين ، يقودة صبى حافى القدمين وعلى رأسة عمامة لا تتغير ، وحين يقترب الجمل من قمة هذا الحاجز الطينى الضخم ، يلتف عائداً ادراجه فى نفس الطريق الى اسفل ، يشد الجبل بقوة ، عبر جذع شجرة مهذب يدور على قمة الحاجز ، ثم تبدو قربة من الجلد تصعد من اعماق البئر ، ينكسب منها الماء بصخب الى حوض مبنى هناك ايضا ، ومنها تسيل المياه عبر مزراب الى الفناء ، تملأ البراميل ، والاحواض والقنوات التى تروى الحدائق والبساتين ، هذا هو العصب الرئيسى ، الذى يحرك اقتصاد " العربية السعيدة " حتى الان ، هذا هو اساس رخاء " المدينة الخالدة " صنعاء

فى هذه المنشآت المتواضعة الخرقاء تكمن مرحلة تاريخية كاملة : ففى تهامة يغرفون الماء بالادلاء من خزانات المياه الطينية الكريهة الرائحة ، او ينشلن النساء الماء بايديهن من الآبار الوحيدة المحفورة فى افضل الحالات ، ثم تنقله الجمال بالبراميل للمستخدمين ، اما هنا فيستخدم شيء ما يشبه الماكينة : بكرة صغيرة فى حلقة تصر ، هنا نرى امامنا منشآت طينية ، وقوة الشد الحيوانية وشبكة من القنوات ، يشكل هذا الفرق مقسم المياه ، ويحدد نموذج التطور اللاحق فى تهامة التى تعيش فى مرحلة ما قبل الاقطاعيه ، والمنطقة الجبلية التى توجد فيها مبادىء الزراعة والصناعة .

ابن الامام

يكون اليوم الصيفى قصيرا فى المناطق الاستوائية ، يساوى طوله طول الليل تقريبا ، يبدأ الظلام فى الغرفة الساعة السابعة ، اول زيارة رسمية : يبلغونا بوصول " ابن الامام " ، ارتبكنا نتيجة لوصول مثل هذا الضيف الكبير ، يزول الارتباك سريعا حين عرفنا ان لقب " ولد الامام " يطلق على كل المقربين من الامام ، ويدخل ضمن ذلك المستشارون والخدم ، وكان الضيف القادم هو واحد من موظفى الامام ، لا يختلف مظهره الخارجى كثيرا عن القبلى الضابط العادى المتواضع الملبس " المختار " من اوساط الشعب البسط ، لحية ضيقة ، عمامة ، جنبية ، نظرة مفتوحة سمحة (اما ما يختفى وراء هذه النظرة ، فهذه قضية اخرى) ، يحيينا باسم الامام ويستفسر عما اذاكنا نحتاج لشىء ما ، هذه هى الطريقة المعتادة بما فيه الكفاية للتحية التى يستحيل الاجابة عليها دون الاعراب عن الارتياح الكامل ، والامتنان لاستقباله واهتمامه ، اعلن لنا بان الامام يعتبرنا ضيوفه ، وان الخدم التابعين لنا هم تحت تصرفنا الكامل ، بضعة عبارات اخرى ، الاستفسار عن الصحة ، تبادل المجاملات ، ثم يخرج ، يسود الظلام ، نلتهم العشاء المعد لنا تحت ضوء فانوس الكروسين بشراهة : بيض مقلى ، خضار ، وقطع من اللحم ، اخرج مرة اخرى الى السقف المستوى ، تسود الهياكل الضخمة التى تحيط بنا ، تبدو كأنها قد مالت على المدينة لتلتصق بها ، انتهى المؤذن من آذان صلاة العشاء فى المسجد المجاور ، تشتعل الاضواء فى نوافذ البيوت هنا وهناك ، يرتسم الهلال فى الجنوب ، القريب من الافق ، تقريبا على جوانب الجبل الاسود بوضوح بارز ، الهواء جاف وبارد ، السكينة الشفافة الحادة تلف المدينة الهامدة ، اهبط الى الاسفل عبد سلم منحنى دون ان ادق جبهتى بسقوف الابواب الواطئة ، افتح النوافذ الموجودة بشكل كامل (ان العرب مثل الروس : يخافون الهواء ، لهذا ينامون والنوافذ مغلقه) ، انام كحجر على المرتبة الوثيرة المرمية بين القطائف الفارسية الثمينة .

تخطر لى فى الاحلام نماذج تاريخية - ادبية مختلطه غير متتابعة : التجار الاجانب ، سفراء جير بيرشتين واوليا ريا ، الذين تواجدوا فى موسكو في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، اليانكى من كونيكتيكوتا فى زاوية مارك توين ، الذى وقع فى مملكة ارتور فى القرون الوسطى ، آلة لولس للزمن ، التى تنقل البشر مئات وآلاف السنين الى الماضى والحاضر .

افيق من النوم ، والشمس ساطعة تغشى الابصار ، والذباب يزحف اسرابا على الوجه بلا رحمة ، الهواء مفعم بشقشقة الآبار واريج الحدائق المحيطة ، اتذكر انى فى القرن العشرين ، فى البلد الذى يريد بوسائل بدائية ان يلحق (ولا يأمل بالسيف) بالبلدان الرأسماليه فى الشمال البعيد ، يقوم بمحاولات خرقاء غير منسقة كى يخرج من مملكة الحمير الناهقه ، والآبار التى تصر الى عالم الآلات الكهربائية ، والراديو ومحركات الطيران الهادرة .

القاضى راغب

يدخل العسكرى بهدوء ، ومعه مذكرة من الامام، يحيى فيها قدومنا ويبلغنا بانه مسافرا الى منطقة الضواحى وادى ضهر ، وانه أو كل اجراء كل المباحثات حول القضايا التى تهمنا الى القاضى محمد راغب حتى عوته من الوادى ، نحتار بعض الشيء ، لقد حرضونا فى الحديدة ضد القاضى راغب ، ونصحونا بعدم فتح اى حديث معه ، لقد كانت تلك النصيحة لعبة العناصر التابعة للانجليز ، وكان الأخير مصدرها حيث اتضح فيما بعد ذلك ان تلك " الشخصية " اخافت سكان الحديدة الحساسين ، من ابعاد القصف الانجليزى ، والان يتعين علينا اعادة ترتيب خططنا ، افلا يمكن الاخذ بعين الاعتبار مذكرة الامام الخاصة لكننا لا ندرك ان نفكر بكل شيء حتى النهاية حتى نسمع ، تالية على الباب ، يبلغنا العسكرى بمجيء القاضى راغب .

يدخل شيخ نحيل اشيب بلحية ضيقة على شكل اسفين وعيون حادة خارقة ، عليه رداء ازرق وشريط عريض من الجوخ الاخضر عبر كتفة ، وعمامة بيضاء فوق رأسه وفى قدميه حذاء اوروبى لامع ، ينحنى بلباقة ، يفتح يديه وكأنه قدذاب فى بسمة ترحيب ، ولاننا قد دهشنا ينطق ببضعة جمل فرنسية لبقة بتتابع ، يتضح ان " الداهية القصير " قد ظهر بالمظهر العربى المنمق ، واخفى المظهر التركى الحديث المعاصر لقد امتلك طرق واساليب الصالونات الراقية فى اوروبا بما فيه الكفاية ، وبشخصة نرى ممثل تلك المجموعة من الاتراك ، الذين وصلوا الى هنا فاتحين واداريين للاحتلال ، ثم اندمجوا وتكيفوا فى هذا البلد الى ذلك الحد الذى جعلهم يبقون فيه حتى بعد سقوط السلطة التركية ، لكى يخدموا النظام الوطنى الجديد ، يخضعون لأولئك الذين اعتادوا فى الماضى على اخضاعهم ، لان تجربتهم الادارية ، وخبرتهم الثقافية ، وتعليمهم ومعرفتهم بالعلاقات الدولية ، كل هذا قد جعلهم يخدمون الطبقات الحاكمة فى البلاد ، التى كانت مضطهدة فى السابق من قبل نظام السلاطين ، الذين لم يبقى لهم الآن سوى الأرث العثمانى .

والقاضى راغب هو ابرز ممثلى هذه الفئه ، عسكرى عثمانى قديم ، كان فى الخدمة الدبلوماسية في سفارات الامبراطوزية العثمانية في بيتروبورج ، وباريس وفينًا ، عارف بكل حيل والاعيب نظام عبد الحميد ، وبعد ذلك انتقل الى الخدمة فى المستعمرات وشغل منصب محافظ فى بلدين عربيين (اليمن والعراق) ادركته الحرب العالمية وهو متحمل منصب عامل احد الاقضية فى هذا البلد ، ظل فى اليمن حتى انتهت الحرب ، اشترك مع القوات التركية والانصار العرب الذين انضموا اليهم فى النضال ضد الانجليز ، وكان سير المعارك ناجحا ، وكانت عدن تحت تهديد الاحتلال التركى اكثر من مرة ، ومن اجل الدفاع عن عدن تحتم على الانجليز سحب كثير من القوات من جبهات اخرى ، وكانت المبادء بيد الاتراك طوال الوقت ، استسلموا فقط بامر من القسطنطينية نتيجة للانهيار العام للحلف الالمانى - التركى ، ورحل القاضى راغب الى تركيا ، وهناك لم يدرك فى ان يشارك مشاركة نشطة فى الحركة الكمالية الوطنية التحريرية اذ لم يكن بمقدورة التكيف مع الوضع الجديد ، وبدلا من المكوث فى المناصب الثانوية فضل العودة الى اليمن البعيدة ، كما قال ، لكى يساعد بقدر المستطاع اليمنى فى بناء دولة مستقلة متقدمة .

على اية حال ، فانه ليس الوحيد هنا ، لقد بقى بضعة عشرات من الضباط والمدرسين الاتراك فى اليمن ، يتنقلون فى خدمة الامام ، وبمشاركتهم النشطة تشكلت مختلف وحدات اسلحة الجيش اليمنى (المشاة ، الخيالة ، المدفعية ، العربات ، اقسام الرشاشات) ، التى حلت محل فرق الانصار غير المنظمة . تعتمد المدرسه الحربيه على المدرسين الاتراك بشكل مطلق تقريبا ، تلك المدرسة التى تاسست فى عهد النظام العثمانى ، وهى الان تعد البديل من الشباب العربى ، الذى يغذى صفوف ضباط الجيش اليمنى الفتى .

هذه هى البقية من البشر فى الارث العثمانى ، التى استطاع بناة الدولة اليمنية الجديدة استخدامها واضافة الى هؤلاء بقى اخرون من المتذمرين المستائين والحالمين بالماضى ، الذى لن يعود ، وهؤلاء هم التجار الاتراك ، وملاك المنازل ، والحرفيون ، الذين فقدوا امتيازاتهم السابقة ، الذين فقدوا جزءا من املاكهم ، والتى اخذت مكانهم البرجوازية العربية النامية ، هذه البقية الحية القليلة العدد للامبراطورية العثمانية ، تجتمع تائهة فى مقهى صغير فى حى سوق صنعاء الواسع ، هناك يدخنون النارجيلة من الصباح حتى المساء ، يشربون اكواب صغيرة من القهوة التركية ، يلعبون النرد ، يتنهدون ناظرين لصورة السلطان محمد المعلقة على الجدران .

لقد استمعت الى الحديث المعسول الذى قاله راغب ، نقل لنا تحيات الامام ، وشرح

ذكرياته عن فترة تواجده فى بتروجراد ، انتقى اسماء وزراء القياصرة وشرح حفلات الرقص والاستقبالات فى قصر الشتاء ، وبلغه روسية مكسرة يتذكر الكلمات الاولى من اغنية غجرية عفنه ، اعتبر القاضى راغب انه ليس من قبيل الكلام الزائد التعبير عن اعجابه بالبلد الذى اتينا منه ، وكأنه لا يلاحظ ان اعجابه قد كان ببذخ بتربورج الغابر ، لا يلقى صدى عند محدثيه ، استعجلنا فى امله ، حدثناه عن روسيا تلك وبيتربورج القديمة لم يعد لها اثر ، ولم يعد البذخ القديم موجود الان ايضا ، كما لا توجد الجماهير الفقيرة ، هناك منشأت العمل ، لينينجراد العمالية ، منشآت الدنيبر ، بيوت الراحة للعمال والفلاحين فى لفيدا وغيرها من قصور ومصايف القياصرة .

قلنا هذا ، لكى نوضح له بالكامل بداية علاقتنا ، وبكل تهذيب لازم تجعله يفهم بان الثناء على روسيا القديمة لا حاجة لنا به ، لا نتقبله كثناء يوجه الينا .

ومع ذلك لم يتأتى لنا هذا مباشرة ، لقد تطلب الامر ان نعيد الحديث هذا اكثر من مرة لكى يفهم راغب ، ان امامه اناس من بلد ثاني ، بعيدة الشبه ببتربورج الباهرة خالدة الذكر ، بالقصور ، حفلات الرقص الفجور ، المتهورين ، الكافيار وسمك الباليك الثمين ، وبدلا من الذوبان ارتياحا عند ثنائه ، نجيب بلطف بان هذا يجب ان لا يكون الان .

نرى ان راغب كان يتأكد من نتائج سبر الغور ، وكانت مناوراته على ما يبدو ، تكمن فى ان يستوضح من نحن ، هل نحن نماذج قديمة من الموظفين ، لا تزال باقية تحت الرقعة الجديدة " بالتقاليد الروسية الاصيلة " وبالتالى اتينا الى الشرق بنوايا امبريالية مثل قناصل القياصرة القدماء ، ام اننا نختلف عنهم بشيء ما .

نعرف فيما بعد ، ان واحدة من الحجج الرئيسية لأعدائنا فى اليمن (وليس فى اليمن فقط) كانت تستند على ان البلاشفة ياتون الى الشرق بنفس الاهداف المصلحية الاستعمارية ، شأنهم شأن الروس القدماء ، وعن طريق " الاعجاب " (الذى لا يخلو من الصدق) وضع راغب امامه هدف استيضاح نفسيتنا ونوايانا وتقديم التقرير اللازم لمسؤولى البلاد ، وعبرهم الى فئات السكان الاخرى فيها بهذا القدر او ذاك .

كان اسلوبه اخر ، ليس اقل تميز ، رغبته فى معرفة درجة صدقنا ، والتأكد من اننا لا نتستر او نقلد الذوق العربى ، يوجه القاضى راغب سؤالا عن علاقتنا بالدين وبالمسيح وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

الاجابة على هذا السؤال تحمل خطرا مضاعفا ، فانت تخاطر ، اما ان تظهر نفسك كملحد – داعية ساذج ، او ان تكون منافق حرباء ، نعطى اجابة متحفظة صحيحة وهى اننا لا نؤمن بالله ، ونرى ان مفهوم " الله " يستخدمه البشر لتوضيح كل ماهو مجهول ، غير ان الدين ضرورى للحكومات للتأثير على جماهير الشعب ، فالدين عندنا فى الاتحاد السوفيتى يتلاشى ، وسينتهى المسيح عن الوجود فى القريب العاجل ، هذا اذا كان موجودا في الحقيقة ، من المحتمل انه كان شخصية سياسية بارزة ، لكنه كان بالطبع شخصا لا يختلف عن الاخرين ، نحن لا نصدق المعجزات .

الدعاية الايطالية

نعرف فيما بعد ، ان جوابنا اصاب الهدف ، لاننا لم نخفى ما نعتقده ، لقد ضحضنا الشك باننا منافقون ، لقد اقتصرنا على صيغة متماسكة مختصرة ، واكدنا على عدم رغبتنا بالقيام " بدعاية " وبهذا لم نقدم سلاحا بايدينا للمترصدين ، وقد علمنا فيما بعد ان كل كلمة من كلماتنا وكل خطوة من خطواتنا كان الهدف ان تستخدم ضدنا ، لم ينام اعداؤنا : " فالدكتور " الايطالى ، الذى رحل من الحديدة عشية وصولنا ، والذى وصل الى صنعاء خلال ثلاثة ايام بفضل سيارته ، استغل كل هذه الفترة للعمل المحموم ، يحرض الامام نفسه ضدنا ، وكذلك اكثر مستشاريه نفوذا ، وكانت اساليب تحريضه لا تخلو من الفرادة والتميز ، فبعد ان اقتنع بسرعة بسذاجة الحجة القائلة " لا تستقبلوا البلاشفة ، فانهم يقومون بالثورات فى كل مكان ، ويطيحون بالملوك " حين اقتنع بان هذه الحجه لا تخلق الاثر المرغوب ، لجأ هذا الايطالى الى مناورة مراوغة ، يكمن جوهرة هذه الحجج فى ان البلاشفة مخادعون حين يقولون انهم يقيمون فى الشرق سياسة الصداقه مع شعوب الشرق ، وانهم يدعمون طموحها للاستقلال ، انهم فى حقيقة الامر ، ياتون الى الشرق بغرض المكاسب الاقتصادية واستغلال شعوب الشرق ، واضافة الى ذلك ، يستخدمون نجاحاتهم فى الشرق للضغط على انجلترا وتحقيق اتفاقية معها ، وما ان تعترف بهم انجلترا فانهم سيقطعون معكم جميع العلاقات ، وستصبحون بلا شىء ، والبلاشفة فى جميع جوهر الامر يتعاونون مع الانجليز يطمحون الى تحطيم الدولة اليمنيه ومن ثم القيام باستغلال ثرواتها ، لا تثقوا بهم ولا تجروا معهم اية محادثات ، لانكم بذلك ستخسرون صداقة ايطاليا فقط ، ولن تكسبوا شيئا بدلا عن ذلك .

هل ياترى اثرت هذه النغمات على العقول السريعة التأثر للفئه اليمنيه الحاكمة ؟ ان مجرى الاحداث اظهر ان هذا الهمس لم يعطى اثرا حاسما .

كثيرة شفافية هذه النوايا التى اجبرت ايطاليا على الصدح او التغريد بهذه الاغنية المنفردة ، لقد كان واضحا حتى للاطفال بان الفاشية الايطاليه قد كانت تتضايق بقدر ما اذا كان البلد الذى تعتبر نفسها " وصية عليه " او البلد الذى تعتبره مستعمرتها القادمة ، يقف على طريق سياسية خارجية مستقلة لتتخلص من براثن القط الفاشى التى لا تبدو أنها مخملية ، كما تعرض الايطاليون للشبهة بشكل كبير بسبب النتائج المخجله فى مدة عامين من تصرفاتهم فى اليمن ، وقد سبق ان شاهدنا فى الحديدة اصدقائنا العرب يقولون لنا عن قارب ذى محرك ساكن على الرصيف .

– لقد اتى به الايطاليون ، فما ان اخرجوه من الباخرة حتى تعطل ... هذا هو حال كل البضائع الايطالية ...

وكنا حين نسأل فى الدكاكين ، لماذا هذه البضائع او تلك سيئة ، نلقى جوابا واحدا :

– ماذا نعمل ...ايطالية ...

لقد صارت كلمة "ايطالى " تعنى " ردىء " " ، " لا تجدى فى شىء .

من الواضح ان نتائج الايطاليين لم تثر ثقة خاصة فى هذا الجانب ، ومع ذلك يبقى من الدجل شىء ما ، لقد كان اليمنيون حذرون عند قدومنا ، وكانوا " يفحصوننا " باهتمام وانتظام ينطلقون من الحجج الكاذبة التى اشاعها الدكتور الايطالى الوديع ، وكان لدى اليمنيين شكا من نوع اخر فينا الى جانب حجج الايطالى ، كانت هذه الشكوك تقوم بالاساس على اننا سنقوم بالدعاية الالحادية او ان نمط حياتنا سينهى التقاليد المعيشية والاخلاق المنافقة المتجمدة فى اوساخ رتابة القرون " فى المجتمع العربى " واننا بينقضى ضد انفسنا " الرأى العام " نخالف العشرات من كبار القوم ، من المشايخ ، ذوى اللحى البيضاء ، مثل هذا المجرى للامور لن يكون نافعا للامام ومستشاريه ، وذلك لانهم فى نهاية الأمر بهذا القدر او ذاك مسؤولون عن دعوتنا الى صنعاء ، واذا حصل لنا شىء فانه سيؤدى الى اضعاف بعض نفوذ الامام ، وسيقدم اوراقا رابحة للمعارضة الرجعية الوقحه فى تلك الفترة .

لكن لن نذهب بعيداً ، ولن نقدم محتوى احاديثنا بشكلها العملى الخالص ، لقد صار كل هذا من الماضى ، وكل هذا شىء معاش تجسد فى ورقة صغيرة من النوع السميك مرقشة

بالاحرف العربية المنمقة والممهورة بعدة توقيعات وختم الامام فى النهاية ، وكانت مهمتنا المتواضعة هى اظهارها وتصويرها على ورق سوفييتى عادى ، بمساعدة الحبر الطوبوغرافى البسيط لتلك الصور القليلة العدد المتبقية من تلك الصور الذهنية التى انطبعت بشكل اكثر قوة في الكاميرا العميقة للدماغ ، فالزمن الذى مضى قد اوهى سطوعها الاولى ، والكثير من التفاصيل امتحت بشكل كامل ، وبقت رسوم مجملة واشكال عامه ، ما العمل فهذا هو نصيب الغالبية من اولئك الذين يقعون فى بلد مجهول ، ويحدث ان تكون مغمورا بالاعمال التكنيكيه والسريعه ، فى توضيح ظروف تسويق البضائع ، وحل قضايا نوعية مختلف اصناف البن ، فى وسائل توصيل الكروسين ، فى اسعار السكر والدقيق ، وبغض النظر عن الاشياء الاخرى ، لا تستطيع تركيز كل قواك الفكرية لكى تتأمل الظواهر الخارجية ولا تدرك ان تطبعها فى مجال التقبل التعبيرى – الفنى ، ولتكن هذه المقدمه القصيره بمثابة تبرير خفيف لبهوت وعدم كمال هذه الصفحات ... بعد ان اجرى مقابلته المطولة معنا ، يذهب القاضى راغب ، واعدا بان الامام سيستقبلنا بعد بضعة ايام ، حين يعود من مقره الصيفى فى وادى ضهر ، القرية الصغيرة خارج العاصمة ، الواقعة على بعد عشرة – اثنى عشر كيلو مترا منها .

فى انتظار الغارات الانجليزية

لماذا خرج الامام من العاصمة ؟ نسأل انفسنا بلا ارادة ، الاحداث تتوالى ، والانجليز (وهذا لم يخفيه علينا القاضى راغب) اعلنوا قبل برهة بسيطة للامام مطالبتهم باخلاء منطقة الضالع وقعطبة ، وما يسمى بالمناطق المتنازع عليها ، التى استولى عليها اليمنيون قبل زمن قصير ، وقد قذفوا بضعة عشرات من القنابل من الطائرات على هذه المدن غير المحمية فى بداية ١٩٢٨ ، بهدف الضغط المعنوى " المعنوى " الشديد لكن اليمنيين لم يخرجوا ، وانما اكتفوا بنصح المبعوث الانجليزى جيكوب بسرعة الرحيل من صنعاء مطرودا ، فبدأ الاسد الانجليزى يغضب بشدة ، فارسل لليمنيين مطلبا رهيبا باخلاء المنطقة المتنازع عليها كشرط مسبق للمباحثات اللاحقة ، انتهت مدة الانذار النهائى – صار الجو مشحونا وفى هذا الوقت يسافر الى " المصيف ".

نعرف سبب سفره فيما بعد ، لقد كانت المنطقة الصغيرة وادى ضهر تستخدم كنقطة يلتقى فيها رؤساء القبائل والمشايخ الاكثر نفوذا من كل اطراف البلاد ، توالت الاجتماعات فى

قصر الامام اياما بلياليها ، حول اتخاذ وجهة مسيرة ركب الدولة اليمنية ، الذى لم يكتمل بناؤها بعد ، امام العاصفة الامبريالية القادمة ، امام شعاب النزاع الداخلى الذى اصبح وشيكا ، لم نكن نعرف كل تفاصيل ما يحدث فى ذلك الوقت ، وان كانت الاحداث تبدو كذلك ظاهريا .

اخرج الى السقف المستوى لبيتنا ، وبعد ان استند بمرفقى على الحاجز الطينى المرتفع ، اتطلع بنهم الى المحيط القريب والبعيد ، محاولا استشعاره ، والتشبع باشعة الشمس المنصهرة وسخونة جو الاحداث الوشيكة الوقوع ، وبنهم انقل طرف وزجاج المنظار من الجبال والقمم البعيدة الى السور المسنن للقلعة ، الى منارات المساجد وحواجز البيوت فى الضواحى .

لا شىء ! سكينة وفراغ ، سوساسل الجبال المحروقة الغبراء هامدة جرداء ، الح الحارس المناوب الذى يخطو على حائط القلعة بالكاد ، مدافع ميدان وحيدة ، رافعة مواسيرها بخراقة ناظرة الى السماء وكانها تترقب العدو المنتظر .

البيوت خالية ، والسقوف خالية ممطورة بالغبار .

مصارع شبابيك النوافذ مسدودة باحكام ، ولا توجد سوى هياكل الخدم تتجول فى الحدائق الخضراء يشتغلون بسقى الاشجار واحواض الزرع ، اما الملاك فلا وجود لهم ، وكأن اشعة الشمس الحارقة قد طردتهم بلا حول فى الزوايا العميقة للقصور المتعددة الطوابق .

يقبل المساء ، برودة الجبال الليلية تغرى كل حى للخروج الى الهواء ، لكن الشرفات والسقوف خالية كما كانت فى النهار ، وكذلك مصارع النوافذ واجمة ، والاضواء لا تشع وراء الستائر المسدلة عليها كالسابق ومن بعيد فقط ، يصل صخب قطعان الماشية العائدة والموسيقى الغير منتظمة للفرقة الموسيقية العسكرية فى القسم التجارى من المدينة .

نعرف ان كل السكان الميسورين قد تركوا المدينة ، وانه قد بعث كل التجار والموظفين والمشايخ باهلهم الى اعماق البلاد بعيدا ، الى القرى الجبلية غير الملحوظة ، كما هربوا الى هناك هم ايضا ، ويمرون على المدينة نادرا وللأغراض العاجلة ايضا ، وكانت عشرات البغال تعبر بوابة المدينة كل يوم تحمل ممتكلات الفئات الميسورة ، حتى فرغت بيوت الاثرياء وهمدت ، ولم يبقى سوى الخدم يحرسون حدائق ومخازن الملاك الهاربين من حمى الحماس الوطنى ، وكان البيت الذى نعيش فيه ، واحداً من البيوت القليلة التى يظهر البشر فى سقوفها وفى شرفاتها نهارا ، وتتغامز الاضواء ليلاً .

فر الوجهاء والميسورون ، فروا قبل ان يروا الطيران المعادى بعد ، فروا فى ذعر حيوانى

امام احتمال اقتراب الهجوم ، ولم يبقى فى المدينة سوى الشخصيات المسؤولة ، القوات العسكرية ، وبالطبع الآلاف من ابناء الشعب البسيط ، بقى الحرفيون ، اصحاب الحوانيت الصغيرة والمزارعون ، الذين لم يهربوا الى اى مكان لانه لا شىء لديهم يفقدوه ولا يوجد مكان يفرون اليه .

– لو كان اليمنيين جبناء مثل سكان صنعاء ، لاستسلمنا بدون قيد او شرط امام الانجليز بعد اول غارة طيران -- بصراحة تحدثت شخصيات حكومية يمنية ، تجيب على حيرتنا بالنسبة لمثل هذا الذعر الواضح ، الذى اتخذ طابع غير مشرف – ولحسن الحظ فان الشعب ليسوا هم سكان صنعاء .

– بالاصح ليسوا وجهاء صنعاء – واضفنا ، وقد خرجنا عن نطاق المجاملات الدبلوماسية .

كان هذا اكيدا ، فالشعب الفلاح والعامل الحقيقى اليمنى لم يهتز حتى عندما بدأت الغارات وسقط عشرات البشر قتلى في المناطق والقرى ، تمزقهم شظايا قنابل الطائرات .

الاستقبال الرسمى للامام

بعد بضعة ايام تتم اول مقابلة رسمية مع الامام برفقة القاضى راغب .

قصر الامام (هو مسكنه الشخصى ومقر عمله) يقع فى مسكن الوالى التركى السابق ، لا يوجد فيه اية خصوصية يمنية ، كل مقر العمل يقع بين اربعة جدران طينية ضخمة بابراج مراقبة فى الزوايا ، المدخل يمر عبر بوابات مزخرفة بنقوش منمقة ، تقدم التحية لنا فصيلة من العسكر وقفت صفا واحدا ، وبعد ان صعدنا على السلم الخارجى نمر عبر ممشى طويل.الى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد ذات اسلوب نصف اوروبى بمقاعد وكراسى ، نجلس ، يجرى حديث مع القاضى راغب ، وبعد بضعة دقائق يدخل الامام ، ننهض ونتبادل التحية على الطريقة الاوروبية ، ثم نجلس بعد ذلك جميعا .

كان اسلوب الاستقبال هذا مدروس بشكل جيد ، تكمن القضية فى انه ليس من الملائم ان ينهض الامام امام " غير المؤمنين " وقررت فى نفسى انه لا يرغب مستقبلا ضيوفة وهو قاعد كما يفعل الملوك الاسيويون ، ولهذا اضيفت قواعد الرسميات ، التى لا تمس بكرامة اى من الطرفين .

لابسا قميصا وعباءة ومتمنطقا بسيفة ، ومسبحة فى يده يذكرنا بعهد الانجيل ، حيث الملك والكاهن الاول شخصية واحدة ، وبحركات عصبية حادة يجلس على مقعد من المساند ، ومسبحا بمسبحته يمطرنا بالاسئلة .

هو فى ذلك السن الذى لا يمكن القول بانه عجوز بالكامل ، فهو متحرك ، منفعل ، مهتم ونشيط فى الحديث ، يستفسرنا خلال ثلاثين او اربعين دقيقة دون توقف حول كل شىء ، عن صحتنا وكيف وصلنا وحول كل المشاكل الدوليه ، ماذا يحدث فى المانيا ؟ هل تقوت بعد الحرب ؟ ما هو وضع الحكومة الحاليه فى انجلترا ؟ ما هى طبيعة العلاقات بين الاتحاد السوفييتى وتركيا وفارس وافغانستان ودول الشرق والغرب ؟ هل ستستطيع الهند ومصر نيل الاستقلال ؟ ماهى طبيعة الوضع فى الصين ؟ من سينتصر الشماليون ام الجنوبيون ؟ .

يوجه الاسئلة واحدا بعد اخر ، والقاضى راغب واقف فى ، وضع احترام ، منحنى قليلا ليس دون صعوبة ، يكابد مهمته ليس ببساطه كتركى ، يترجم كلمات الامام الى اللغه الفرنسيه ، واجابتنا الى اللغه العربية ، وهذه المهمه شاقة لان الامام يوجه الاسئلة لا من اجل ان يكتفى باجابات عامه دون محتوى ، بل انه يعيد الاستفسار اكثر من مره ويدقق افكاره ، ينصت لأجابتنا باهتمام فائق ، ممعنا التفكير فيها بسرعة وفى نفس اللحظة ، ينقل ما تولده هذه الاجابات من تاثير الى هزات عصبيه سريعه للمسبحه ، ومن حين الى آخر يضحك بحدة وعصبيه ، وكانه يطمح عن طريق الضحك اكمال ما لم يرد قوله بالكلمات ، وفى هذه اللحظات تهتز قامته المكتنزه قليلا ، تنتقل عيناه بالتناوب من احد محدثيه الى اخر .

انظر الى الوجه الحيوى للامام ، رغم انتفاخه قليلا ، بلحيه متموجه وخدود منتفخه ، اتعجب من ان هذا الانسان الذى قضى كل حياته فى جبال وصحارى اليمن ، والذى لم يكن ولو مرة واحده ليس خارج اليمن فقط ، بل وحتى فى تهامه هذا الانسان الذى لم يرى البحر والجليد فى حياته ، ولا البواخر والسكك الحديدية ، ويتضح مدى فهمه لأعقد مشكلات السياسه الدوليه الى هذا الحد او ذاك ، وابداء من وقت لآخر الشعور وكاننى طالب معهد يقدم امتحانا فى مبادىء السياسه ، لتذكر حياته ، اعوام التشرد الطويله فى صحارى وفجاج اليمن ، الحياه العسكريه القاسيه لزعيم ومنظم حركة المقاومه المعاديه للاتراك ، التى ادت الى نجاح نسبى فى العامين او الثلاثه اعوام قبل الحرب العالميه فقط ، حين اعترف الاتراك بصلاحيات الامام الدينيه فى اليمن واعطوه امكانية القعود وتثبيت نفسه فى صنعاء ، وفى عام ١٩١٢ قام فى اليمن شكل خاص انتقالى فى ثنائية السلطة بشخص الامام والمشايخ وفرق الانصار من

القبائل من جهة ، والوالى التركى الجندرمه والقوات التركيه من جهة اخرى ، كانت هذه فترة انتقاليه فريدة ، وكان كلا الطرفين يستعد لمواصلة الصراع ، فالاتراك يشقون الطرق المعبدة ويبنون القلاع ، والامام يقوم بعمل تحريضى فى اوساط القبائل ، يوحدها حولة ، وشيئا فشيئا يكون الجيش ، لقد غيرت الحرب العالميه مجرى الاحداث ، لقد وضعت الطرفين امام عدو واحدا هو انجلترا ، التى احتلت منذ عام ١٨٣٩ عدن اليمنيه ، واصبحت العدو اللدود لليمن ، وفى مجرى الصراعً ضد الانجليز اقترب اليمنيون من الاتراك الى الحد الذى كانت فيه اليمن اكثر الدول العربيه مرونه مع تركيا ، وبعد ان طرح صلح لوزان العلم التركى فى الارشيف فقط .

وبعد انتهاء الحرب بقى اليمنيون لوحدهم عمليا ، وبعد صلح لوزان الشكلي بقوا لوحدهم وجها لوجه ضد انجلترا ايضا ، وكان يتحتم عليهم خوض نضال طويل وعنيد ضدها ، فى هذا الصراع جرب العدو كل الاساليب لضعضعة الدولة اليمنيه الفتيه ، بدأ من الاحتلال العسكرى للحديدة – فى الاعوام الاولى من صلح فرسال – ومرورا بتنظيم الانتفاضات الداخليه ، وتحريض الدول المجاوره (الحجاز وعسير) ضدها ، والحصار الاقتصادى ، والرشوه ، والتجس ، والقصف بالطائرات فى صيف عام ١٩٢٨م مباشرة ، لقد تطلب هذا الصراع من الامام واعوانه ليس الشجاعة الشخصيه فقط بل والمهارات القتاليه والتنظيمية ، لقد كان الامام على رأس جماعات الانصار المنتفضين لضرب الفرق التركيه عديمة التنظيم والواقعة تحت قيادة باشوات السلطان الغبية والجاهلة ، ولكن مسألة النضال ضد انجلترا التى تجيد القتال بالهراوات وبالدينار ، بالطيران وبالتحريض ، فان المهاره لا تكفى ، وها هم الناس الذين لم يروا البحر قط ، والذين استشفوا كل ثقافتهم تقريبا من القرآن والسنة ، بدأوا على عجل يسلحون انفسسهم وباستخدام المخلفات البشريه والمادية للارث التركى ، واكملوا تشكيل الجيش النظامى ، الذى بدأوه فى زمن الحرب ، وشرعوا فى بناء الصناعة ، وشق الطرقات وامتلاك الطائرات .

اصبحت الصحف الاجنبيه ، وعلى راسها الصحف المصرية الوسيلة الاساسيه لدراسة السياسة العالمية ، وظهر الوعى بضرورة جلب التقنيه الاوروبيه ، واقامة العلاقات التجارية مع دول الغرب ، بل وحتى ادراك ضرورة اقامة العلاقات الشكليه مع البلدان الاخرى ، وهكذا كان الاتراك والايطاليون والالمان قد وصلوا لبناء البلاد بهذا القدر او ذاك ، واصبح الاجانب يتوافدون الى العاصمة ، وكانت الاحاديث التى تجرى معهم بمثابة مصدر لدراسة القضايا

الدولية الغامضة غاية الغموض ، وها هى النتيجة خليفة " النبى " ، ورأس اقدم سلالة ملكية فى العالم ، يعتبر فى تصور اتباعه انه يمثل الزعيم الروحى لعامة المسلمين قد وصل الى ادراك فائدة وضرورة عقد الاتفاقيات مع ممثلى اول بلد اشتراكى فى العالم الواقع في طرف نصف الكرة الارضية الآخر .

تنتهى المقابلة الرسمية بعد حديث استمر ساعة ونصف ، يعطى الامام للقاضى راغب صلاحية حل جميع القضايا العملية معنا ، ينهض خارجا بعد ان عبّر عن امله بنجاح كل المحادثات ، اما نحن فنسير الى البيت بوقار .

الباب الثالث عشر

* جهاز الدولة اليمنى
* القضاة ، الديوان ، المشايخ
* الاجهزة الادارية والارشادية
* الامام
* الوزير الاول
* سيوف الاسلام
* الزرانيق المتمردة
* محتفيو اليمن



جهاز الدولة اليمنى

نعيش فى صنعاء اسبوعا اخر ، نتضايق ، فالحياة تمتد على وتيرة رتيبة واحدة ، المدينة فارغة ، والمدارس مغلقة ، لم يعد الزوار الصاخبون من ابناء الفئات الدنيا يتزاحمون امام بوابات الاستقبال والمداخل الامامية لبيوت الوجهاء .

السوق هادىء ، المساجد فارغة ايام الجمع ، لا وجود للاستعراضات العسكرية الباذخة على طريقة اسطنبول السلطانية ...

لكن فى المساء ، وفى ظلمة ما قبل الفجر الحالكة تدوى اشارات النداء من الابواق العسكرية ، وتلمع المصابيح مضيئه بالكاد اشباح مجاميع القوات المتحركة ، وعندما تضىء اشعة الضوء الاولى فوق افق المدينة ، نشاهد الفرق التى تسير تتمرن على المعارك الليلية مع العدو المنتظر تحت اسوار المدينة ، وعلى بعد ١٠ - ١٢ كيلو متر من العاصمة فى وادى ضهر تجرى مباحثات الامام المستمرة مع زعماء القبائل الذين وصلوا من مختلف انحاء البلاد على رأس قوات مجهزة على جناح السرعة ، السؤال يدور حول بقاء او فناء الوطن ، حول الحرب مع الانجليز او عدم الحرب ، لا تسير القضايا التجارية بالسرعة التى نرغب بها نحن الواصلون بوتائر الخطة الخمسية ، بدانا نفهم ان جهاز الدولة اليمنى ليس بتلك البساطة ، التى يبدو بها فى بداية الامر ، يبدو ذلك واصحا شكليا ، فرأس الدولة هو الامام ، ومع بضعة نواب (عادة خمسة) ، يحمل كل واحد منهم لقب " القاضى " (وراغب واحد من هؤلاء الخمسة) وكل واحد من هؤلاء النواب يرأس قسما خاصا فى جهاز الدولة ، وتحت امرة كل واحد منهم بضعة " مكاتب " تشبه الوزارات تقريبا ، والبلاد مقسمة الى عدة مناطق ، وعلى رأس كل قضاء " عامل " . والتقسيم الادارى بعيد عن التنظيم ، فالمناطق مختلفة من حيث اهميتها ، تكتسب احيانا اهمية مقاطعة مثل تهامة التى يوجد على راسها الامير محم ابن الامام ، وعلى رأس المنطقة الشمالية الامير احمد الابن الاكبر للامام ، كما توجد مقاطعات صغيرة منسية يرأسها صنائع عديمة النفوذ ، كما ان مجالات تأثير " القضاة " مختلفة ، فالقاضى راغب يشرف بشكل مطلق تقريبا على السياسة الخارجية والصحافة ، ونائب اخر او مايسمى بـ " الوزير (الكبير) " ، القاضى عبدالله يشرف تقريبا على القضايا العسكرية ، والصناعة والمالية ، يعتبرونه رئيس وزرائه الفريد ، فى هذا الجهاز من القاضى حتى الموظف الصغير يسمون انفسهم بتواضع " خدم " الامام ، الذين يتعامل معهم الاخير حتى فى المراسلات

الوظيفية بصيغة المفرد ، لقد حذرونا من القاضي عبدالله حين كنا في الحديدة ، انه واحد من اكثر مستشاري الامام نفوذا ، وحين قابلناه في صنعاء اندهشنا من الحس السياسي الفائق لهذا الانسان ، وفهمه للمهام السياسية للدولة اليمنية وتداخل كل هذا مع التدين البدائي والسذاجة الطفولية المباشرة ، لقد انعكس فيه طرفا نقيض بين الاقطاعية الهرمة والافكار الوطنية المتقدمة التي تمتلكها بلاد ملكة سبأ .

واذا كان القاضي راغب ، ممثلا نموذجيا للعناصر القادمة المسلحة من غير العرب ، المستعدة مساعدة اليمن قدر طاقتها في تحقيق المهام الوطنية ، وان كان في حقيقته ارفع من الناحية الثقافية من المستوى المتوسط في هذا البلد ، لهذا فانه معزول نوعا ما عن الجماعات الحاكمه ، ولا يملك فيها جذور قوية بما فيه الكفاية ، فانه يتمثل في شخص القاضي عبدالله القسم التقدمي نسبيا من الفئة العيا اليمنية الاصل والقاضي عبدالله يمني حتى نخاع العظم ، وهو الاخر لم يرى باخرة اطلاقا ، ولم يشاهد البحر والجليد ، اكتسب تجربة ما من الاتراك ؛ الذين كان في خدمتهم اثناء فترة احتلالهم لليمن .

شاب (عمره يقارب ٣٥ سنة) يذكر مظهره بباريس جود ونوف ، بلحية عريضة كثيفة ، اجعد النودين ، بعيون ذكية معبرة ، يجسد القوة المنظمة في اليمن ، مشغول من الصباح حتى المساء ، يتفقد نشاط الاجهزة الحكومية ، ومراقبة صحة عمل الادارة العسكرية وغيرها من المنشآت الصناعية وتمويل الجيش وتدريبه ، هو مثل الامام والقاضي راغب يعمل من الساعة السابعة - الثامنة صباحا حتى منتصف النهار ثم يخلد بعد ذلك الى ساعات القات ، ويتجدد عمله في المساء ويستمر احيانا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ورغم ان ثقافته قليلة ، فانه واثق بجدية من ان مؤسس صنعاء هو سام ابن نوح . والقاضي عبدالله داعية متحمس لافكار التصنيع في نفس الوقت ، يحلم بانشاء صناعة النسيج على قاعدة القطن اليمني الفائق الجودة ، وعلى الاحتياطي الضخم ، كما يؤكد على وجود الفحم الذي لم يستغل بعد .

لا داعي لضرورة امتلاك فطنة خاصة لملاحظة ان القاضي عبدالله ، شأنه شأن القاضي راغب ، فضلا عن نخبة الوجهاء الاقل بروزا في العمل ، هم في جوهر الامر يمثلون السلطة التنفيذية فقط ، يعدون وينفذون ارشادات وتوجهات الامام ، يعتبرون " مستشارين " شكليا الى حد كبير وفي الجانب العملي فقط ، يخاطرون بالتدخل في التوجيهات المبدأية بقدر كبير من الحذر والتحفظ ، لا يوجد وراء ظهورهم لا انساب وجيهة ولا ملكيات واسعة ولا خبرة سياسية

طويلة ، ولا نفوذ دينى ولا علاقات واسعة ، انهم اخصائيون سياسيون في جهاز الدولة ، انهم محرومون من قاعدة اقتصادية ، وتعتمد كل قوتهم وتأثيرهم علي مواهبهم التنظيمية والسياسية بشكل مطلق وعلى المقدرة الدؤوبة فى العمل ، وهذا كما هو معلوم بعيد عن الكفاية لامتلاك سوت حقيقى حاسم فى القضايا المبدئية ، ولا ياخذ الامام فى مثل تلك القضايا انتباها لمثل هؤلاء المستشارين ليس شكليا فقط ، بل ولا حتى عمليا ، ومن المشكوك فى انهم يدعون ذلك .

يستطيع الامام القول عن نفسه اكثر من اى ملك اوروبى " الدولة هى انا " وذلك لانه فى يدة ، الجيش ، جهاز الدولة ، الخزنة ، وثروة شخصية لا تحصى بشكل احتياطى من الذهب والكنوز الموروثه عن الاسلاف ، يمتلك نفوذا دينيا لا حد له ، ويمتلك افضل الاراضى فى البلاد ، وافضل البيوت والحدائق فى العاصمة وما حولها ، وفي صوامعة ومخازنه تنكسب افضل محاصيل البن ، لقد آلت اليه كل ملكيات الاتراك المطرودين ، وفى يده كل اسس الصناعة المستخدمة فى صنعاء مثل ، محطة الكهرباء ، المطبعة ، مصنع السلاح (اشتراه من الايطاليين) ، والة تصفية القطن وطاحونة تدار بمحرك يعمل بالبنزين – اهتماماته الشخصيه لا تنفصل عن الدولة تقريبا ، والى ذلك كالحد تشتد عرى ارتباط مفهوم ملكية الخزينة بملكية الامام الشخصية ، لهذا السبب يهتم الامام بكل شىء من تغير الوزارة في بريطانيا الى تغير البغال للمسافرين من الحديدة ، وهو يحكم ويدير بكل معنى الكلمة ؛ كل اليمنيين " خدمه " و " عبيده " ابتداء بالعبيد الحقيقيين وحتى الوزراء او بالاصح النواب .

يبدو للوهلة الاولي ملك مطلق بلا حدود ، لكنه كما ذكرت سابقا لم يكن بمقدوره الامتناع عن مضغ القات ، كما كان مضطرا الى منع ابنائه من الذهاب الى محطة الاذاعة لسماع الحفلات الموسيقية الاوروبية لان اتصال ابناء الزعيم الروحى بموسيقى غير المؤمنين ، يعتبر امرا غير مسموح به من قبل " الرأى العام " المتمثل بمجموعة من المشايخ المتنفذين وفئة السادة المذكورين ، والاكثر من ذلك ان تلك الاغانى تذاع باصوات نسائية في الغالب .

ان هؤلاء المشايخ ، الذين ينقسمون الى عدة فئات ، تربطهم خيوط كثيرة من علاقات الدم والملكية والدين مع كل فئة الوجهاء من التجار – الاقطاعيين فى اليمن ، يتابعون بيقظة كى ينفذ الامام ، الملك المطلق ، ارادتهم ، ويحمى مصالحهم ، هذه المصالح التى تعتبر مطابقة لمصالح الوطن والدين ، ان اقل مبادرة اصلاحية يتجرأ الامام عليها يستقبلونها بمقاومة ضارية ، وبصعوبة بالغة يتمكن الامام ومجموعة من الوجهاء بطريقتهم الخاصة اجراء هذه – او تلك من التجديدات ، تلك البدايات مثل استخدام السيارة والدراجة البخارية ، السماح بوصول الاطباء

الاجانب (كان اوائلهم من الايطاليين) ، وبعث الطلبة الى الخارج (الى ايطاليا لدراسة الطيران) ، قد قوبلت بمقاومة عنيدة من قبل هؤلاء ، وتحققت بعد مناورات صعبة طويلة . اما ما يتعلق بتلك الافعال مثل عقد الاتفاقيات مع الدول الاجنبية (ايطاليا - الاتحاد السوفيتى فيما بعد) او قضايا الحرب والسلم ، فانه يجب ان يسبق ذلك قيام عدة اجتماعات ، مؤتمرات ، محادثات الامام وراء الكواليس مع المشايخ ... الخ .

وعلى العموم فان مجموعة صغيرة من زعماء مذهب الزيدية (مذهب اسلامى ايرانى المنشأ يشغل مكان وسط بين السنة والشيعة) تعتبر وكانها لجنة مركزية من نوع خاص لهذا المذهب ، الذى يمكن ان نسميه الحزب الحاكم فى اليمن بمعنى خاص ، وفي هذا الوضع يعتبر الامام ليس اكثر من ممثل لهذا " الحزب " ، يجب ان يكون الامام منتخبا من الناحية الشكلية عن طريق مراسيم طويلة معقدة ، ومن الناحية العملية ينتخب الابن الاكبر للامام المتوفى عادة ، ومن الناحية الشكلية يجب ان توجد فى الامام المنتخب اكثر من عشرة شروط " معنويه "(الشجاعة والرجولة والعدالة ... الخ) وقد صيغت في قانون خاص فى المذهب الزيدى ، وينتج عن ذلك مبدأ خليط من المبدأ الوراثى والمبدأ الانتخابى ، الجمع بين السلطة المطلقة والمبادىء الدستورية الشيخية فى نفس الوقت .

القضاة ، الديوان ، المشايخ

والمشايخ (الكبار والمتوسطون في اليمن يبلغ عددهم ما يقارب الفين شيخ) يعتبرون اكثر الفئات الاجتماعية نفوذا ، وكما اشرنا سابقا ، فانهم ينقسمون الى فئتين ، فئة ارستقراطية اكليركية بليدة ، وفئة اخرى من الاقطاعيين الأقل رجعية تنمو قليلا قليلا الى طبقة تجارية - صناعية ، يعتبر خط الامام محصلة لهاتين القوتين ، ويحدد تآلفها النهج السياسى الرئيسى ، تقع تحت تأثير المشايخ مجالس خاصة (كان عددها ثلاثة) ، دائمة الانعقاد لدى الامام ، يتكون كل واحد منها من اثنى عشر الى خمسة وعشرين شخصا من اكثر المشايخ نفوذا ، واكثر هذه المجالس عددا ونفوذا هو مجلس القضاء الدينى ، الذى يقف على رأسه اعلى شخصية دينية - شيخ الاسلام ، وهذه المجالس تلعب دورا حاسما في القضايا الرئيسية ، ومع ذلك تعتبر هيئات غير رسمية ، ولا يتدخل المشاركون فيها ظاهريا في القضايا ، وليس بمقدور الاجانب مثلا مقابلة اعضاء مجلس العلاقات الخارجية اطلاقا ، وانما يجب بحث جميع القضايا مع المستشار " الرسمى " كما هو فى هذه الحالة القاضى راغب .

الاجهزة الادارية والارشادية

وفى كل الاحوال فان شهر او شهرين من التواجد في صنعاء غير كافى لمعرفة الوضع بوضوح بكل دقائق ماكنة الدولة ، التى هى ليست بتلك البساطة ، وبكل حيل الجهاز الحكومى و " الاجتماعي " ، التى بواسطته تتجاوز الطبقة الحاكمة مؤامرات العدو الخارجى الجبار ، ومقاومة العناصر المعارضة فى داخل البلاد ، وان تحل المهام الصعبة والمعقدة لاعادة بناء البلاد ، متجاوزة التناقضات الطبقية والقبلية والدينية .

الامام

ولا يزال من الصعب اعطاء وصف شخصى للامام ، ومن الصعب فهم اى من الافعال تمليها مصالح الامام الذاتية ، وتنفذ بمبادرته الخاصة ، واى منها تنفذ تحت الظروف الموضوعية ، واحيانا كثيرة تحت ضغط شيوخ " الاسلام " . يمكن باختصار فقط رفض التصور الذى ينشره عنه الصحفيون الاجانب كواحد من اكثر الملوك رجعية وبخلاً واستبدادا ، ومقارنته بالملوك العرب الاخرين ، تتكون هذه التصورات نتيجة للنضال العنيد ، رغم انها ليست واضحة دائما ، هذا النضال الذى يخوضه الامام ضد محاولات التغلغل الامبريالى فى اليمن ، ونتيجة للريبة الطبيعية التى يكنها للاجانب وبضائعهم ، بعد ان اقتنع من خلال تجربته مع الايطاليين ، فانهم مستعدون لخداعه في كل خطوة وتوزيع كل بضاعة رديئة بمبالغ ضخمة ، وهكذا حلقت طائرة واحدة لبعض الوقت ، من اربع طائرات ارسلها الايطاليون ، اما بقية الطائرات فلم يكن بالمقدور حتى تشغيلها فقط ، كما ارسل الايطاليون بنادق من عهد الحرب الايطالية - الحبشية ، مقابل سعر باهظ ، وباعوا عليه سيارات قديمة غير صالحة ... الخ . الى درجة اصبحت كلمة " بضاعة ايطالية " تعنى فى اليمن كل ماهو ردىء ، وصارت كلمة " ايطالي " ترادف كلمة " المانى " عندنا فى الماضى لكل " اجنبى " وبالقدر الذى برز فيه شعور حذر من عدم الثقه بكل ما هو مستورد من الخارج ، فقد وجد تفسيره بـ " البخل " المزعوم للامام (الذى دفع مبالغ ضخمة على استيراد بضائع غير صالحة) ، وفى الحذر الشديد اثناء دفعة للنقود ، واضعا شرط مسبق هو ان تشغل السيارة المشتراة امامه .

وما دمنا قد توقفنا عند الامام ، فلقتل بضعة كلمات عن ابنائه ، لقد قابلنا الامير محمد في الحديدة وهو الابن الثاني للامام ، ويصفه الوجهاء مع مسحة من السخرية بانه فيلسوف وشاعر وحالم ، يعيش وحيدا ، خلاف غيره من الوجهاء ، الذين يتزوجون حريما كثار ، يكتب الشعر ، ويقرأ الصحف المصرية بمثابرة ، هل ياترى اثر عليه تواجده في اوروبا (لفترة قصيرة اثناء سفره مع القاضي راغب الى ايطاليا بعد توقيع الاتفاقية) ام سعة اطلاعه ، هي التي اعطته مظهرا تقدميا ، لا يخشى من ان يعرض نفسه للتصوير ، والصعود على الطائرة ، فضلا عن سفراته الكثيرة بالسيارة ، كما ان تواجده في الحديدة ، واتصاله المستمر بالوسط التجارى الكميرادورى ، قد جعل منه حسب رأى الاجانب ، مهادنا بالنسبة لنفسة ومشاعر هذا الوسط ، كما ان لين طباعه وسرعة تصديقه كثيرا ما يكون السبب في ان يجتمع حوله الكثير من المقامرين ، الذين لا يستطيع التجرؤ على رفضهم باستمرار .

الوزير الاول

ونقيضه اخوه الاكبر العهد احمد ، الذى يحمل لقب سيف الاسلام ، انه جبار ومقاتل شرس ، ينشر الخوف والذعر بين كل مرؤوسيه ، لقد وصفوه بانه يحتفظ عادة ودائما بثعبان وفهد الى جانبه وبهذه الطريقة يجعل الوجهاء الذين يصلون اليه يرتعدون ذعرا وحين ياتى الى صنعاء من الجبهة بين حين واخر يحيط به محاربون وقحاء ، ويرتبط وصوله بالذعر العام ، كما يقال ، انه حتى الامام يتغير صوته كثيرا حين يتحدث مع ابنه ويخاطبه بلهجة بعيدة عن الترفـع .

ولكى ينتهى عرضنا للبيت الحاكم لليمن يبقى ان نضيف انه الى جانب احمد ومحمد يوجد سبعة او ثمانية اولاد للامام في عمد الطفولة والفتوه ، لا يتربون على نمط اقطاعى خاص يدرسون اللغات الاجنبية وبعضهم يقود الدراجة البخارية ، والبعض الاخر الدراجة الهوائية ، والتحديث يكشف عن نفسه .

وعلى العموم فان حياة الامام الاسرية تسير في وضع محكم الاغلاق ، اتذكر انه في احد الايام ابلغنا غير رسميا عن وفاة احدى زوجات الامام (زوجاته اربع) ، وحذرونا في نفس الوقت من التحدث بهذا الشكل او ذاك عن هذا الموضوع عند لقائنا بالامام ، وذلك لان الوفاة ، والولادة او الزفاف في القصر هى مسائل حياتية داخلية خاصة جدا ، وتعرف الاجانب عليها محرم .

لقد تحدثنا سابقا عن الطبيعة الاجتماعية للفئة الحاكمة لليمنى فهى تعتمد على الجيش والاقطاعيين الذين ينمون باشكال راسمالية ، وتتحالف مع البرجوازية التجارية الداخلية وحتى مع الاوساط الميسورة فى الارياف ، والقوة التى تعارضها هى فئة الارستقراطية الاكليريكية (المغلقة الدماغ) وزعماء القبائل الذين لا يحبون الخضوع للسلطة المركزية ، ان الصراع مع الزعماء القبائل العصاة يشكل جزءا رئيسيا من السياسة الداخلية لليمن ، ويعتبر القسم الجبلى من اليمن مرتبط بالدولة بقوة على وجه العموم ، وسواء شاء مشايخه ام ابوا فانهم خاضعون كليا للسلطة المركزية ، والعلامة الخارجية هى انتماء كل مشايخ القسم الجبلى لمذهب الزيدية ، وعلى عكس ذلك مشايخ وقبائل تهامة وما وراء الجبال فان اغلبيتهم ينتمون الى مذهب ، ولا يميلون ابدا للاعتراف الكامل وبشكل مطلق بنفوذ الامام الدينى والحكومى ، والذى يلعب الدور الرئيسى فى هذا التناقض ليس الدين بالطبع وانما الاقتصاد ، فقبائل تهامة وما وراء الجبال يقعون فى درجة ادنى من التطور ، ما زال اقتصادهم يحتفظ بالنمط الرعوى فى تهامة ، وحياة البداوة فيما وراء الجبال ؛ وبعد ان تعودوا على العيش على اساس وحدة اقتصادية مغلقة ، فانهم لا يميلون الي الرضوخ لجهاز الدولة فيقاومون محاولات السلطة المركزية التى تحملهم اثقال الضرائب وفرض الخدمة العسكرية .

ويستغل تذمرهم من السلطة المركزية بمهارة من قبل الامبرياليين الاجانب الذين يقومون بدعاية حاذقة بين القبائل ، وفى اللحظة المناسبة يمدونهم بالنقود وحتى بالسلاح يدفعونهم للنضال ضد السلطة المركزيه ، واكثر القبائل عنادا في صراعها ضد الامام هى قبائل حاشد والزرانيق ؛ تسكن حاشد فى شمال اليمن ، على الحدود مع الحجاز ، وتعيش قبائل الزرانيق فى منطقة جنوب تهامة ، وهى منذ عهد قديم ، من عهد الاتراك مشهورة بالاصرار والعناد ضد كل محاولات التغلغل الخارجى سواء التركى او اليمنى فيما بعد .

ولنقدم كلمة احد الاصدقاء العرب ، الذين وصف لنا طباع هذه القبيلة وصراعها ضد الامام بهذه العبارات :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الزرانيق هم عرب ، لكن بينهم قبائل حبشية وسودانية الاصل يعيشون على الساحل والى الشرق منه ، ومواننهم هى (الجوى) وعليفقة ، وعين الدى والطائف وعاصمتهم بيت الفقيه ، بينهم تسعة آلاف من المسلحين الشجعان ، لكنهم يشكلون مع زوجاتهم واطفالهم وشيوخهم ما يقارب ثلاثين الف ، وقراهم تقارب الثمانين قرية ، فى ارضهم احراش يختبئون فيهاأوقات الخطر ، وينمو فى ارضهم السمسم ، البطيخ الاحمر ، الفول ، الذرة ،

وميناء الطائف من بين موانئهم الصغيرة ، انه قرية للصيادين ، وفي اثناء الحرب مع ايطاليا (عام ١٩١٢) قام بالتجارة الرئيسية مع الخارج بدلا من الحديدة ، وبفضل هذا اثرى احد الصيادين الفقراء واسمه احمد الفتيني واصبح اكبر تاجر فى الزرانيق ، لقد قام بتنظيم توصيل البضاعة الى الحديدة والى اعماق البلاد ، واخذ مقابل ذلك قسما من الارباح ، كما اقام علاقات مع عدن ومصوع ".

" والزرانيق لا يتزوجون قبل ان يبلغوا الثلاثين من العمر ، وعندما يتزوجون لا ينامون مع زوجاتهم اكثر من مرة واحدة فى الشهر ، يحبون اللبن والعسل بلا حدود ، جميعهم اغبياء لكنهم شجعان فى المعركة " .

عندما وصل الاتراك الى اليمن قبل ثمانين عاما ، رفض الزرانيق الخضوع لهم ، لم يدفعوا الاتاوات ، وفى عهد السلطان عبد العزيز جرت بينهم وبين الاتراك معارك كبيرة ، ثم خضع الزرانيق واجبروا على دفع ضريبة للحكومة التركية تقدر باثنين بالمائة من مجمل البضاعة المستوردة ، وثلاثة قروش على كل جمل يصل الى منطقتهم او يخرج منها ، وفي عام ١٣٠٤ هـ حدثت حرب بين الزرانيق وقبيلة فعار ، وكان الاخيرون قليلى العدد لكنهم اقوياء ، صلى شيخهم احمد مسكين يرجو من الله العون لبى الله طلبة فاصابت الكوليرا الزرانيق وتوفى عدد كبير منهم .

الزرانيق المتمردة

" وفى عام ١٣٠٩ هـ عين التراك فوزى باشا الذي وصل من سوريا قائمقام على الحديدة ، وكان هذا الشخص نبيلا ونزيها ، احبه كل اليمنيين بما فيهم الزرانيق ، ومع ذلك رفضت قبيلتها المجاملة والموازعة الخضوع للحكومة ، وحينئذ وصلت قوات تركية بقيادة الشركسى احمد بيه الى بيت الفقيه وهجمت ليلا على قريتهم ، واسر جميع مشائخهم واجبرهم علي الاعتراف بسلطته او قتلهم ، وهكذا كان الزرانيق مجبرين على الخضوع ، وتوفى احمد بيه سريعا بعد ان شرب عن طريق الخطأ شرابا روحيا من عصير التمر ، فرح جميع الزرانيق ، وبعد ان اقاموا احتفالا باذخا رفضوا الخضوع للسلطات التركية مرة اخرى " .

" لكن سعدى بيه الذي خلف احمد بيه يدخل مع الزرانيق فى معركة جديدة فيجبرهم على الخضوع وحينها تفرقوا فى كل الطرق الكبيرة وبداوا بنهب وقتل المسافرين او احبار التجار

على دفع اتاوة على كل جمل مقدارها بضعة ريالات ، وعندها ارسل سكان بلدة زبيد (يبدو انهم من التجار) برقية الى عظمة السلطان يرجون منه كبح وقمع هؤلاء المتوحشين ، فاصدر امرا لقائمقام الحديدة وقام الاخير بتكليف يوسف بيه واخرين بهذه المهمة ، وبعد شهرين من القتال انهزم الزرانيق واخذ المشائخ اسرى ، وحينها وصل رئيس مدينة الحديدة احمد شبراى باشا الى الزرانيق ، واطلق سراح الاسرى واصبح يدفع راتبا لكل شيخ من اجل عدم قطع الطريق " .

لقد كان نضال الزرانيق ضد الاتراك متميز لانه يعكس عملية النضال ضد العسف العثمانى ، وهو النضال الذى خاضته القبائل الزيدية بقيادة الامام ايضا .

وقد انعكست فى هذا الصراع اساليب الشراء والاستمالة تلك التى مارسها الباشوات الاتراك ، بهدف تأمين انفسهم بواسطة معاضدة المشائخ المحليين والتجار فى النضال ضد السكان العصاة .

محتفيو اليمن

سرد محدثنا طويلا تلك المعارك التى خاضها الزرانيق ضد الاتراك ، ثم ضد الانجليز بعد الحرب العالمية وضد الادريس حين احتل الحديدة ، والان يستخدم هؤلاء الفوضيون " من قبل الانجليز فى الصراع ضد الامام بطريقتهم الخاصة ، يناضل الزرانيق بانتظام وعناد ضد كل محاولات التغلغل فى اراضيهم من اى قوى غريبة عنهم ، ولا يستثنون فى ذلك حتى حكام بلادهكم من اليمنيين ، والسبب فى ذلك ليس الدوافع الاقتصادية المشار اليها فقط بل وبسبب المغالاة والتطرف الفريد الذى استخدمه الجيش والادارة اليمنيه فى الصراع ضد الزرانيق ، حيث ان دعاة المركزية الاقطاعيين ، الخشنين عديموا التجربة فى صنعاء كانوا يرسلون الى منطقة القبائل العاصية والمتمردة البلداء والعساكر الغلاظ الذين لا يملكون لغة الحديث مع مرؤوسيهم فى احيان كثيرة ، بلغة اخرى ، كانت لغة القتل ونظام الرهائن ونتيجة لهذا فقد استمر الصراع طوال عامى ١٩٢٨ - ١٩٢٩ بين الامام والزرانيق ، ولا نعرف هل انتهى ذلك الصراع الان ام لا .

غير ان الصراع مع الزرانيق ليس سوى اكثر الظواهر بروزا فى عملية النضال من اجل توحيد القبائل اليمنية فى جسم دولة قوى ، تخوض سلطة صنعاء هذا النضال فى ظل العمل

المضاد من قبل الامبريالية وعملائها ، يمول الانجليز والايطاليون الزرانيق بالسلاح على التوالى عبر موانىء بحرية صغيرة ، كى يكون من السهل على اولئك تهديد الامام ، حتى ينتزعون منه هذه التنازلات او تلك ، وعلى وجه العموم فان عملية التوحيد هذه لا تزال بعيدة عن نهايتها ، حيث ان مجموعة من القبائل وخصوصا الواقعة الى الشرق من صنعاء ، وما وراء الجبال ما تزال غير خاضعة لنفوذ السلطة المركزية ، والصراع ما زال قائما .

الباب الرابع عشر

* في ايام الغارات الانجليزية
* العملاء
* اضرب واهرب
* ثلاث صيغ



فى ايام الغارات الانجليزية

تبدو صنعاء وكأنها قد اقفرت ، البيوت الخائفة فارغة ، همد السوق وانكمش ، المدارس والاماكن الغاصة بالناس مغلقة ، المعسكرات الحربية خارج اسوار المدينة منتعشة لوحدها فقط ، وفيها تنفث دخان مدخنة مصنع الاسلحة الصغيرة محمومة ، يسمع صليل المعادن ، والمجموعات العسكرية تسير بدون توقف على السهل بالقرب من اسوار المدينة ، تلوح المدافع والرشاشات ، كما اقيمت مراكز مراقبة على الجبال المحيطة ، نقلت كل الممتلكات الحكومية من المدينة او مخبأة فى جبل نقم ، حتى الطائرة الوحيدة الصالحة للاستعمال ، والتى يقوم بخدمتها ثلاثة من المدربين الالمان ، امر الامام بتفكيكها و اخفائها خصيصا لهذا الغرض .

المدينة تنتظر الغارات الانجليزية ، وانتظارها ليس عبثا ، فالطائرات الانجليزية قد اغارت على المدن الحدودية مثل الضالع ، قعطبة ، ذمار ، يريم تعز ، وصف اخر من القرى والاماكن قد جرب ماذا تعنى منجزات " الحضارة " ، الاخبار عن الغارات القارات التى بدات تصل الينا في البداية على شكل اشاعات من الاسواق قد حدثتنا بها شخصية رسمية فيما بعد ، تبدأ الطائرات تضرب المناطق الحدودية " المتنازع عليها " ، ثم تضرب العمق فيما بعد ، فتصل الى الاماكن الواقعة على منتصف الطريق بين عدن – صنعاء ، يجرى اللعب باعصاب ضيقى التفكير والفئة الحاكمة فى اليمن .

وصنعاء حابسة نفسها تنتظر الغارات ، الصباح فى صنعاء واضح وهادىء ، لا ريح ولا سحب فى السماء الزرقاء غير المتناهية ، فى هذه الساعات من الفجر تنطلق الطيور الفولاذية الكاسرة من عدن ، تحلق فوق صف من القرى والمدن ، لا تبحث عن المدن المحصنة ابدا او عن التجمعات العسكرية ، لا يتورعون عن رمى القنابل على القرى الامنة ، يهبطون حتى التلامس فوق الريفيين الهاربين فى ذعر ، واكثر القتلي من النساء والشيوخ والاطفال ، يستمر هذا الاصطياد الدنيء حتى الساعة العاشرة ، ومن هذه الساعة يبدأ الطقس يسوء فى الجبال وتهب الرياح تدفع السحب فى زرقة السماء الملساء ، وتهب اعاصير حقيقية ويتساقط المطر احيانا ، كان الطقس يحمى البلاد ، العاجزة ، ثم تعود الطائرات الى اماكنها تحت حماية طوابى عدن ، ويتنفس السكان الصعداء ، ينتظرون بهلع فجر اخر .

موجة التوتر العامه تلفنا نحن ايضا ، نحن كذلك نخرج فى اوقات الصباح الى السطح المستوى ، نوجه المنظار الى الافق البعيد ، حيث تمتد الطريق الى عدن غير الودية ، مختفية

وراء كتلتين ضخمتين من الجبال ، نرفض الاقتراح المعروض علينا بالانتقال الى الاماكن الامنة خارج المدينة ، ننتظر بفارغ الصبر نهاية الموقف المتوتر ، نشعر كما لو اننا نشارك فى الاحداث الجارية مباشرة .

نسأل انفسنا ماذا سنفعل عندما تبدأ الطائرات بالقصف ؟ هل سنذهب الى اقبية المبنى ام سنبقى فى السقف نوجه منظارنا الى اعلى ؟ او الافضل لنا ان نخرج الى الحديقة ، لكى لا نقتل عبثا تحت انقاض البيت المنهار ؟ اين سنذهب فيما اذا سقطت صنعاء والحديدة وتحتم على الامام التراجع امام ضغط القبائل الممولة من الاعداء ؟ انذهب الى الشرق ، نسير عبر صحارى الربع الخالى المجهولة باتجاه شواطىء الخليج الفارسى ، ام نخطو مئات الكيلو مترات الى الشمال فى طريق الحجاج الى الحجاز ؟ لا نعرف ، بل ولا نمعن التفكير فى هذا الموضوع بشكل خاص ، تبدأ العصبية الشرقية تتغلغل فى مسام تفكيرنا ، وفى نشوة تاملية ننصت لخشخشة آلة الزمن ، التى كأنها قد تحركت من محطة القرون وانطلقت الى الامام .

الاشاعات زاحفة ، تسبق الاحداث ، وتتناقض مع مجرياتها مباشرة احيانا ، لا تعكس هذه الاشاعات ما هو موجود فقط ، بل وما كان مفترضا ان يحدث حسب تخطيط العدنيين الملهمين .

تصبح انتفاضة قبائل حاشد فى الشمال والزرانيق فى الجنوب الغربى معروفة ، يتحدثون عن قصف البواخر الانجليزية للحديدة يخبروننا فى نفس الوقت بان هناك اشاعة منتشرة وكأنه قد حصل قصف الطيران على صنعاء وعن تدمير القصر الملكى وهروب الامام ، وفى هذه الاثناء كدنا ان نقع ضحايا استفزاز ماهر ، ظل مصدره الحقيقى غير معروف لنا ، والقصة هى بالشكل بالتالى .

العملاء

ان احد تجار صنعاء ، الذى تصله قرابة مع احد الموظفين البارزين بالحديدة ، وكان قد تعرف علينا حسب توصية الاخير هذا ، وزارنا اكثر من مرة ، ناقلا وسط الاحاديث العمليه عن بيع البن وشراء الكروسين اشاعات السوق المتسمة بالتزوير السيىء المشبوه .

بدا لنا ان رده على اعقابه امر غير لائق ، وعلى كل حال هو قريب احد اصدقائنا ذوى النفوذ فى الحديدة ، صبرنا على زيارته الي حين ، غير انه عزم رفيقنا فى احدى المرات ، وقد

كان اكثر الحديث مع هذا التاجر حول السفر الى الحديدة ، ربما ان شخصيته هذه لم توحى لنا بالثقة اطلاقا ، شعرنا بنوع ما من اعمال السوء (فالرسالة يمكن ارسالها عبر البريد بسهولة) ، قام رفيقنا بفتح الرسالة ، لكى يقرأ رسالة ذلك التاجر المحترم ، يتضح انها مكتوبة بشكل ورقة صغيرة مجدولة او مقسمة الى قسمين ، فى قسم منها تعداد كل " المعلومات " الممكنة عن الوضع فى الجبهات ، فى العاصمة وفي كل البلاد ، وافقت هذه المعلومات الواقع جزئيا ، وان كانت قد حملت صفة سيئة القصد بشكل واضح لليمن ، فهى تخبر عن غارات الانجليز على عدد من المدن ، وعن انتفاضة قبائل حاشد ، وعن هروب الميسورين من صنعاء ... الخ ، وكان جزءا من هذه المعلومات مخترع وقد صيغ بطريقة مثيرة للفزع بوضوح ، فقد ابلغت الرسالة عن قصف الطائرات الانجليزية لصنعاء (حيث لم يصل طيران العدو اليها حتى الان) وعن تدمير قصر الامام ، والهجوم الذى بدأته القوات الانجليزية ... الخ . كانت ورقة الرسالة مسطرة بحيث كانت فى الجهة المقابلة للمعلومات ذات صيغة تقل او تكثر عن شبه الحقيقة " اسعار السكر (او الدقيق ، البن وغيره) منخفضة " ومقابل المعلومات الواضحة الهراء والكذب يكتب : " اسعار" (بضاعة ما) مرتفعة ايضا " ، هكذا تم تنظيم نقل الاشاعات المذعورة ، التى انتشرت فى كل البلاد ، الهادفة الى تقويض سلطة الامام ، واثارة الانتفاضة ضده ، والتى كان يتبناها من يحلم بمجيء فئة مقبولة للانجليز الى السلطة .

كان واضحا ان اليمنيين الذين يوالون الانجليز الى استخدامنا لكم واحه للاشاعات الكاذبة ، ربهذا يجروننا الى لعبتهم ، كان يمكن ان يكون هذا نصف المصيبه ، لكن كل الوضع الذى دبره اصحاب هذا التدبير ، ولعدة اعتبارات لا تستحق الذكر ، فرض علينا الشك بان مدبرى الدسائس ينوون فيما بعد فضحنا اما اعين الحكومة اليمنية ، يخبرونها بهذه الطريقة او تلك بواقعة نقل " الرسالة " الاستفزازية من قبلنا بالذات ، وقفت امامنا مهمة كيفية التخلص من هذا الوضع وقعنا فيه ، من الواضح ان ارسال الرسالة الى الجهات المعنية امر لن يكون ، وبالطبع كان المخرج البسيط هو توصيل الرسالة الي اى السلطات ، وبهذا نؤكد " ولائنا " . لكن هذا يعنى عدم الثقة من قبل من اعطانا الرسالة (رغم انه عمل ذلك لاسباب استفزازية وعدم الثقه فى الشرق امر لا يغتفر حتى من كان لصالحه ذلك ، ولهذا قررنا ان نبقى امناء فى موقف عدم التدخل فى الوضع العقد للعلاقات الداخلية اليمنية ، وبعد عودة الرفيق اعدنا الرسالة للتاجر مع الاعتذار عن عدم قدرتنا على توصيلها الى الحديدة وذلك " لاسباب خارجة عن ارادتنا "

لو كنا اوصلنا الرسالة الي المرسل له ، فانه يمكن ان يكون الاحتمال بتطور مجرى الاحداث اللاحق وفى افضل الحالات ، لو كان " صديقنا " فى الحديدة والتاجر فى صنعاء عميلين نشيطين للانجليز وعدوين للامام ، فسنكون قد نفذنا دورا منحطا كأعوان فى نشر الدعاية الانجليزية ، وقد يظهر " الصديق مستلم الرساله لكل من هب ودب ، كإثبات موثوق به عن صحة اشاعات الذعر المنتشرة ، وتلك الواقعة ، بان الرسالة حملها رفيقنا ، كانت ستستخدم كتاكيد اضافى على صحة معلومات الرسالة ، ولكنا قد نفذنا عملا مخزيا ومنحطا .

لكن كان هناك احتمال اكثر رعبا ايضا ، حيث يمكن ان يكون هذا التدبير مدبر من قبل رؤساء البوليس اليمنى الغيورين ، الذين يبحثون عن براهين " لعدم ولائنا " للامام ، ولهذا فقد اقدموا على هذا العمل الاستفزازى ، " اذ بعد ان يستلم الصديق " فى الحديده هذه الرسالة ، بمقدورة ابلاغ الحكومة بسرعة ، بانه اكتشف تعاونا نشطا " للبلاشفة " مع الانجليز فى قضية نشر الاشاعات الكاذبة ، وثبت الافتراء الايطالى (بان البلاشفة يتعاونون مع الانجليز ، ذلك الافتراء الذى تحدثنا عنه سابقًا ، وبهذه الطريقة يكون التأكيد امام عينى الامام نفسه ، ولكان هذا أسوأ من تجارة خاسرة أو فشل دبلوماسى . . .

لكن الامور بخاتمتها ، وهكذا لم نعرف ، هل اصبح معروفا للحكومة اليمنية هذا الحادث الصغير ، وفي كل الحالات ، لم نتباهى " بولائنا " والان لا نتباهى ايضا ، لقد سردنا هذا المقطع كصورة واحدة فقط وكلغم من الغام كثيرة اعداؤنا المتعددو الاشكال نثرها في كل خطوة امامنا ،

يمر اسبوعان او ثالثة متوترة .

يبدأ اثر الغارات يضعف ويزول بالتدريج ، نعرف ان بضعة طائرات انجليزية تحطمت فوق الاراضى اليمنية ، ولا نعلم هل كان ذلك نتيجة لرصاص البنادق التى اطلقها البدو ، او للمطبات الجوية فى الهواء الجبلى لليمن الذى لم يكن مدروسا من قبل الطيارين الانجليز .

وشيئا فشيئا تتعزز الثقة، بانالعدو لن يغامر بالطيران على صنعاء .

وبعد ذكريات الماضى نستخلص النتائج .

فى زمن الحرب العالمية ، فى صيف ١١٥ ، حين كانت اليمن شكليا ضمن الامبراطورية العثمانيه (اما من الناحية العمليه فلم يجد الاتراك مستندا او مرتكزا لهم فى اليمن اطلاقا ، وقد احتفظوا فقط بمدينتين او ثلاثة مدن ، قام الاسطول الانجليزى بقصف الحديدة .

اهتزت هذه المدينة الساحلية ، التى ازدهرت بتجارتها ، تحت ضربات قذائف الاسطول الحربى ، وتناثرت البيوت ، وهرب السكان العزل مجاميعًا الى سهول تهامة الحارة ، احترق السوق واشتعلت المخازن التجارية ، رغت الجمال بجنون ونهقت الحمير بطريقة انسانية مرعوبة ، وسقط مئات القتلى بينهم الشيوخ والنساء ولاطفال ومات الهاربون بدون طعام ولا ماء فى قيظ الصحراء .

لقد كان سخفا حتى من وجهة نظر المصالح العسكرية الضيقة لبريطانيا ، حيث لم يكن فى الحديدة لا تحصينات ولا مخازن عسكرية ، وانما كانت هناك تجارة عربية وصناعية آمنة ، اينما يكتظ الحرفيون ، والصناع اليدويون ، العتالون ، سائقو الجمال والحمير فى عشش معتمة ، والبائسون يتسكعون فى السوق .

فى ذلك الوقت ، كما هى الحال الان لم يخوضوا حربا ضد الانجليز ، لقد اعد اولئك السكان فى اماكن اخرى انتفاضة ضد الاتراك ، ولهذا فان تدمير مدينة امنه لم يجد اى مبرر له من اى وجهة نظر كانت .

لا تزال الهياكل المحطمة من بيوت الحديدة حتى الان ، لقد تفجر كل السخط على الانجليز فى عموم البلاد ، ووجدو صداه فى الخارج ، ودفع كل السكان الى تأييد الاتراك وقتل الآلاف من الاسرى الانجليز ، وخلقت حالة استطاع الاتراك في ظلمها ان يوجدوا لهم مكانة فى مساعدة اليمنيين وذلك بالوقوف تحت اسوار عدن حتى نهاية الحرب ، يشاغلون بذلك عشرات الالوف من القوات الانجليزية ، وذكرى هذا القصف البشع لم تمحى من ذاكرة السكان حتى لان .

لم تكن هناك ضرورة استراتيجية للقصف ، وكان عملا سخيفا سياسيا ، وقاسيا بشكل غير انسانى ، لكنها كانت تلك الحرب التى قتل فيها في شمال العالم عشرات الملايين من الناس .

غير ان الحرب قد هدأت الان ، ولاح حلول السلم ، على انقاض الامبراطورية العثمانية ، واصبح اليمن مستقلا ، وبدأ الحفر بالمحافر تطرق فى الطرق فى الجبال ، وبدأت البواخر تنفث دخانها فى الميناء ، ويدوى صفير السيارة الوحيدة فى الصحارى والجبال ، بدأت الاعمال فى حقل الزراعة والصناعات اليدوية الصغيرة والمواصلات ، وبدأت تتشكل شبه دولة في البحر الهائج من القبائل المتاحرة .

وها هى الان ، وبينما تتبطن اوروبا بالهراء حول نزع السلاح والسلام الابدى وما شابه ذلك ، تمتلىء هضاب اليمن بدوى انفجارات القنابل من جديد تشتعل القرى ، وتتهدم جدران البيوت ، ومن جديد تسيل دماء العشرات والمئات من السكان المسالمين من الشيوخ والنساء والاطفال .

والمميز انه هذه المرة لم يأت العدو من البحر ، حيث لم يرغب بعرض شناعته بشكل واضح امام العالم الخارجي ، واذا قدم من اليابسه فقوته لا تكفى ، لهذا فضل التحليق فى السماء ورمى الاف القنابل على مدن وقرى اليمن الآمنة .

اما سبب الغارات ؟ فقد اشرنا اليها ، نزاع حول بعض المناطق الحدودية ، التى يعتبرها الانجليز منطقة نفوذهم اليمنيين بالخروج منها ، وبدلا من المحادثات لجأ الانجليز الى اسلوب اكثر بساطة - الى القنابل .

هل كانت صدفة ام لا ، ان يكون النصف من القنابل المرمية لم يتفجر ، وبعضها تفجر بعد وقت بعيد اثناء التعامل غير الحذر معها ، ظل غير واضح لمذا رمى الانجليز بقنابل فاسدة ، الم يكن هذا رمز لفشل القصف ، مثلما كانت محاولات الانجليز فاشلة ايضا في اقامة انتفاضة داخلية ضد السلطة المركزية عن طريق شراء القبائل فى نفس الوقت ، وعد الكثير من زعماء القبائل بمناصرة الانجليز ، واستلموا منهم نقودا ، لكنهم اشعروا الامام بذلك وبعثوا له بقسم من تلك النقود فى نفس الوقت ، وقد اتضح ان قذائف الذهب التى سقطت على التربة اليمنيه هى اقل فعالية من القذائف المعبأه بالبارود ، لقد صمد اليمنيون

افصح العقيد جيكوب فى احد كتبه عن التكتيك الانجليز فى المستعمرات ووضحه بحكمة هندية معناها بالشكل التالى ·

اضرب اولا ثم اهرب .

وكان خطة المغامرين الانجليز هذه المرة ، كما اتضح من مجرى الاحداث بالشكل التالى :

رفعوا فى البداية عدة مطالب الى الحكومة المركزية في اليمن ، وباغتوها ، بالمذكرات ، والتهديدات والنصائح ، ثم القاء القنابل على المدن والقرى الآمنة ، وخلق حالة من الذعر ، وايقاف التجارة والمواصلات وشل الحياة الاقتصادية فى البلاد ، وبواسطة التحريض النشط ، المعزز بالهبات المالية ، و " التأثير المعنوى " علي المشايخ ، يثيرون انتفاضة القبائل سواء فى تهامة او فى شمال الشرق من القسم ما وراء الجبال المحاذى للصحراء ، واذا لم تؤدى هذه

الانتفاضة الى تغير حاسم ، فان هذا العمل يمكن ان يقود اليمنيين الى الاستثارة والقيام بصدام مسلح الي حد ان يقوم اليمنيون بالهجوم على عدن ، وهناك يلحق الانجليز هزيمة بهم ، وبهذا يعجلوا فى اسقاط تهامة ويعزلوا القسم الجبلى من اليمن عن البحر ثم يعطوا فيما بعد تهامة للادريس حاكم امارة عسير المجاورة الضعيفة والراقصة تحت المزمار الانجليزى ، او تنصيب واحد من اتباعهم على تهامة .

كانت الخطة مدروسة بتفصيل بالغ ، وقد بدأت وكأنها غير سيئة التخطيط ، لكنه يجب علينا ان نتذكر المثل القديم القائل اينما يكون الضعف يكمن الفشل

وفشلوا ...

وبعد بضع الوقت بدأ كما لو أن الحكومة اليمنية تتأرجح ، كانت تسرب اشاعات عن استعدادها للاستسلام احيانا ، وبالعكس ، عن بدء الحملة اليمنية على عدن واحتلال لحج الواقعة فى منطقة الانجليز غير المتنازع عليها احيانا اخرى .

ثلاث صيغ

كل هذه او تلك كانت اشاعات فقط ، انعكست فيها وجهات النظر المختلفة ، التى تصارعت فيما بينها هذه الايام ، وكانت وجهات النظر هذه (ثلاث تؤدى الى الاتى بشكل رئيسى - واحده من وجهات النظر هذه تقف الى جانب تلبية مطالب الانجليز في كل نقاطها الرئيسية (اخلاء المناطق المتنازع عليها ، الاعتراف بعدن للانجليز الى الابد ، وليس على المبادىء المتفق عليها ، كما كانت في ايام الاتراك ... الخ ، لم تكن هذه الخطة الاستسلامية بوضوح منتشرة ، وقد دافع عنها بعض المشائخ والوجهاء المغضوب عليهم فقط ، وقد اشترشدوا بالقسم الاكثر جبنا من التجار الكمبرادوريين .

اما وجهة النظر الثانية فقد اضرمت المشاعر المضادة للانجليز ، وقد اصرت على ان يعلن الامام الحرب المقدسة على انجلترا وتحريك القوات على عدن ، وقد بدا كما لو ان هذه هى النفسية السائدة فى الفترة الاولي ، ومن هنا انتشرت اشاعة عن احتلال لحج .

وليس من الصعب ملاحظة عدم ثبات ومغامرة هذا الخط رغم كل صلابته الخارجية المنمقة ، لقد كان واضحا انه رغم كل انضباط ، وتمرن ، وقنوع المقاتلين اليمنيين ، لكنهم مع ذلك ليسوا اقوياء بما فيه الكفاية لغزو منطقة عدن المحصنة حسب كل قواعد التقنية الحديثة ،

ان الاستعداد الدائم للموت ، والقدرة على اصابة الهدف بدقه من مسافة بعيده (يتقن القبلى استخدام البندقية منذ الطفولة) ، وعنده مقدرة علي الاكتفاء بحفنة من القمح ورغيف من الذرة للغذاء – كل هذا الى جانب المستوى الرفيع من التنظيم الحربى والطبيعة الجبلية للمنطقة تجعل اليمنى بالغ الصلابة فى القتال الدفاعى .

ولهذا فان غزو اليمن اذا تجرأ الانجليز على ذلك ، سوف يكلفهم ثمنا باهظا جدا ، ولتحولت البلاد الى مرجل يغلى ، لكنه من الواضح جدا ان القوات اليمنية الضعيفة تكنيكيا لا تستطيع في تلك الوضعية اخذ عدن بعد اصطدامهم بالانجليز على انفراد .

ظل موقف الحكومة غامضا على امتداد بضعة ايام ، وكانت تصل افواج جديدة من القبائل الى صنعاء يوميا لتعزيز وحدات الجيش النظامى ، كان التدريب العسكرى يجرى ليل نهار ، وكانت اصوات الابواق العسكرية تشق عنان السماء فى عتمة الليل اكثر من مرة ، تستنهض القوات للمناورة .

كان حساب الاعداء بسيطا ، وبدا كما لو انه صائب ، فلو اقدم الامام على التنازلات ، ستزول هيبته الى غير رجعة ، وكذلك السلطة معه ، واذا قرر الحرب وبعث بالقوات الى عدن فانه سيسقط نتيجة للانهيار العسكرى ، وفى كلا الحالتين سيربح العدو الخارجى الماكر وانصاره فى داخل البلاد .

استمرت جلسات الامام مع الشخصيات الاكثر نفوذا ومع ممثلى القبائل بضعة ايام ، ونتيجة لذلك تكونت صيغة فريدة للعمل تقول :

– لا تنازل لانجلترا ، ولا تنازل عن مطالبنا ، وبقدر الامكان عدم الانجرار للاستفزاز فى نفس الوقت ، لا دخول فى المعركة ، ولا ذهاب الى عدن .

بدأت هذه الصيغة فى المناطق الجبلية العصية اكثر مناسبة لمشاعر البلاد ، فى واقع اليمن الاقطاعى لم تهتز اعصاب اليمنيين تحت عناقيد القنابل الانجليزية ، وانتصرت اليمن فى صراع الاعصاب هذا ، فهم الانجليز ، بان تفجير الوضع الداخلى فى اليمن لن يتأتى لهم ، كما فهموا بان انفجارات قنابل الطيران لن تحل القضية ، فهدأوا ، تاركين الطيور الفولاذية الجارحة فى اعشاش عدن .

الباب الخامس عشر .

* محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسي
* الامام يستغيث
* النذور والرشوات
* انهيار الحسابات الانجليزية والصفعة الامريكية .



محاولة فاشلة للاستفزاز الدبلوماسى

جرى حدث بارز اخر فى هذه الايام، فقد وصل من امارة عسير الى صنعاء شخص اسمه جمال، ويحمل لقب باشا، وقد حصل على هذا من قبل ابن مسعود ملك نجد، وقد كان جمال هذا ضابطا تركيا سابقا، وخدم اثناء الحرب العالمية عند أنور، وقد شغل منصب " وزير حرب " ابن سعود ، وشارك فى الحملة على جدة والاستيلاء عليها ، وجمال هذا هو واحد من صنف اولئك الاتراك مثل القاضى راغب ، انقطع عن اصله التركى، ورمى بنفسه فى البحر الهائج للنزاعات العربية الداخلية ؛ لكن الفرق بين الأثنين ان القاضى راغب رابط الجأش وناضج سياسيا، فى حين ان جمال طائش، متقلب ، يشبه مغامر لا مبدأ له ، مستعد فى أى لحظة للركض هناك حيث يجد الفائدة أكبر، فى زمن الحرب بين نجد والحجاز قام بمساعدة ملك نجد ونال لقب باشا، من هنا كانت الكنية اللاذعة " الباشا ابن السعودى " التى الصقها اليمنيون به، ومع ذلك اختلف بسرعة مع ابن سعود ، وانتقل الى خدمة الادريس، وهناك عزز نفسه عن طريق زواج مربح ، وقد اعتبر نفسه ملك او حاكم هذه الامارة تقريبا ، رجل فى منتصف العمر، متبجح ، كثير الكلام ، مغرور، وصل فجاءة الى صنعاء فى هذه الايام المضطربة.

لماذا ؟

يرد الجواب نفسه، فعسير تقع تحت حماية نجد والحجاز ممثلة بشخص ملكها ابن سعود. وهذه الامارة تحاذى اليمن فى نفس الوقت، وسكانها من القبائل اليمنية، واقتصادها يميل الى اقتصاد يميل وضمها يشكل حلما مكنونا للحكومة اليمنية، يتحدث اليمنيون عن ذلك بصراحة، ويؤكدون مع ذلك بانهم لا يريدون طرح هذه القضية للبحث الان، وذلك لان ضم عسير لا يمكن ان يتم بدون نزاع مع ابن سعود الذى يحميها الآن ، وكان من الواضح ان الحرب بين اليمن والحجاز هى لصالح العدو المشترك – انجلترا، وقد لوحظ سابقا ان انجلترا تحاول اثارة النزاع بين الامام يحيى وبين ابن سعود، ففى عامى ١٩٢٥ – ١٩٢٦ عرض المبعوثون الانجليز تقديم الاسلحة لابن سعود على انفراد من اجل الحرب مع اليمن ، كما وعدوا الامام يحيى بالتسليح والمساندة ضد نجد والحجاز ، وقد اكتشفت هذه اللعبة من قبل الملكين ، واصبحت مثلا يمنعهما من السماع لمثل هذه الدسائس فى المستقبل ، وفهمت حكومتا البلدين بوضوح ، ان النزعات الداخلية هى لصالح الانجليز فقط ، حيث يكون بمقدور الاخير بهذا الاسلوب احتواء الطرفين ، ومن هنا وجدت النفسية المهادنة فى كلا المعسكرين ، فاليمن تعترف بصمت بمصالح

نجد والحجاز فى عسير وتمتنع عن القيام باى مشاكل على الشمال ، وبنفس المستوى ايضا يوجه ابن سعود كل اهتمامه ناحية الحدود الشرقية ، يطمح الى الوصول الى الخليج الفارسى، وقد اوقف التحرك نهائيا الى الجنوب نحو اليمن، وتحرك اليمنيين نحو الجنوب الى عدن، شأنه شأن انجذاب نجد نحو الشرق نحو العراق والكويت، يتوخى اهدافا مشتركة وهى شق الطريق الى شواطىء البحار المفتوحة، والخروج من مصيدة البحر الاحمر الخانقة، كان يعنى هذا توجيه ضربة لانجلترا، واختراق السلسلة المحكمة الترابط للامارات المرتبطة بالانجليز والممتدة على طول السواحل البحرية، لان امراء تلك الامارات يعزلون الدولتين الداخلتين المستقلتين فى شبه جزيرة العرب عن البحر المبتغى والحكم عليها بالخمول فى رمال وصحارى وجبال الاختناق القارى، لقد اكتشفت اللعبة الانجليزية، لكن الانجليز لم يكن بمقدورهم الصمود امام اغراء محاولة اثارة النزاع اليمنى – السعود فى أكثر اللحظات حدة، وها هو جمال التركى قد وصل الى صنعاء، لم يخف هدفه ذلك – ان يعرض على الامام وضع يده العالية على عسير ، وكأن هذه الامارة قد اصبح دورها ان تكون لعبة ، وانها تريد الدخول طوعا ضمن اليمن شرط الاحتفاظ بجزء من الاستقلالية .

كان الاغراء عظيما، فالقطعة المشتهاة قد اتت بنفسها الى يد الامام، وبدا انه لم يبقى سوى قول "نعم" ، لكن اليمنيين لم يقولوا "نعم" هذه، لقد فهموا ان وضع يدهم على عسير، يعنى الدخول فى نزاع مع نجد والحجاز، وبهذا يكونوا قد حققوا حسابات الانجليز، ولذلك لم يترددوا ، لم يستقبل الامام يحيى جمال هذا ، وقد مكث بضعة ايام دون جدوى ، وغادر اليمن خالى الوفاض ، واحترقت ورقة الانجليز هذه ايضا .

ومع ذلك ، لا توجد لدينا ادلة مباشرة ، بان جمال كان يحمل بوعى لصالح الانجليز، من المحتمل انه قد قادته اعتبارات مغامرة وهمية ذاتية، غير ان عمله موضوعيا كان يتفق مع مخططات الانجليز، وقد كانت عدن هى الملهمة او الموعزة بهذا القدر او ذاك من دون شك، وقد اظهر اليمنيون مستوى رفيعا من الوعى السياسى بسلوكهم فى هذا الحالة، فشوشوا بذلك كل مآرب العدو .

الامام يستغيث

لمسة أخرى ايضا ، تشهد على تلك التطورات ، التى عاشتها اليمن تحت تأثير القنابل الانجليزية، لقد تحاشى الامام حتى الان، اصغر استغاثة مفتوحة بالرأى العام او بالدول

الاجنبية ، حيث هيىء له و "لمجالسه" بان خليفة النبى لا يمكن ان تواجه الا الى الله، اما استغاثته بالشعب وخصوصا غير المؤمنين فهو امر اقل من كرامته وعزته، ولهذا فقد قرر القيام بخطوة جذرية للخروج من سكونه المهيب والاستغاثة بالشعب والخارج، حتى ولو كان ذلك بشكل مقالة منمقة.

ظهرت هذه المقالة فى عدد يونيو من صحيفة " الايمان " الصنعائية، وهى صحيفة متواضعة تصدر شهريا فى اربع صفحات، وتحتوى عادة على مناقشات قضايا دينية وبضعة اوامر، وقرارات حكومية، تطبع هذه الصحيفة فى مطبعة صغيرة موروثة من الوالى التركى، وتقع وراء جدران قصر الامام، وهكذا قرر الامام تحت تأثير القنابل الانجليزية ان يجعل من هذه النشرة الرسمية سلاحا للتحريض السياسى، فكلف احد مستشاريه بصياغة ونشر موضوع الغارات الانجليزية، وطرح جوهر الخلاف الانجليزى - اليمنى امام اعين " العالم كله " ، وبالنتيجة ظهرت مقالة كبيرة ملأت الاربع صفحات من الحجم الصغير للصحيفة، تحدثت المقالة فى بدايتها فى بدايتها عن آثام انجلترا التاريخية ضد حق الشعوب المسلمة فى مصر وسوريا والعراق وفلسطين والحجاز، ثم شرحت بالتفصيل دور الانجليز فى تاريخ اليمن ابتداء من عام ١٨٣٩ حين احتلت المراكب الانجليزية عدن تحت مبرر " الاستئجار " واصبحت فيما بعد قلعة وواحدة من القواعد الرئيسية على الطريق الى الهند، واقدمت الحكومة العثمانية المترهلة على التنازل معترفة بحق الانجليز " باستئجار " عدن، ومقابل ذلك سلم الانجليز للاتراك باحتلال اليمن، التى كانت تحتج أكثر من مرة قولا وفعلا ضد الغزو الانجليزى لعدن، وقد تعرضت " حقوق الاستئجار للتمديد فيما بعد، ومع ذلك، لم تعتبر عدن شكليا ارضا انجليزية، وكان الانجليز مستعدون " لـ التنازل " عنها للشريف حسين، الذى اطاح به ابن سعود فيما بعد، لقد اصطدمت محاولات الانجليز بالسيف والذهب لتوسيع نفوذهم خارج منطقة عدن بمقاومة اليمنيين خلال قرن كامل، واصل اليمنيون مقاومتهم، حتى بعد الحرب، عندما سيطرت انجلترا على تسع مقاطعات مجاورة، متكلفة بصرف معونات على مشايخ هذه المقاطعات، ثم تقدم المقالة وصفا للسياسة الانجليزية فى السنوات الاخيرة بالعبارات التالية :

" ... فى نهاية الحرب العاليمة، قام الانجليز، باعطاء تهامه للامير الادريس، حيث استغلوا ترك الاتراك لليمن، لكى يبدأ الادريس صراعا ضد الامام، بحيث يمنع قوات الامام من الهجوم على عدن، وقد قتل الانجليز آلاف كثيرة من الجنود اليمنيين فى النزاع بين الادريس والامام، ومثل هذا بالضبط يسعى الانجليز الان لزرع الفتنة بين قبائل اليمن، ويحرضونهم على

الانتفاضة ضد الامام، لكن جميع هذه القبائل ظلت وفية للامام وستبقى محاولات الانجليز دون نتيجة .

وحين رأى الانجليز ان جميع محاولاتهم لم تؤدى الى شيء، اضطروا للاتفاق مع الامام، لكنهم ارادوا عقد اتفاقية تكون مربحة لهم، حاولوا التغلغل فى اليمن، مثل بقية البلدان بمساعدة سياستهم المخادعة، لكن هذا لم يتأتى لهم .

حينئذ اصبحوا يبعثون ممثليهم الرسميين الى اليمن فى الفترة الاخير ؟ من أجل توقيع اتفاقية مع الامام على اساس الاعتراف بالاحتلال الانجليزى لعدن ومحمياتها، رحبنا نحن اليمنيين بهؤلاء المبعوثين وسعينا الى الاتفاق معهم لصالح الطرفين، لكن كانت كل محاولاتنا عبثا .

انهم لا يريد من ان يفهموا اننا بشر مثلهم ايضا، فرفضوا اعطائنا ولو شبر واحد من أرضنا، وذلك لاننا لم نحتل هذه الأرض بالشراء ولا بالخداع، كما فعلت ذلك انجلترا بعدن .

نحن اليمانيين، واليمن ملكنا، وسندع انجلترا تفكر بان اليمن وعدن ولحج تدخل ضمن الامبراطورية البريطانية، لا ترغب انجلترا فى ان تكون هناك دولة عربية مستقلة، ولتحقيق هذا الهدف فهى على استعداد لابادة كل مسلمى اليمن .

نريد ان يعلم كل العالم المتمدن هذا، ان بريطانيا ارسلت طائراتها الى اليمن بدون مبرر او انذار فى الفترة الاخيرة، وقد قصفت هذه الطائرات، البيضاد، الحجرية، الضالع، قعطبة، دمروا القرى والمساكن، حيث كانت النساء والاطفال مجبرة على العيش فى الصحراء بدون مأوى، ومثل ذلك قصف الطائرات المساكن حيث يعيش النساء والاطفال فى تعز ويريم وذمار ودمث وجبله، كل هذا قام به الانجليز المتحضرون ! وسيفهم العالم كله وحشية الانجليز تجاهنا .

هذا هو النزاع بيننا وبين الانجلين، وليعلم كل العالم الاسلامى، بان انجلترا تريد ان تخضع لسلطتها كل شعوب الارض وان لا يرفض هذا حتى ولا شعب واحد .

سننتظر حكم القدر، ولن نعطى لا حد ولو شبرا واحدا من ارضنا .

لم تبقى هذه الاشارة دون نتيجة، حقيقة ان صوت اليمن لم يصل الى اوربا، او بالاصح وصل متاخراً عندما فقدت الاحداث حدتها، لكن صدى قنابل الطائرات دوى عاليا فى البلدان العربية المجاورة فقد اعادت الصحف القاهرية طبع مقتطفات من المقالة ، وربما وصلت الى

الهند ، وادت نصيبها فى الموجة المتعززة المعادية للامبريالية من قبل شعوب نهر النيل ونهر الكنغ ، وخففت حدة النزاع، وبعد شهرين أو ثلاثة اشهر انتهى ظاهريا، واخلا اليمنيون قسما من المناطق المتنازع عليها، وبأت المباحثات الطويلة البطيئه، كانت المباحثات تحت وساطة الامريكيين فى البداية، ثم ظهرت " كل الوجوه المعروفة " على الحلبة : كرفورد، جيكوب، وغيرها من "المتخصصين" باليمن، كانت المباحثات تتوقف، ثم تتجدد، لكنه حتى كتابة هذه السطور، فان المباحثات الانجليزية – اليمنية، وكأنها لم تكن، ان كل حيل المبعوثين الانجليز من عدن، وكل ذهبهم وتهديداتهم قد اصطدمت دائما بدرع لا يخترق من الوطنية اليمنية الناضجة ، واصبح تركيع هذا الشعب ليس بطاقة الانجليز ذلك، عفوا يأتى الى الذهن قول قديم وهو غالباً ما يجد الانجليز فى الشرق خونة ، لكنهم لا يجدون اصدقاء .

اتذكر ان الموظفين المتوسطين العسكريين تباهى قائلا .

النذور والرشوات

– عرض على جيكوب ذات عشر مرة قطع ذهبية، لكى أكون عميلا له، اخذتها، امر واضح، وبعد بضعة اشهر تقابلنا، ولم اقل له شيئا، بينما كان يجلجل بالقطع الذهبية بشدة، وكأنما يذكرنى بالاتفاق ... دعه يجلجل بذهبه .

لقد اشرنا الى ان المشايخ الذين قدم لهم الذهب الانجليزى لم يرفضوه، لقد استلموه كاملا، لكنهم لم يقوموا بالانتفاضة ضد الامام، بل على العكس، فقد تقاسموا الذهب معه، أن القول القديم المأثور، القائل بان الحمار المحمل كيسا من الذهب بمقدوره تخطى اى حائط، لم يبرر نفسه، فالحيطان الطينية القديمة بصنعاء، ظلت عصية ليس على الحمار فقط، بل وعلى الطائرات الانجليزية ايضا .

نضيف الى ذلك ثلاث مسحات او ثلاثة منها جزءان من تلك الفترة، وجزء من الفترة اللاحقة.

مازال الدخان يتصاعد من انقاض البيوت فى تعز وذمار، لكن الانجليز فهموا اخطاء تقديرهم، فبدأوا بتسوية التربة للمباحثات .

ارسل كرفور الى القاضى راغب من عدن رسالة مع هدية، مصباح كهربائى يدوى، هذا شىء كثير الفائدة فى الليالى المظلمة، حيث لا يرى احد من مسافة خطوتين من الجدار، وهذا

المصباح مفيد للبيت ايضا، ذلك البيت العربى المتعدد الطوابق، بغرفة الكثيرة، واركانه، كانت الهدية مفيدة، لكن القاضى راغب فهمها بشكل مغاير .

– يريد كرفور ان يقول بهذه الهدية : انكم اليمنيون، اناس جهلة، نحن الانجليز نريد تنويركم ... فكرّ قليلا ثم اضاف :

– او ربما، يلمح الى ان هذا المصباح سيكون نافعا لنا، حين نختبىء فى الاقبية، نطلب النجاة من القنابل الانجليزية .

ولم يكن غريبا، ان يرفض القاضى راغب الاحتفاظ بهذه الهدية التى اثارت كل هذه المشاعر الغاضبة، وان يهديها الى احد خدامين القصر .

ولم يكن من المستبعد، فى ان كرفور قد بعث بالمصباح دون معنى خفى، غير ان ارتياب اليمنى وشكه يجعلاه يكون مستعدا فى كل خطوة وفى كل اشارة من الاجنبى، وان يرى فيها ان لم تكن مكيدة مباشرة، فانها اساءة او تلميح خفى .

ونيل الثقة فى الشرق ليس سهلا، لقد تنازل جيكوب الشائب كثيرا، لكن مذاق التصنعّ تحدث عن نفسه، فرحل حاملا كنية " الكلب الأبيض " ومع ذلك لم يكتئب، تظاهر وكأنه يعتبر البصاق مطرا، وبعد ان رحل من اليمن وبعد الغارات نشر فى احدى الصحف الانجليزية مقالات تدين عمل الموظفين الانجليز بعدن ؟ الذين كانوا يتحركون متكلين على انفسهم دون معرفة لندن، ظهرت هذه المعارضة المصطنعة بموافقة كاملة من السلطات الاستعمارية وهيئة المخابرات من دون شك، انهم يسمحون لعملائهم بكل المناورات، ويستطيع الاخيرون فقط ان يكتسبوا سمعة لانفسهم بانهم " كاصدقاء " تلك الشعوب، والحكومات التى ينبغى ان يخدعوها .

ليس من باب القول الزائد الاشارة هنا الى عدم الثقة الفريدة تلك التى يقابل بها الاجانب فى بلدان الشرق عامة، فتجارب السنين الطويلة المرة قد علمت الناس فى الشرق ان يرتابوا مسبقا بكل اجنبى يفد اليهم، وانه يحمل نوايا مغرضة تجاه بلدهم، وعدم الثقة هذه لاتزول، بل تزداد وكانها كتلة ثلج، وذلك اذا بدأ الاجنبى يؤكد على نزاهته على الفور توا، تتحول عدم الثقة الى عداء حاد، ما ان يكاد هذا الشخص الذى أكد نزاهته، فى هذه او تلك من المطامح تجاه مقدرات البلاد المادية. وكما يقول المثل التركى، ان الشرق الذى احترق باللبن الحار يبدأ النفخ على الثريد، يعتبرون كل اجنبى مقدما، شبيها بالنصاب .

ومن اجل تصوير اساليب النفاق، التى تعطى نتائجاً عكسية ، يمكن ايراد هذه الحادثة، وصل الى صنعاء (قبل عام من مجيئنا) امريكى بارز باسم من الحجم العالمى، يحترق من الرغبة فى كسب الشهرة وحيازة ثقة الامام، اقدم على الاسلوب التالى، يصرح بعد وصوله الى صنعاء بانه يجب ابلاغ احد الوجهاء اليمنيين بسر عظيم، يدعوه الى غرفته، ويغلق النوافذ والابواب باحكام، كانه يؤكد من انهم لا يتصنتون، ثم يخرج القرآن من احد جيوبه الداخلية بمهابة وبهمس خافت يتفوه قائلا ·

هذا الكتاب احمله دائما معى، فانا مسلم فى داخلى، لكن لا احد يشك فى ذلك، لكم وحدكم ابوح بهذا السر ...

لايتحتم القول، بان هذا الاسلوب قد اثار شعور التقزز والاحتكار للامريكى هذا، بل وفاحت حوله رائحة الزيف مباشرة، ولانه لم يدرك ذلك بعد، اقدم على خطوة جديدة، صرح فى الاستقبال الرسمى امام الامام :

يا صاحب الجلالة، اننى اقدم لكل حكام الشرق نصيحة واحدة، يشكروننى عليها فيما بعد، اسمحوا لى ان اقدمها لكم ايضا ...

وبعد ان يتلقى السماح، يقول بتأثر وغموض ورزانة :

يا صاحب الجلالة، لاتثقوا ابداً بالأجانب، لا تعطونهم اية التزامات وامتيازات فى بلدكم ...الحيرة غير الواثقة، التى استقبلت بها هذه " النصيحة " تحولت لدى الامام والمقربين منه الى شعور بالاحتقار البالغ وذلك عندما تقدم هذا الامريكى بنفسه بعد بضعة ايام الى الحكومة اليمنية بطلب امتياز مربح لاستغلال مناجم الفحم الحجرى، ومنذ ذلك الوقت لا يتذكرونه الا ببسمة احتقار ساخرة .

إنهيار الحسابات الإنجليزية والصفعة الأمريكية

غير اننا لن نخرج عن الموضوع، سنستخلص، نتائج النزاع، الذى كنا شهود عيان عليه، ينبغى ان نثبت ما يلى : فى هذا الجزء الصغير لكنه الهام فى الجبهة الاستعمارية، منيت انجلترا بالافلاس، ذلك ان حساباتها الرئيسية - قهر اليمن وتركيعه - قد منيت بالفشل، لقد خرج اليمنيون من النزاع معمدا سياسيا، صلبا ومليئاً بالحقد على الامبريالية، واستسلم اتباع

الانجليز أو محقوا، وبالنتيجة تعزز الوضع الداخلي للحكومة، وتعادل هذه المنجزات بضع تلك الامارات التى اخلاها اليمنيون تحت ضغط قوات العدو المسلحة، وان يتخلى اليمنيون عن حقوقهم ولا حتى الحقوق الشكلية عن عدن، التى تصادف الذكرى المئوية لا حتلالها من قبل الانجليز بضعة ايام (*) .

لم يتأتى تمزيق عقدة القضية اليمنية بواسطة السلاح من قبل الامبريالية، البريطانيين ولهذا تحتم على الاسد المتعجرف ان ينهى زئيره والتلويح بذيله من جديد على امل استدراج الجار الصغير العصى بهذه الطريقة او تلك.

لم يتأتى ذلك حتى الان، لكن الميزة ان هذه النهاية المخزية لهذا الصراع بالنسبة لا نجلترا قد ابرز الخلاف بين انجلترا والولايات المتحدة حتى فى هذه البقعة النائية، اذ بعد ان وصل القنصل الامريكى لود بربرك من عدن مسرعا اخذ على عاتقه مهمة الوساطة فى تسوية النزاع، وبعد ان مكث بعض الوقت فى صنعاء، " يدرس القضية فى موقعها " كما يقال، غادرها واعدا اليمنيين باتخاذ كل الأجراءات لمنع الغارات اللاحقة، وليس معروفا ،ما عمل فى هذه الاتجاه، لكن المعروف فقط، انه بعد وصوله الى الحديدة فى طريق العودة ارسل برقية الى حكومته فى واشنطن، ارسل هذه البرقية " برموز واضحة، وليس على نمط الشيفرة المشوشة للرسائل الدبلوماسية العادية " وقد بلغ حسب استنتاجه، بان اليمنين سلكوا سلوكا لا لوم فيه مطلقا من وجهة نظر القانون الدولى، وان الغارات الانجليزية لم تكن تستدعيها ضرورة موضوعية اطلاقا .

ولكى يؤكد ادانته للغارات وجه نسخة من هذه الرسائل الدبلوماسية الى حاكم عدن، الملهم المباشر لهذه الغارات .

وهكذا وجهت صفعة للامبريالية الانجليزية من العم الامريكى امام اعين اليمنيين، لم يتبع الجواب على هذه الصفعة، والمعروف فقط، انه منذ ذلك الحين هدأ الاسد البريطانى، ومن جديد يحاول بدون زمجرة او زئير استعادة المواقع المفقودة على طريق الهدير والهبات الرخيصة .

(*) - يرجع المؤلف احتلال عدن من قبل الانجليز الي عام ١٨٣٠ ولهذا فانه يشير الي الذكري المئوية للاحتلال بعد بضعة ايام، حيث كتب هذا الكتاب في عام ١٩٣٠، بينما في الواقع كان احتلال الانجليز لعدن عام ١٨٣٩

لكن كان ذلك متأخرا، فالقنابل التى رمى بها العدو وعشرات البيوت التى دمرت، قد مزقت اخر الاوهام التى كانت ما تزال تعشعش فى اذهان الطبقات الحاكمة فى اليمن، بالنسبة لخطط التعايش السلمى مع المردة الامبرياليين، الذين يحاولون وضع مخالبهم على الشعب الجبلى العصى .



الباب السادس عشر

* الأيام الأخيرة فى صنعاء
* احجار على الطحلب ونساء حجرية
* اليهود
* رحلة خطرة .



الأيام الأخيرة فى صنعاء

انتهت الغارات، وانتهى انتظارها المتوتر، تنتعش البيوت التى فرغت شيئا فشيئا وتغلى حياة السوق، وتمتلىء الشوارع والازقة بالضجيج المعتاد والغوغاء .

وتنتهى مدة اقامتنا فى صنعاء،قبل سفرنا بمدة قصيرة، ينقلونا الى منزل اكثر ثراء، كدليل على الاهتمام الخاص، حديقة واسعة مزهرة، حوض مع النافورة، امام البيت مباشرة، تسمع رنات البئر الايقاعية امام النوافذ، خطوات الجمل الرالرتيبه، وصخب الماء السائل المنتظم، الذى يتدفق بانتظام عبر القنوات، التى تملأ الحوض وزوايا الاشجار .

غير انه لايوجد وقت لدى الامام لا ستنشاق اريج الازهار والتطلع الى ظلال الشمس فى مرأة الحوض والارتياح تحت أوراق الشجر الظليلة، يأتى لزيارتنا تجار عرب، ويهود، وفرس يحملون رسائل توصيات من شخصيات ذات نفوذ، موضوع الاحاديث السكر، الكروسين، الدقيق، الاقمشة، البن اليمنى، حازت بضائعنا على رضى المستهلك اليمنى، وذلك لانها النقيض المباشر للبضائع الرديئة المعتادة، التى يصرفها الامبرياليون فى اسواق المستعمرات، وكانت الشكوى الوحيدة فقط هى قلة البضائع، وكان المفترض ان تكون البضائع اكثر بكثير، ولتدخل بواخر سوفيتية اكثر الى موانىء اليمن، كان الامبرياليون ومايزالون يلغون عمدا، وبخسارة فى الغالب الصفقات قرب الموانىء اليمنية بهدف الحاق مصاعب اقتصادية اكبر لهذا الشعب الابى.

نعلم انه من المستبعد تلبية كل توقعات وتقديرات اليمنيين، كما نعلم ان بواخرنا قليلة، وان هناك نقص فى البضائع، وما نزال لا نعرف الى اى ستزيد بضاعتنا، نحن لم نتكيف بعد مع فكرة انه بينما نحن نقوم بالمباحثات فى صنعاء البعيدة،فان وراء جدران الكرملين والمكاتب المتعددة الطوابق للمجلس الاقتصادى الوطنى وهيئة التخطيط الحكومية تنشأ وتصاغ قوالب الخطة الخمسية، التى تستقدم بالكامل جميع ما هو ضرورى لتلبية احتياجات هذا البلد الصغير فقط، بل لم نعلم بعد، بانه فى احواض سفن سفستوبل، نيكاريفسك والبطليق تجهز هياكل عشرات السفن الجديدة، التى ستمخر قريبا كل البحار والمحيطات

لم نعرف بانه قد حددت الخطط الجبارة لجعل الزراعة تعاونية، وهذا سيغطى احتياجاتنا من القمح ونقله الى هذا البلد، لم نعرف بعد ان الخطة الخمسية، التى يشك اليمين الانتهازى بضراوة بامكانية تحقيقها، وتنفيذها فى بحر خمسة اعوام، بل وفى اربعة، وفى مجموعة من

القطاعات، التى يعتمد على تمويلها هذا البلد (الكروسين) فى ثلاثة اعوام، وفى عاميين ونصف، وما يزال يرن فى الآذان نعيق الاعداء الخبيث ودمدمة قليلى الثقة " الى اين تزحفون، ابقوا فى البيت " ، " عسى ان لايحصل شيء " ...

اما الان ، وبعد ان انتظرت هذه السطور دورها فى المطبعة لتخرج الى النور، مرّت اعوام، فقد اثبتت بالكامل اكثر التقديرات جرأة وتحطمت كل الشكوك اللجوجة، فقد ارسلت البضائع الى اليمن (وليس الى اليمن فقط) وتضاعف سيلها كل عام، تقوم البواخر السوفيتية برحلات منتظمة عبر البحر الاحمر والمحيط الهندى حتى الى اقصى زوايا الخليج الفارسى، وحتى مشارف انهار الرافدين العظيمة ... لكننا حين كنا معزولين عن الارض السوفيتية، شعرنا اكثر من مرة بشعور القلق المرعب – هل نستطيع تلبية التوقعات المتواضعة لهذا البلد، الذى رأى لاول مرة فى اشخاصنا قطعة صغيرة من الاتحاد السوفيتى .

وعلى كل حال، نستطيع التحدث عن هذا " البلد " نسبيا فقط، كان الاقتراب من الشعب صعبا، فمنزلنا، شأنه شأن منازل كل الاجانب فى اليمن، يحرس بيقظة من قبل حراس مناوبين، ويتعرض كل قادم لتحر " دقيق، وتجرى النزهات فى المدينة بمرافقة الخدم ايضا، الذين بدونهم يمكن ان يتهددنا سوء من قبل المتعصبين، او هكذا افهمونا على اقل تقدير، ولايسمح بدخول منزلنا، ما عدا الوجهاء الا " الخدم الامام "، والتجار الذين بايديهم توصيات من السلطات للمباحثات فى الصفقات التجارية، او لبعض التجار (من اليهود فى الغالب) الذين يحملون لنا الحلى المحلية، التى تشريها من صنعاء للذكرى .

أحجار على الطحلب ونساء حجرية

ومن بين سقط المتاع المتعدد، الذى يتسابق عليه الاجانب الذين يزرون اليمن لأقتنائه يأتى فى المقام الاول – كل انواع الاحجار الملونه، التى من المفترض انها ترمز الى الثروات الموجودة فى باطن ارض اليمن، وان كانت فى حقيقة الامر ليست سوى قطع مضلعة لا معة، ذات الوان نبية داكنة، برتقالية، وزرقاء فاتحة، كما يوجد بينها الوان فاتحة مبهمة، واحجار شفافة يرتسم تحت سطحها اللامع شيء ما يشبه اغصان الطحلب، وكانما هذه القطعة الطحلبية تمت عضويا فى سطح الحجر اللماع، الذى صقلته يد حجرية، تبدو لى هذه الاحجار رمزا لليمن، البلد الذى صقلته موجات الاعصار العالمى، والقذائف الانجليزية، محتفظا مع ذلك ببقايا واضحة من القديم المتجذر بقوة .

هناك ايضا شيء اخر، التماثيل الحجرية القديمة، هي تماثيل تصور ما يشبه تماثيل النساء الحجرية المتناثرة في جنوب الاتحاد السوفيتي، ينتصب احد تلك التماثيل حتى الان على طاولتين، يحملق بثبات الى بعيد بعيون وحشية بائسة، هذا التمثال النسائي منحوت من قطعة حجرية واحدة بلون البشرة مبقعة بعروق مائلة للأحمرار، وهذه المرأة جالسة القرفصاء تضغط بقبضتها وازمة شفتيها، تبرز حدبتان صغيرتان بدلا من النهدين في الاسفل على دعامة الملتحمة بالتمثال، وكتابة مبهمة منقوشة، شيئا ما يشبه حرفي " X " و " Q " بالروسية، بالاضافة الى الشكلين او ثلاثة اشكال هندسية غير متناسقة، ان هذه التماثيل تصور الآلهة الحميرية القديمة، صنعت قبل آلاف السنين، انها بقايا التاريخ القديم، التي سلمت في كهوف صعبة الوصول اليها حتى على اليمنيين من مأرب، حيث تصل من هناك الى صنعاء لأعادة بيعها على التجارالواصلين من الخارج، لا اعلم هل تمثالي هذا أصيل ام لا، اذ من المعروف ان تقليد او تصنيع الآثار القديمة المزيفة مثل التماثيل، النقود الأواني، الادوات التي يزعم انها من بقايا الحمريين القدماء، قد شغلت مكانا قويا في عدد من المجالات المربحه في اليمن، تؤكد الا لسنة الخبيثة ان مئات الحرفيين من يهود صنعاء يعيشون على الدخل من تصنيع مثل هذه الاشياء المزيفة

غير ان التمثال الذي املكه، حتى ولو كان مزيفاً، فانه يعطي تصورا عن الاصل بدون شك، وينبه الى انه قد كان في الأماكن الصعبة المنال في اليمن، ويختفي حتى على العلماء الاوربيين الكثير من المادة التاريخية الاصيلة التي لم تكتشف بعد، والتي بامكانها القاء الضوء الساطع على العصر الضارب في القدم .

اليهود

وبالمناسبة وما يتعلق باليهود في صنعاء فقد وجدنا انفسنا حرفياً عند منابع معادلة السامية، نقول عند المنابع، لان العلاقات بين السكان اليهود والمسلمين قد احتفظت بالملامح القديمة للعهد القديم، هذه العلاقات التي لم تمر على ضوء الفوارق القومية او الفتوحات او الاخضاع او تحطيم الانماط الاقتصادية، فيهود وعرب صنعاء هما فئتان من شعب واحد، يتحدثون لغة عربية واحدة اكثر قرب من لغة القرآن الفصحية، يتشابهون بالشكل الخارجي، يختلف اليهودي اليمني كثيرا عن مثيله الاوربي، فهو مثل العربي بنفس الملامح، ملامحة حادة مستقيمة، جبهة واسعة مثل العربي، ولا يوجد اثر لتلك العلامات، كالأنف المقوس،

تفاحة آدم البارزة، التى من المعتاد تصوير هيئته بها فى اوروبا، ولو خلعت الثياب من العربى المسلم واليهودى لشوهد اناس من عرق واحد بشكل مطلق، لا يختلف بعضهم عن بعض فى شىء، وصولا الى اقل اجزاء الجسم صغرا، خصلة من الشعر الاجعد على الصدغ فقط تمتد حتى الكفين، او ربما نظرةالجزع العميقة، تعطى امكانية اختلاف اليهودى عن العربى وما عدا ذلك فلا وجود للفارق بينهما .

كل اليمنيين الذين تمكنا من التحدث معهم يؤكدون بان اليهود والعرب هم شعب ليس من الجنس السامى الواحد فقط، وانما يمثلون قومية واحدة متكاملة عموما، وانه لا يوجد اى فرق بينهما، لن آخذ على عاتقى تأكيد هذا الراى كاملا، لكنى اعرف انه اسهل بكثير، تميز الكورى عن اليابانى، من تميز اليهودى الصنعانى عن المسلم، خصلة الشعر والثياب فقط هما بالذات يوضحان هذا الفرق

لا يحمل اليهودى خنجرا، فهذا محرم عليه، ولا توجد عمامة على رأسه، وانما قبعة صغيرة مشدودة على غرار تلك التى يلبسها الاوزبيك عندنا، يلبس اليهودى ثيابا بيضاء وعباءة غامقة من الاعلى، ويسرن النساء بوجوه مكشوفة، وعلى الراس خمار بحواش بيضاء فضية مزركشة بالدنتيلا والمعينات، هذا اللباس بعيد الشبه عن رداء النساء المسلمات الواسع، والذى يغطى هيكل المرأة من الراس حتى القدم ويغطى الوجه باحكام، ويحجب شكلها، اما الفتحتان فى مكان العينين فتعطى المرأة العربية هيئة غول يجرى من الاساطير القديمة .

وقد يسأل المرء البسيط . لماذا تلفظ كلمة " يهودى " من فم المسلم بذلك الاحتقار ؟ لماذا يعيش اليهود فى حى قاع اليهود الخاص الموجود على مشارف المدينة ؟ ولماذا لايملكون الحق فى حمل السلاح ، الاشتغال فى الزراعة ، والعمل فى الوظائف الحكومية ويحرمون من كل الحقوق السياسية ؟، " تكرر " ان اليهود هنا فى صنعاء وكذلك فى بقية المدن لا يختلفون عن العرب لا باللغة ، ولا بالقومية، وتوضيح كل شىء بناءا على الفوراق القومية، كما يفصل المعادون للسامية فى اوروبا، امر مضحك هنا، ولا يلعب هنا ايضا دور " صلب المسيح " المزعومة، ذلك لان المسلمين لايكترثون بهذه الحكاية اطلاقاً فى افضل الحالات، اما ما يتعلق بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم، فانه لا ينبغى غض النظر عن النزاعات الضارية بين المسلمين واليهود فى عهد دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، لقد وجه الرسول جل نشاطه التحريضى ضد الوثنيين بالدرجة الاولى، ثم ضد اليهود بالدرجة الثانية، وضد المسحيين بالدرجة الثالثة، وقد كان يقترب منهم احيانا، لكن ذلك كان تكتيكاً سياسيا، وعلى

العموم، اخذ الاسلام كاملا من يهودية العهد القديم (*) ومجوعة من الطقوس والعادات (الختان تحريم اكل الخنزير وغير ذلك)، التى توجد تعليلاتها جزئيا فى الخصائص المناخية والمعيشية فى شبه جزيرة العرب، يوجد الاختلاف حقا، بنوع المهنة ؟ فاليهود لا يمارسون الزراعة، واغلبهم حرفيون وتجار صغار، واكثرهم يسر الصيارفه، والمرابون والوسطاء بين الشركات الاجنبية والسوق الداخلية، قسم من هذه الاعمال (الصفقات المالية) يستنكفها المسلمون ولا ينصح بها اتباع الرسول (مثل الرباء والعمليات المالية عموما) وتجعل علاقات اليهود مع الشركات الاجنبية فى صلات متناقضة مع زملائهم العرب الذين ابعدوا عن السوق الخارجى، وهذا يثير حسد الآخيرين، كما تعتبر تجارة بعض البضائع (الخضار مثلا) عملا مهنياً، ليس لليهود فقط ، بل وحتى من يمارسها من المسلمين حيث ينتمى تجار هذه الطائفة من البضائع الى السكان المحرومين من الحقوق (مثل الجزارين والدباغين وغيرهم)، وهنا اتذكر مصادفة غريبة، يعتبر الاشتغال بالقطاعات المرتبطة بذبح الماشية (الجزاره الدباغة، وما شابه ذلك) حتى فى اليابان البعيدة من نصيب طائفة سوى خيه سيا، التى محرمة من الحقوق الى وقت قريب ومحتقرة حتى الان، تخلق تجارة الخضار تناقضا بين اصحاب الحوانيت اليهود وبين الفلاحين، ويصطدم التجار الاغنياء اليهود الذين يقومون بالعمليات المالية والتجارية بالاقطاعيين المسلمين، ويصحب هذا الصدام التطاحنات المميزة بصدامات القرون الوسطى الغابرة وذلك حين يقع الفريسان الفقراء (والنبلاء) تحت التبعية المالية للصيارفة ومحتكرى الخامات الزراعية اليهود، كما يمكن ان يوجد سبب التعليل المشهور للتناحر، الذى يكنه الاقطاعيون والتجار المسلمون لليهود، حين يرون قسما من الارباح يذهب الى ايدى الوسطاء اليهود، غير ان التوقف عند هذا التعليل امر غير صحيح. فمن الواضح ان السكان اليهود يتعاملون بهذه الاشغال " المحتقرة " المشار اليها (والتى لا يستنكفها المسلمون فى الفرصة الملائمة) وهذا يحدث بفعل الطرق التى تؤدى الى القيام بالاعمال الاخرى الزراعة، (الرعى، الخدمة العسكرية والحكومية) محجوزة ولا نصيب فيها للسكان اليهود، وبالتالى فان التناقض الاقتصادى الذى ينشأ بين الفئات المعروفة من اليهود والمسلمين، ليس سببا، وانما هو

(*) – تكاد تكون وجهة النظر هذه سائدة في الاستشراق الاوروبي، بينما الواقع بخلاف ذلك، اذ ان الاسلام لم يؤخذ من يهودية العهد القديم وانما اتي كديانة جديدة، علي ان بعض التشابه في بعض المناسك الدينية او الروايات التاريخية التي وردت في الكتب المقدسة لا تعني الاخذ بالكامل باي ديانة سابقة . – (المترجمان) .

بالاحرى نتيجة لهضم الحقوق السياسية والمعيشية لليهود .

لا داعي للاسهاب، بان الطبقات الحاكمة تؤجج التناحرات بين السكان المسلمين واليهود، وتتبع بعمد سياسة اضطهاد اليهود، موجهة بذلك حقد الجماهير الشعبية باتجاه اتباع الديانة اليهودية، وهذا لا يمنع بالطبع الوجهاء العرب ، من اقامة علاقات حميمة في الخفاء مع الاثرياء والمرابين اليهود، وان يلجأون لهم " للمساندة " في اللحظة الحرجة .

واذا تحدثنا عن وضع الفئة العليا من اليهود عموما، فان التحسر والتأسف على نصيبها، الذي يقوله ويفعله نقافا الصهاينة لا حاجة له، حيث لا يتعرض التجار اليهود والمسلمون لا بتزازات كثيرة في الاموال، وان كان اليهود يضطروا لا عطاء رشوات اكثر للشرطة والموظفين، اذا قارناهم بالتجار المسلمين، لكن الفرق هذا ليس كبير الى ذلك الحد: لقد اعفى اليهود من العشر ومن الخدمة العسكرية، اما الحقوق السياسية في اليمن ذات الحكم المطلق فهي عموما امر قليل الاهمية، حتى العرب، فان المشايخ وكبار التجار فقط هم الذين يستخدمون هذه الحقوق عمليا، ولهذا فان ثقل عدم المساواة السياسية والمعيشية على الاخص تقع بالكامل على عاتق فقراء اليهود وجموع صغار التجار والحرفيين الذي شدد الضغط عليهم كاملا بين قبضتي العسف الاداري - البوليس في ظل العداء بين السكان، الذي يثار اصطناعيا .

متى، وفي عصر ولماذا طردت فئة كاملة من السكان من قومية واحدة تقريبا الى جبتو "مغلق " (حي اليهود) ، وتعرضت للهضم في الحقوق والاشتغال بمجالات العمل، التي تعتبر اكثرها مهانة ؟ تتطلب الاجابة على هذا السؤال اعواما من البحث التاريخي الدقيق .

لكنك اذا تجولت بين جدران بيوت حي اليهود البيضاء الناصعة، وتطلعت الى البيوت بأفنيتها المرصوفة، وخرجت الى الشرفات البيضاء المجعدة بالبلاب الشجري، ترى وكأن عصر الانجيل قد انتعش، تاخذك الرغبة في نسيان تلك الموجة من التناحر الوحشي، الذي بحكم منطق الاضطهاد الطبقي يسم حياة عشرات الآلاف من الناس .

تبدأ ترتسم صورة، للماضي البعيد قبل اكثر من الف سنة، للحركة المحتشدة الجبارة، التي شملت كل البلدان العربية والمجاورة تحت راية النبي محمد صلى الله عليه وسلم ودينه، لقد اثارت حدة الصراع الطبقي وادت الى تطورات اقتصادية جذرية، والى تغير شامل للتركيب الاجتماعي لتلك الشعوب، لن نخرج عن الموضوع، نتعمق في تحليل القوى الاجتماعية لهذه الحركة، بيد انه من الصعب الابتعاد عن الانطباع بانه نتيجة لانتصار فئات معينة على اخرى، اصبح المغلوبون في اسفل السلم الاجتماعي، فلم يحصلوا على نصيب في حقوقهم السياسية

التى هضمت، وحرموا من الوصول الى صف المجالات الاقتصادية، ونتج عن ذلك حرمانهم من نوع خاص لذلك العصر،فنبذوا فى احياء خاصة وتحجروا فى حياة قديمة .

ومضت الاعوام والقرون فى سبيلها، زالت انماط اجتماعية، وتغيرت العلاقات، والطبقات التى لعبت دورا تقدميا بدأت تنتكس تاركة المكان لطبقات اخرى، والدين الاسلامى الذى كان راية للتجارة فى البداية وللبرجوازية البدائية والاثرياء من البدو، الذين اندفعوا الى البحر الى الاسواق الخارجية والفتوحات، صار سلاحا بيد طغمة من الاقطاعيين الصغار، الملوك العرب،ومن ثم السلاطين الاتراك، ونفدت قوة الاسلام التحريضية، واخرج العرب من اسبانيا وفارس وتركيا، واندحر الاتراك فيما بعد من فينا واوروبا، وحسم مصير الطبقات التى اعلنت الاسلام واعتلت موجته ليس فى صحارى الحجاز ولا فى جبال اليمن فقط، بل وعلى نهر الدنواب وجفاد لكفير، وبقيت جزيرة العرب التى اعطت الدفعة لهذا الزلزال العظيم جانبا، وبقيت اليمن بعيدة كل البعد، اكثر المناطق عزلة فى شبة جزيرة العرب، حتى الموجات الاولى للحركة الاسلامية وصلت الى هنا على شكل رشاش متناقض متلاشى، توقف اليمن بدون حراك بعد اولى تطورات العهد الاسلامى المبكر .

وفى العاصمة الجبلية المغلقة، كما فى الكهوف الوهمية لا طلنطيدا، بقت سلالة تلك الطبقات التى خسرت فى الماضى البعيد المعركة على السلطة، وظلت معزولة، معزولة السلاح تحت رحمة المنتصرين الجبابرة فى غابر الزمان، الذين انهكوا وافقروا الان .

لقد حكمت عزلة القرون عن العالم المحيط على المغلوبين بدائرة من المهن شديدة الضيق، واعطتهم مجموعة من الخصائص المعيشية الخاصة، فتكونت تلك الحافة، التى تستطيع انهائها بالكامل شعلة الثورة الاشتراكية فقط، والتى ستحول كل التناقضات الزهيدة الى رماد، تلك التناقضات المتراكمة، التى ستذهب بجذورها فى اعماق آلاف السنين.

وفى مثل كل صراع عظيم يترافق معه، تشتت الشعوب المغلوبة والقبائل ، والطبقات والفئات فى جميع انحاء العالم، تشتت على وجه الارض بقايا القبائل السامية المهزومة فى هذا الصراع وفى معارك قديمة اكثر، من اسبانيا وحتى الصين، وبقت فقط اعشاش صغيرة فى " فلسطين واليمن لم تستطع الابتعاد عن المنتصرين، وحتى الان يجب عليهم اختراق طوق حرمان الحقوق ، يستخدمون فى ذلك العلاقات الواسعة مع يهود البلدان الاخرى، الذين احتفظوا بنمط سلوكهم الدينيى والمعيشى كامتياز وحيد، كما احتفظوا بالشعور الدينى والوحدة فى ظل اكثر اغتراب فى شعوب ليست اقل عداءهم واذا كانت قد انمحت اللحظات القومية والدينية (رغم

انها بعيدة عن الانتهاء) فى بوتقة الرأسماليه، تاركة محلها للتناحر الضارى بين طبقات جديدة لم يعرفها الماضى، فانها هنا فى ظل نفسية العصور القديمة الثابتة المتجمدة، قد حافظت على التناحر القديم، الذى بقى بشكله البدائى، عاكسا للتناقضات الاجتماعية القديمة - المدهشة بعبثيتها المرعبة تحت ضوء الشموس التاريخية الجديدة.

علينا ان نشير الى ان هذا ليس تحليلا عمليا، ربما يجد علماء التاريخ والاتنوجرافيا جملة من الاعتراضات والتصحيحات لكل ما قلناه اعلاه، لن اجادل واعترف مسبقا بكل الاخطاء والهفوات، لكن هكذا كانت الحالة التى تولدت عند رؤية فئتين متشابهتين اطلاقا والتى وضعت قوة الشذوذ التاريخى بينهم حاجزا صارما يصعب تجاوزه.

اما استنتاجنا العلملى فقد كان بالشكل التالى : اذا اردتم تجنب مكروه خير لازم، فلا تكثروا من زيارة حى اليهود، نعرف ان سمعة جيكوب قد ساءت كثيرا فى اعين اليمنيين، نتيجة لسوء استغلاله للنزهات فى قاع اليهود، الى درجة انه اثار الارتياب فيما يتعلق باصله، وبالاضافة الى ذلك، فان اسم جيكوب، اى يعقوب، لم يكن بعيدا من تلك الكنية التى نالها هنا "كلب يهودى" ، والتى اسرع المحرضون الذين لا يكلون والخالون من المسؤولية ممثلة باشخاص صبية صنعاء يطلوقنها على المبعوث البريطانى .

رحلة خطرة

لقد شعر احد رفاقنا الذى ينتمى الى الديانة اليهودية بالسوء فى نفسه، شأنه شأن خمسة آلاف من افراد ديانته المضطهدين فى صنعاء، لا تحرر الاستمارات فى اليمن، ولم يكن يطمح بالطبع الاعلان عن انتمائه اليهودى، لكنه بدلا من ذلك تحتم عليه الانصات بصبر (وكان اكمالا للمصيبة يفهم ويتكلم اللغة العربية)، وكان محدثوه العرب، لا يرون سببا للتحفظ امامه، ولو لم يكن العرب انفسهم ساميين لقات " عن نفسيتهم المعادية للسامية " وقد كان المشهد التالى طريفا على وجه الخصوص : بينما كان رفيقنا ممتطيا بغلا الى الحديدة، وظل البغل يصرخ بدون توقف يطلق على البغل المنهك عبارة " يهودى ابن يهودى " وهى بالاضافة الى النبرات وتعابير الوجه، التى تبدو واكثر حدة بكثير، ورغم ان هذه العبارة كانت موجهة الى البغل بالكامل، الا ان رفيقنا وبعد ساعات من الطريق لم يستطع ان يصبر، فحاول الايحاء للسائق بان يقول صيغة اخرى ومن اجل ان يفرغ ما بقلبه للتفريج عن مشاعره، سأل السائق .

لماذا تسمى البغل طوال الوقت يهوديا سميه مسيحيا حتى ولو مرة واحدة ...

– لا استطيع، –اجاب السائق بشهامة – فانى سأسىء اليك انت المسيحى .

ويحكم هذه المعاملة اللطيفة الاقل مناسبة، وجب على رفيقنا الاستماع الى الشتم الذى لا ينتهى المعادى لليهودية، الموجه الى البغل البارد المزاج خلال ثلاثة ايام بلياليها فى الطريق.

ولكى يكون المرء عادلا، تجب الاشارة الى ان السلطات اليمنية، لم تظهر خلال الاحاديث معنا والعلاقة بنا اى شىء معادى لليهود، وقد حظى رفيقنا الذى ينتمى لليهودية بعلاقات لطيفة وحذرة من قبل الشخصيات الرسمية، مثلة مثل الأخرين، كما تجب الاشارة الى انه كان امام السلطات معروفا بانتمائه اليهودى تجنبا لسوء الفهم والاستفزاز لم نجعل من قضية ديانته سراكما كان الحال لكل واحد منا، ولم نتأسف ولو حتى مرة واحدة على مثل هذه الصراحة.

دفع الدين جميل، لقد حذرنا اصدقائنا الرسميون (املك اساسا للقول بانهم كانوا اصدقاء ليس بحكم الخدمة فقط) اكثر من مرة عن تلك " الخطوات الخاطئة " من قبلنا، والتى يمكن ان تسىء لنا، وتغذى تحذير الرجعيين وملهميهم من الاجانب .

لم ينم الاخيرون، لقد تابعوا بيقظه كل خطوة من خطواتنا، يسعون لاستغلال كل صغيرة لاغراضهم، وقد بقت فى الذاكرة ...

فى ساعات ما قبل المساء، حين تنتعش الافنية الخالية جزئيا، والحدائق المجاورة للبيوت نرى فيها اشباح العائدين من العمل او الخدمة، كنا نحب التطلع ولو لوقت قصير بمساعدة عدسة المنظار،حيث كنا نلاحظ فى الحدائق البعيدة، ايماءات رؤوس المواطنين المتناثرين باهتمام، لكن احيانا ...

ذات مرة وقبيل المساء اقبل القاضى راغب قلقا، وبحق الصداقة القديمة اخبرنا عن الخطر الذى يتهدد احد رفاقنا الذى تجاوز حدود هذه الشغله، اخبرنا بان احد الضباط القدماء غاضب لان عيون الاجنبى تتغلغل فى فناء داره، وتنظر الى نسائه واطفاله (والزوجات على الاخص)، وان غضب الله سينزل على رؤوس الكافرين، لقد ركض الى البيت لاخذ البندقية، يقصد اصابة عدسة المنظار الغادرة برصاصة صائبة مباشرة.

ومن حسن الحظ، انه بينما كان يركض من اجل البندقية ادرك رفيقنا لان ينهى " الاستعراض المسائى " وان نزل من السقف، امكن تلافى المأساة، لكننا نصحنا بان نكون حذرين فى المستقبل، وذلك ان العناصر المحافظة ترغب فى استغلال مثل هذه الحوادث لفتح معركة مع الحكومة واقناعها بضرورة طردنا من البلاد، لقد حتم علينا هذا ايقاف " الاستعراضات المسائية " .



الباب السابع عشر

* سيمفونية العاصمة "الابدية "
* وثائر العوالم الاخرى
* طريق العودة
* وحى صحيفة الحائط
* " رائحة الوطن " فى اسطنبول
* الفنار الاوديسى .



سيمفونية العاصمة " الابدية "

اعيش اخر الايام بصنعاء، تصلنا برقية من الحديدة تخبرنا بان " توبولسك " فى طريق عودتها من البصرة، ينتظر ان تصل فى الايام القليلة الى عدن، والطريق من عدن الى الحدية يوم وليلة فقط ، ويجب الاسراع ، لان تاخر السفينة غير ممكن .

نزور الامام زيارة الوداع ، يستقبلنا الامام هذه المرة فى مخدعه الداخلى، المفروش على النمط العربى وليس النمط الاوربى، يحيط به عشرة - اثنا عشر من ابنائه الجالسين على الوسائد - ارتدى قميصا روسيا من الحرير الموشى، هذا ثوبى الوطنى، لى الحق فى لبسه بديلا لبدلة الزيارات السخيفة التى لا تطاق فى حر الصيف الاستوائى .

اخلع الحذاء امام مدخل المخدع ، اسلم عليهم، يجلسوننى على الوسائد .

يتحدث الامام عن افضل مشاعره نحو البلد السوفيتى، كما يتحدث عن معرفة كل العالم الاسلامى للمهمة العظيمة للاتحاد السوفيتى، الذى اعطى الحرية عمليا للشعوب المضطهدة ايام القيصرية، كما انه يعرف كذلك المغزى الذى تقدمه الصداقة مع الاتحاد السوفيتى لتركيا، التى تناضل من أجل استقلالها، انشاء اله ستتحقق الغايات الوطنية لليمن ايضا .

لقد شعرت ان هذه الكلمات ليست كلماته فقط، لقد ادركت الشعور اثناء اقامتنا القصيرة فى صنعاء انه اذا كانت الجماهير العريضة من الشعب اليمنى الا القليل عن التغيرات الاجتماعية التى حدثت فى بلادنا، واذا كانت انباء الانكسار العظيم والبناء الاشتراكى قد وصلت الى الجماهير على شكل اصداء غاضمة ونائبة فى افضل الحالات، فان سياسة الاتحاد السوفيتى تجاه الشرق ومساواة الشعوب السوفيتية فى الحقوق، والدعم المعنوى للنضال الوطنى التحررى لتركيا وافغانستان والصين - كل هذا قد تغلغل بقوة فى اذهان جماهير واسعة، وتمنيات الامام الوداعية فى هذه الحالة ، ولهذا فقد كان الوداع الاخير عزيز علينا - عزيزة علامات الاهتمام والعناية، التى رافقت رحلتنا تلك .

اليوم الأخير. احاول ان احفر فى ذكرياتى السموفونية الاساسية غير المعقدة لحياة العاصمة " الابدية " تكررت هذه السمفونية يوما بعد يوم . ومنذ ذلك الوقت الذى انتهى فيه خطر الغارات ، لم يعكر صفو وتائرها المنتظمةسوى الاستعراضات المهيبة للقوات والمرشات فى ايام الجمع، انى اتذكر الحانها الرئيسية .

حين يختفى الصليب الجنوبى وراء اشباح الجبال، تبدأ النجوم تنطفىء، ويعلن صياح الديكة وراء المدينة قبل الجميع عن قدوم النهار، كما هى الحال فى القرية الروسية، تدوى صرخة الحارس الطويلة من مركز الحراسة على جبل نقم، ينتفخ البوق العسكرى معلنا عن الفجر، ومن على الشرفة الرقيقة لمنارة المسجد " المزركشة " بكل الالوان الممكنة للخطوط المستوية والمتكسرة المختلفة الالوان، يبدو شكل المؤذن مثل نقطة مسودة، وصوته يتهدج يعلن عن عظمة الله يدعو الناس الى الصلاة.

من المكواة ومن وراء الشبابيك ونوافذ البيوت تلاحظ الحركة، تتفتح الابواب، تظهر الاشباح المغبرة فى الافنية، يبدأ الناعسون فى ايقاد المواقد وغلى القهوة ، تسمع رغاء الجمال المموه فى الحظائر، ونهيق الحمير والبغال، وتفتتح بوابات الاحواش فى اطراف المدينة تفتح الابواب السبعة للمدينة بمصارعيها الضخمة .

ما يزال الظلام على الارض، غير ان الشمس لم تبزغ من وراء الساتر الجبلى بعد، تضىء باشعتها قبة السماء، ومن على منحدرات الابار تبدو ملامح الجمال البغال والاثوار المنهكة، تجر الحبال ، ويتنامى صرير حرير القرب الدواره فى صوتية شديدة تملأ المدينة بصريرلايهداء ، تفتح الحوانيت فى السوق الذى يحتل نصف المدينة تقريبا، يظهر الباعه المتجولون وباعة الخضار والفواكه، وتخرج ارتال الحمير المستعجلة، والبغال الهادئة والجمال الواجمة بغباء من بوابات حظائر القوافل الكبيرة واماكن المبيت الصغير ، تتوجه الجموع الصاخبة من المسافرين من مختلف الاجناس الى بوابات المدينة، اينما توزع القوافل الى مختلف الجهات، الى البحر والى اعماق البلاد، يسوق الجزارون قطيع الماعز الى خارج اسوار المدينة، وعلى ساحة قريبة من باب اليمن (اكبر ابواب صنعاء) يبدأ الجزارون بالذبح ثم يسلخون الجثة المعلقة على حامل ذى ثلاثة قوائم، ويبدأ السوق بالغليان : تمتلىء الحوانيت، المقاهى، الورش، المطاعم، الشوارع والازقة جميعها بسيل من البشر، عازفا فى جوقة من الاصوات المتنافرة، فى خوار وثغاء الحيوانات، تحت ضربات المطارق، وصرير المناشر والمثاقب فى الورش الدحاحة، يصقل الحرفيون ويصنعون من الفضة مجامر النرجيلة، ويطلون اغماد الخناجر بقشرة ذهبية يزخرفونها ويشحذون نصالها، فى أقبية رطبه مظلمة تحت مبانى عالية، تدور الجمال المعصوبة العيون حول رحى معصرة الزيت من السمسم، ويلعب الفتيان على الاوتار القليلة للمنازل البسيطة فى ورشات النسيج؛ يرتفع دخان مصنع السلاح الصغير وراء عرضى الجيش المعزول عن المدينة، يصل مدرب الطيران الالمانى راكبا البغل الى المطار الواقع خارج المدينة، يراقب

المحرك ويبدأ بتوبيخ تلاميذه تلاميذه العرب على كسلهم وعدم الاهتام وسرقة البنزين، هؤلاء التلاميذ لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الالمانية، ومع ذلك يستمعون باهتمام يعيدون بتاثر " آخ " " زو " فى ساحة الضاحية، وتظهر الكتائب العسكرية المارة، تجر اسلحة البطاريات، يتمخطر الفرسان على طول سور المدينة.

وبجانب قصر الامام، على ابواب منزل القاضى راغب، وقرب الدوائر الاخرى تظهر جماعات الزوار المساكين والقادمون من اقصى اطراف البلاد احيانا، تصخب الحياة غير عابئة بقرص الشمس الملتهب وموجات الغبار العكر .

تقبل الظهيرة وقت الغذاء – يخفف صخب المدينة شيئاً فشيئا، ساعة اخرى، ويأتى وقت القات وكان " اكلوك قات " (ساعات القات)، كما سماه احد الاجانب الخبثاء، تهمد التجارة فى ساعات القات، وكل السكان الرجال من الصبى الى العجوز الهرم، من الفقراء الذين لا يملكون ولو قرش الى ابناء الامام وشيخ الاسلام يمضغون القات حتى يقعون فى خدر سعيد، يبدو انه حتى ولو ظهر العدو فى هذه الساعة تحت اسوار المدينة، فلما بصق حينها الحارس المناوب على البرج بالاوراق الخضراء.

وبعد ساعتين او ثلاث من " اكلوك قات " تبدأ المدينة تعيش حياتها كما كانت فى الصباح، وان كانت بوتائر ضعيفة خافتة، تندفع فى بوابات المدينة ارتال القوافل المحملة، التى تنقل بضائع ما وراء البحار من الموانىء ورزم الخامات النباتية، الصوف والجلود، تنقطع تمرينات الجنود فى ساحة المدينة، وبعد ان يقوم الامام بنزهة خارج المدينة على عربة خيل فاخرة واسعة، يرافقة عشرون او ثلاثين فارس من حاشيته، ثم يعود الى القصر، يواصل الفلاحون فى حقول الضواحى ذرى الدخن والذره، يفلحون الارض بمحراث يجره جمل، الاشغال الزراعية المختلفة لا توزع هنا طبقا للمواسم ، فالطقس المعتدل طول السنة تقريبا يمحى الفوراق بين مواسم الفلاحة والبذر والحصاد، تنحدر الشمس الى الغروب، ومن جديد يؤذن المؤذن من على المنارة المظلمة مشيرا الى انتهاء يوم العمل.

يتفرق الجميع الى منازلهم، يخيم الهدوء الذى لا يخرقه سوى نباح الكلاب البعيد، او الحان الفرق الموسيقية العسكرية المتنافرة، تفرغ الشوارع والأزقة، ولا يشق ظلمتها الفاغرة سوى ضوء مصباح يدوى نادر يتسرج به ماشى متأخر، تنطفىء الاضواء فى البيوت، وراء جدار القصر الملكى فقط تلمع مصابيح محطة كهربائية صغيرة طوال اليل، تضىء القصر، ودار سك النقود، المطبعة ومقر التلجراف، ابواب المدينة السبعة كلها موصدة ولا يوجد سوى الحراس

الذين ينابون فى الابراج يراقبون ملامح الطرق التى تكاد تلحظ بالكاد تلك الطرق المؤدية الى عدن المعادية، والى الحديدة الحارة، ومأرب الغامضة المرتابة عاصمة مملكة سبأ البعيدة المنال حتى الان، يشعر المرء تحت ستار الليل كيف تنمو وتتعزز القوة الجديدة، التى استيقظت من نوم الف سنة، تشق الطريق الواسع لوجودها الوطنى المستقل، الذى يغلى بالعمل الخلاق والجماعى (مستقبلا)، يتهيأ للمرء كما لو ان الاسوار الطينيه للمدينة والبيوت ذات النمط الموريتانى تنهار كانقاض تاريخية لا داعى لها، وكما لو انه تنفث مداخن المعامل دخانها فى السهل خارج المدينة، وتندفع خامات ثروات البلاد المجهولة الان على خط سكك الحديد من كل الجهات، وعبربلعوم بوابات المصانع التى لا تشبع، وتبقى اسماء " البوابات التى تم ازالتها فى بعض الساحات .

وتائر العوالم الأخرى

وجبل نقم الثابت الى الابد، كل هذا سيذكر بالماضى فقط ، الماضى الغابر، حين كان يهدد صنعاء النير الاستعمارى، حيث ساد الاضطهاد الاقطاعى والجمود البدائى، فى عام ١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨ ميلادية، والعام الثانى عشر من العهد الاشتراكى يصل الى صنعاء اناس من ذلك البلد المكون من أربع كلمات لا سعة هى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية .

الوتائر، الوتائر... وتائرنا البلشفية ... ايمكن الحلم بها يا ترى هنا، فى هذا البلد المنتعش، لكنه مع ذلك نصف نائم، هرم، مليئ ببقايا القدم وركام الانقاض ؟ القصور، الاحواض، النافورات، التماثيل – البشر انصاف العراة الذين يلبسون الاسمال، وسكان المنازل التى كانت فاخرة فى يوم ما ، وكانها روما القديمة العهد، المشبعة بالثقافة التى قد شاخت وهرمت وذبلت، ها قد اتت شعوب جديدة وناس جدد احتلوا مملكة الحمريين القدماء، واغتصبوها، انجبوا جنسا جديدا، لكنه ليس من جنس البرابرة والقوطيين والهرنيين، ان هذا الجنس الجديد لم يدمر القلاع والقصور القديمة، وانما سكانها، واصبحت المبانى الفاخرة مأوى لأناس عراة، جياع، انصاف متوحشين .

خمل هؤلاء البشر على انقاض الثقافة القديمة مئات بل وآلاف السنين ... لم يبقى من ذكر الحمريين القدماد سوى نقوش تنمحى على الصخور، أو تماثيل النساء الحجرية باجفان عابسة وقبضات مضمومة باحكام .

تعرض القادمون الجدد لفتوحات جديدة، ونما شعب جديد، خليط من الاشوريين، والفرس، والساميين، والاحباش، والمصريين، بل وربما من القبائل القوقازية، ثم تبلور هذا الخليط ونضجت اليمن جامدة تم صياغتها على شكل القرون الاولى للعصر الاسلامى .

انتقل التاريخ الى الشمال، الى هناك تحت اسوار فيينا، والقسطنطينية، الى موانىء جنوى، وانفرس وامستردام، والى ورش منشستر، وبرمنجهام، وشيفلد، وتعرجات نهر الراين، والالب ، واوديرا، والى شوارع باريس، وبولتافا، وليزج، وبرودين، ووترلو، بدأ يتشكل عالم الراسمالية الجديد، وتلاشت الحواجز القديمة، واقيمت حواجز وحدود وتخوم جديدة، وشمل البخار، والكهرباء، والراديو، والاسهم، والفوائد كل العالم .

اما هنا فى الزاوية المعزولة والمنسية والعصية من شبه جزيرة العرب، فى البلد الذى ساد فيه الجحيم حسب تصورات الجغرافيين القدماء، والذي كانت بوابته البحر الأحمر، هنا هجع ملايين البشر كموميات محنطة، فى حالة سبات عميق لعشرات القرون، يتوارون بين سلاسل الجبال، تحيط بهم صحراء شاسعة، ويحتمون بستار كثيف من اشعة الشمس العمودية، تابع سلالة الحمريين القدماء ركوبهم على البغال والحمير، يمضغون القات يرتشقون الماء بايديهم، يشربون قهوة قشر البن، يحافظون على الصلاة ليحرس الله البلد ثابتا لا يتغير، كى ينعم الشيوخ بنومهم المطمئن على السجاجيد الفارسية، وكى يحنى العبيد والفلاحون ظهورهم من الشروق حتى غروب الشمس فى مدرجات البن ومزارع الدخن والذرة .

قلبت حرب السلاطين العثمانيين العش العطن، ووصلت قعقعة السلاح من تاريا وفيستول والدردنيل، وموجة الشرق التحررية، بالشحنة التى دفعتها ثورة اكتوبر – كل هذا ايقظ غريزة البقاء، والارادة فى الحياة والازهار .

فرخت الشجرة القديمة عسالج فتية، وطمحت الى الاستقلال والتصنيع وضمانته، وظهر اليانكى فى مملكة الملك ارتور من كونيكتكوتا على هيئة اطباء ومهندسين ايطاليين، وطيارين المان، وضباط اتراك، وهم الان " التجار الحمر " السوفييت، والناس الذين لم يشاهدوا البحر قعدوا فى غرفة قيادة طائرة " يونكرس " وراء قيادة السيارة، ان النزوع الى الجديد ما زال يظهر بشكل طفولى غير حازم فى الغالب، يملاؤهم التهيب والتوجس، من الخطأ والارتباك، غير ان الرياح تهب طريه، وتتآلف مع اصداء العاصفة الثورية فى الشمال البعيد، تزكى تلك الشعلة، التى بدأت تنطلق شرارتها من تحت رماد الانقاض القديمة ومن تحت رمادركام القرون .

لكن الوتائر، الوتائر ...كم من الصعب هنا ان تشعر بنفسك فى تبعية كاملة لوتائر اخرى،

ومحيط آخر، تشعر بان كل حركاتك قد اصبحت اكثر ثقلا وبطأ، وكان رجليك قد امتلاءتا بالرصاص، من الصعب ان تحسب وتمعن التفكير فى كل تغير، كل اشارة وكل خطوة، كانها قد وقعت فى كوكب اخر ، محكومة بقوانين جاذبيه اخرى .

طريق العودة

الى الطريق ؟ وليكن الانفراج حتى ولو فى الطريق، ولو بالحركة - تحت ذريعة وصول السريع فى رفع الوتيرة التى يمكن الحلم بها حين نجلس جلوسا بطيئا مضجرا على سقف الشرفة المستوى

السيارة، البغل، الممرات المختصرة، المبيت القصير حيثما اتفق فى اقل الاماكن ملائمة، تعبر جزء من الطريق سيراً على الاقدام (لكى لا تنهك البغال)، تقطع الطريق مباشرة بدلا من المحنيات المتعرجة، صعودا، وهبوط ، ها نحن نرى بوعن، سوق الخميس، مفحق، مخافة، مجيلة، قطعنا الطريق فى سبع ليلى سابقا، وها هى تنخفض الان الى ليلتين تحت ضغط الضرورة والارادة فى الاسراع تستقبلنا السيارة قرب نحيل وقد ارسلت لا ستقبالنا من الحديدة، بضعة ساعات عبر قيظ وغبار تهامة، وفى اليوم الثالث من السفر نرى حيطان الحديدة البيضاء مرة اخرى وطرطشة الامواج الفوسفورية الهادية.

نستلم برقية من صنعاء مع التهنئة بمناسبة قطعنا للطريق بشكل قياسى، لكن وا أسفاه فالسرعة القياسية لم تبرر نفسها : " توبولسك " غير موجودة فى الميناء انها تضطرب فى صراع غير متكافىء مع الرياح الموسميه بين امواج المحيط الهندى، على بعد مائة ميل .

عشرة ايام من التسكع والحر الخانق فى الحديدة، معمل البن التجارى الذى يملكه الشيخ عمر المزجاجى حيث يقوم عشرات العمال ومئات العاملات بقشر البن من القشارة، ويفرزونه فى المناخل، ينثرونه فى اكياس من القش، لتهيئة نقله الى مختلف انحاء العالم البعيد، والى اوديسا السوفيتية لاول مرة فى تاريخ اليمن، تصل مجموعة من الهنود من بقاع الهند النائية، تسير فى طريقها الى الجبال، انهم اتباع المذهب الاسماعيلى، الذين يزرون اخوانهم فى المذاهب كل عام فى منطقة قرب مناخه. وصل وفد ابن سعود الى صنعاء للمباحثات مع الامام، ياتى ابناء الجالية المحلية الايطالية فى الحديدة لزيارتنا، يشكون من مكائد الانجليز، الذين لم يسمحوا بوصول الكروسين الايطالى الى جزر كمران وفرسان ، يصادرونه بغير حياء فى وضح النهار ،

ويتجاهلون مصالح الدول الاخرى، كما يشكى الايطاليون من بعضهم بعض، ويستعد ممثلو الشركات الراسمالية الايطالية المختلفة " المنظمة " لاكل بعضهم بعضا ، يتفسخون فى قيظ الحديدة الشديد، وعلى الساحل المقابل للبحر الاحمر فى عكيك سواحل مصوع وحتى فى جبال ارتيريا الباردة .

كل عقد التناقضات بين الامبرياليات الانجليزية والامريكية والايطالية وبين كل واحدة منها على حدة تجد ان انعكاساتها هنا ايضا، مثل شمس منعكسة فى قطرة صغيرة من الماء، فى هذه الزواية الشديدة القيظ من البحر الاحمر .

وحى صحيفة الحائط

هنا فى الحديدة، وعن طريق الصحف الالمانية الواصلة بالصدفة، نعلم عن النمو الكبير فى الاصوات التى حصل عليها الشيوعيون فى انتخابات الريخستاغ، كما نعلم ان بواخرنا الكاسحة للجليد (بعثة نابليون) (*) تنفذ مهامها فى الجليد القطبى البعيد، يتحدث عن ذلك طبيب ايطالى بصوت منخفض، وبتعبير حذر عن الامتنان، بينما نحن نغبط بحارة " كراسين " و " ماليجين " على الجليد الذى يحيط بهم، هذا الجليد المجهول فى شبه جزيزة العرب.

كان كل هذا بالنسبة لنا كانها انباء من كوكب بعيد، حيث فقدنا الامل فى العودة اليه ، لقد مضى ما يقارب ثلاثة اشهر على رحيلنا من اوديسا، ولم نستلم ولا مرة واحدة اخبار من الوطن السوفييتى، اذا لم تحسب تلك البرقيات الرسمية، التى تخبرنا بان البرقيات التى ارسلناها غير مفهومة، نصمت ونطبق على الاسنان بشدة، ننتظر " توبولسك " مرة اخرى يجب الصبر ايوب .

يشتدالحر، اغسطس - اكثر الشهور قيظ - يبدو قيظ البحر الاحمر فى شهر يونو باردا خفيفا اذا ما قارناه بقيظ اغسطس، انتهى احتياطى الماء المعدنى ، نشرب الماء ذات الطعم المالح، نرتشفها بالايدى، ولذلك يبدو وكانه مشبعا برائحة جثة (ها هى بقايا الخرافات القديمة) !

اذا كان النوم ثقيلا فى صنعاء، فى جفاف الهواء الجبلى، الذى لا يطاق، واذا كانت الماء المصبوبة فى الصحن مساءا تتبخر فى الصباح، وتتشنج الحنجرة بالم حاد نتيجة جفاف العروق، واذا كان هناك فى المرتفع الجبلى الحار، يخفق القلب بدون توقف، يبدأ الاحساس

(*) - بعثة مشهورة بقيادة نابليون النمساوي، مهمتها اكتشاف القطب المتجمد الشمالي سقط فيها المنطاد الذي كان يقلهم، فانقذهم البحارة السوفييت .

بالأنهاك بعد ساعتين او ثلاث ساعات من العمل وبعد نصف ساعة من السير، فاننا هنا فى الحديدة ننؤ تحت الرطوبة المحرقة، وانعدام الماء، فى الغبار، تحت زحف الذباب والالم الحاد لقرصات البعوض، لقد توفى احد الموظفين الايطاليين بعد ثلاث ايام من نوبات الملاريا الخبيثة، نشعر كيف يضعف ويستسلم الجسم، و " تويولسك " لا وجود لها ، تزحف الايام ببطء لا يطاق، تطول الليالى، وفى كل صباح ونوجه السؤال لانفسنا، متى فى الاخير ستأتى الباخرة ؟ نجيب على انفسنا بثبات : " انشاء الله بكره " ، وحين خدرت مشاعر الانتظار وخاب الامل (الم تبحر " تويولسك " دون ان تمر على الحديدة ؟) ، وفى صباح هادىء وخانق (ترن اجراس الجمال ، يصرخ الحاملون بعصبية على الرصيف) نرى الدخان البعيد وعلى افق يرتسم شبح الباخرة العزيزة علينا بلا حدود والعلم السوفييتى الاحمر يرفرف عند مؤخرة الباخرة ...

الرياح البحرية حادة وشديدة، يقترب الصنبوق من الباخرة البعيدة بتعرضات طويلة يبدل محله عدة مرات، مرة فى نهاية شمال المدينة ومرة اخرى فى طرفها الجنوبى، وبعد ساعة ونصف وبعد ان يجوب البحر كله ويتمزق شراعه فقط، يلتحم بجنب السفينه الحديدى وعلى الباخرة اولئك الناس أنفسهم، والقوارب نفسها، ونفس اليافطات . " نطالب باطلاق سراح الرفيق بيلاكوف " (وبالمناسبة قد اطلق سراحه) ، لكنهم قد نحلوا، واصفرت وجوههم، وصدىء حديد الباخرة، وغطى جزؤها الاسفل تحت الماء بطبقة من الصدف، ادت الباخرة واجبها، فقد نقلت اول البضائع السوفيتية الى موانئ فارس الجنوبية، وشاهدت مدن بندر، بوشير، وموخامير العلم السوفييتى، وتواجدت الباخرة فى مصب شط العرب، فى البصرة، حاملة البضائع الى العراق المضطهد من قبل الامبريالية الانجليزية، وفى طريق العودة مضت الباخرة بمكائن منهكة، لقد تقاذفها الرياح الموسمية للمحيط الهندى اكثر من عشرة ايام ، انتهى احتياطى الفحم، ووصل طاقم الباخرة الى اقصى حدود الأنهاك ، فتقرر ترك المعركة اليائسة مع الاعصار الجبار، استسلم البحارة للكارثة الطبيعية والذهاب الى كراتشى، اقرب الموانىء الهندية والبقاء هناك ، ولكن الاراده الحديدية للبحارة واصرار القبطان – المرشح للحزب اخذ الغلبة، فشقت الباخرة طريقها عبر الاعاصير ، وتمكنت من الحصول على التموين من الفحم فى مسقط ، وفى سواحل شبه جزيرة العرب، واخيرا الان– الى الامام ! فاوديسا تجذبنا من بعيد .

يبتعد اليمن ، ويختفى فى الضباب الازرق المغبر فيما بعد ، ها هى الساعات والايام – تمروكاننا فى بانورما ، تمر الباخرة على جزر بروستو، جزر الطيور ، جدة ، فنارات الصخور البحرية فى جزر يدال وجزيرة الاخوين ، والبانورما المصقولة لجبال سيناء .

استلقى على سرير شراعى اكل عليه الدهر وشرب فى شبه غيبوبة وبلا حراك ، تبدو حر ورطوبة البحر الاحمر باردة معتدلة بعد ايام الانتظار العصيبة المتعبة فى الحديدة الخانقة ، نقع تحت سلطة الباخرة بالكامل ، من الممكن ان لا نفكر فى شىء ، ربما لا تتمالك نفسك، يمكن ان ترمى جانبا ذلك الشد الحديدى من عدم ضبط النفس والتوتر، الذى نتخيله فى الوضع المجهول والمرعب فى البلدان الغربية ، حيث يفترض ان يكن مستعداً لكل شىء وبكامل الاسلحة باستمرار .

شريط الاحداث يعود الكرى ، نمر عبر فتحة قنال السويس، نشق طريقنا الى شواطىء رودوس ضد اتجاه الريح الشمالية الشرقية، وقهر الرياح مباشرة لم يكن بمقدور المكائن المضعضه لباخرتنا، نناور ونمسك بالايدى تقريبا بكل منعطف للصخور الساحلية ، نبحث عن ملجأ من الرياح المجنونة، التى تمنعنا من الوصول الى الوطن، باندهاش نشعر ان البحر غير موجود، يهب نسيم بارد عليل، نتسلل نتفرج فى متاهة الاماكن الضحلة، والجزر الصغيرة المتناثرة، نلتصق بشواطىء الاناضول، يغير القبطان خط السير، كى نتملص من غضب الرياح، نتفحص درجات مقياس الحرارة، وترتفع درجات العرض، وتختفى اليمن فى العمق البعيد الذى لا يرى، يقفز امامنا مدخل الدردنيل كفوهة مدفع هائل .

" رائحة الوطن " فى اسطنبول

تتنفس الباخرة حياة سوفيتية كاملة ، تنتعش الخلايا الحزبية ومجلس الباخرة من جديد، بعد ضغط الشهور الاستوائية، يلتقط عامل اللاسلكى اشارات نداء اوديسا من جديد وينشر انباء اذاعة موسكو، تناقش الخلية اساليب النضال ضد التهرب فى اوساط البحارة، يقوم الداعيه (" الكاهن السوفيتى " حسبما يطلق عليه البعض ذلك بخبث) يوميا " يقرأ القداس " (نعت ساخر ايضا) يثبت امام مجموعة من المستمعين فائدة نظام التوفير والنقد الذاتى ، ويصيغ مقولات ما ، خمسة من الحجاج الاستراخانيين العائدين (فى الطريق من جدة ، كان عددهم ثمانية مات ثلاثة منهم فى رمال الحجاز) يتزكرون بكآبة وخيبة امل المرات الشائكة فى صحارى شبه جزيرة العرب، والركض حفاة فى المواقد المنصهرة بمكة وتحت نفحات الريح الباردة سكتت مكتئبة عشرات القرود الصغيرة، التى اشتراها البحارة فى الموانىء العربية، هذه

الكائنات الصغيرة هى الشىء الوحيد الذى يمكن استيراده بغض النظر عن التحريم الجمركى، انصاف الاوادم القزمية هذه، التى اطلق عليها جملة من الأسماء البشرية، مثل باشكى، مارقوتكى، جيك، تلتصق ببعضها البعض فى وسط غريب جديد وقعت فيه، قرد واحد من القردة فقط اسمه جيك انه قرد زنجبارى متوحش، يختلف بحدة عن انصاف الاوادم اللطاف، يجلس غاضبا دائما وحذر ومكشر لا يقترب من البشر، يتطلع بحنين الى تلك السواحل القريبة جدا والبعيدة المنال، للباخرة التى تزحف ضد التيار ببطء والتى انهكها الزمن والامواج .

والجريدة الحائطية توزع المكافأة :

" الهدايا من الرحلة الفارسية "

" يمنح الاسطول التجارى رحلة مجانية الى فارس على الباخرة " توبولسك " (وهذا كما هو واضح هو اسوأ عقاب تمكن البحارة المحتدمون غيظا التفكير به) " .

يمنح بيكوف (الداعية) خمس سنوات من العزلة الشديدة فى مدينة كيسلوفودسك وينسين لانه حمل الفحم (لقد انهك هذا الشاب الذى قام بدور " الكاهن السوفيتى " وقدم مثلا يحتذى به ليس بالكلام فقط ، بل وبالفعل ايضا، لقد قام بحمل الفحم شخصيا فى اللحظات الصعبة).

يمنح وقاد والآلات البخارية عشرة طن من فحم مسقط ، وثمانين صندوقا من المكرونة من موسلينى مكافأة على الاضراب عن الفحم الايطالى (حيث لم يكن الفحم الذى تم شراؤه من السفن الحربية الانجليزية صالحا لالآت باخرتنا التى كانت تعمل بالكاد) .

" يمنح طاقم الآلات سميدا من الحنطة السوداء لمقاومة الاغماء " (لقد كانت حالات الاغماء كثيرة، وتلافيها امر غير ممكن فى ظل تفاهة التجهيزات) .

رصيف اسطنبول، ها هى رائحة الوطن - على هيئة المكاتب السوفيتية - ليست لذيذة وطيبة دائما ! ينعس فرع الاسطول التجارى السوفيتي هادئا تحت ضجيج شوارع اسطنبول ، على الرغم من انه اشعر بقدوم " توبولسك " ولكن موظفى الفرع لم يتفرغوا لتحضير الفحم والمؤنة مسبقا وبذلك يقللون من فترة وقوف الباخرة .

يقرر قبطان الباخرة كاديتسكى مهتاجا عدم انتظار المؤنة لسبب تأخرها ، ليكن فى هذه المجاعة الاستعراضية تعبيرا عن الاحتجاج ضد البيروقراطيين السوفييت المتهاونين فى الخارج ، يامر برفع المرساة تحت تذمر الطاقم المنهك من الجراية الشحيحة (صحن من الشوربه وقطعة صغيرة من اللحم المعلب فى اليوم) الى الامام، الى اخر مرحلة من السفن .ينتبه

البيروقراطيون بعد ان يروا الباخرة تبتعد، يقومون بحمل المؤنة المطلوبة على سيارة الى بيوك دير، حيث يفترض ان تتوقف باخرتنا قبل خروجها من البسفور، وفترة التوقف عشر أو خمس عشرة دقيقة وها نحن فى البحر الاسود المفتوح .

الاصوات الاولى لصرير تروس الآلة التى لم تدهن تخرق ادمغتنا بتنافر، وان كانت لا تستطيع ان تحجب عظمة ومغزى تلك العمليات، التى جرت امام اعيننا وبمشاركتنا فى سير تلك الرحلة المؤلمه عبر الرياح الضبابية، والشعاب ، والقيظ، وانعدام الماء، والاعاصير، والجوع، والامراض عبر تعنت الشركه ووخزات الاعداء عبر غباء وتمقول اصحابنا .

" بعد استخلاص نتائج رحلتنا، يجب الاشارة الى الكثير جدا .

– بصرف النظر عن عدم ملائمة باخرتنا لهذه الرحلة ، وسوء نوعية الفحم ، ودرجة الحرارة العالية ومختلف انواع الحرمان الأخرى، التى عانى منها طاقم الرحلة، بصرف النظر عن كل ذلك، فقد اظهر الطاقم نفسه كما يليق ببروليتارى سوفيتى وا ع ، اظهر الطاقم رباطة جاش كبيرة، مدافعا عن هذه القطعة الصغيرة من الدولة السوفيتية، غير آبه باية صعوبات، فتحنا نافذة على الاسواق العربية والفارسية، ونشرنا علمنا الاحمر بكل اتساعه امام عمال فارس والدول العربية، واجبرنا البرجوازية على الارتجاف، والتى لم تكن تنتظر قدومنا، والان وعند أنتهاء هذه الرحلة العسيرة، يجب ان نعبر عن تمنياتنا وامالنا بان تكون الرحلة الثانية اكثر سهولة وربح لدولتنا، لقد وضعنا الاساس، الذى سيبنى عليه صرح العلاقات التجارية والسياسية المتبادلة والصحيحة مع اليمن وفارس بغض النظر عن مكائد البرجوازية الاجنبية " هذه السطور المتواضعة، التى كتبتها يد بروليتارية بسرعة، والمليئة بالاخطاء الاملائية والانشائية، هى اقرب الى الحقيقة بما لا يقاس من كل اللغو المتفلسف من قبل بيروقراطيينا التجارين، ونعيق اصحاب الاعمال فى الاسطول التجارى السوفييتى، اتذكر كل التصريحات الساخرة، التحسرات التنبؤات المتأله مثل " لن نفلح فى شئ " او عسى الا يحصل شىء " وحتى " عسى ان لا يصيبكم مكروه " ، " لكن اى معنى لذلك " ... " اليمن – قبائل متوحشة " ، اتذكر الصوت المتفاخر قليلا للقاضى راغب قائلا ...

– لا ندرك بعد المغزى العظيم لهذه الايام بالكامل، التى وضع فيها بداية التقارب السوفيتى – اليمنى، نعلم ان الاتحاد السوفيتى عظيم جبار وعادل، وان المستقبل ليس لاعدائه، بينما اليمن صغيرة ويبدو انها ضعيفه، لكن اليمن هى الاخرى ستضع لبنتها فى صرح النضال العظيم للشعوب المضطهدة ضد مستعبديها، اليمن معروفة وتنظر اليها شعوب مصر والدول

العربية، ولها مؤيدون فى العراق، وفارس، والهند ... لاتغفلوا عن اليمن، فهى لم تلعب دورها بعد ، انا عجوز وهيهات ان اعيش حتى ذلك اليوم، حين يعطي التقارب الذى بدأت ثماره اليانعة، لكننى فخور بان الابناء والاحفاد سيرون، وسيفهمون ويثمنون اعمالى.. انشاء الله " — اقول فى دخيلتى، معطيا هذه الصيغة، المتعددة الجوانب معنى : " ليكن كذلك " .

" انشاء الله " سننتصر على الامبرياليين، والاعاصير، والتقصير وحشرات الاجهزة الحكومية الضارة الحقيرة، وجبن قليلى الايمان المصدئين المنتفعين .

الفنار الاوديسى

وقتها، فان هذه الخيوط الدقيقه ، غير المرئية، التى امتدت آلاف الاميال من قمم جبال اليمن ذروة ابراج الكرملين ومداخن مصانع موسكو ستتحول نتيجة لرحلتنا الى حبال فولاذية جبارة توحد كل العالم لتحرير العمل والابداع الجماعى، ان الفولاذ المسكوك لا يحمل آثار الصهر وسخام جدران المصانع ولن تصل شكوانا الى اناس المستقبل من العراقيل والحرمان والاخفاق (لهذا فلنقلل من الشكاوى) ، بل ستصل تلك المشاهد القصيرة، المنفردة، التى مثل اغصان الطحلب تحت السطح الشفاف للاحبار الكريمة اليمنية، تصور نجاحات ومنجزات عصرنا، حيث يصاغ من مخلفات الماضى المتراكمة آلاف السنين مستقبل القرون القادمة سواء تحت اشعة شمس الجليد القطبى التى لا تغيب او تحت الاشعة العمودية لشمس تهامة .

وفى الافق يظهر فنار اوديسا ...

رقم الإيداع : ١٥٠٧ / ١٩٩٣

I. S. B. N. 977 - 208 - 102 - 4




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



لوحة الغلاف الأمامية والتصميم للفنان محمود الهندى ، اللوحة الخلفية بريشة بور تنقانيد

3